

جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

السياسة الصليبية تجاه بلاد المغرب والأندلس 792-897هـ/1390-1492م

إعداد

بيسان عماد يوسف قاطوني

إشراف

د. عامر القبيج

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ
بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.

2019م

السياسة الصليبية تجاه بلاد المغرب والأندلس
792-897هـ / 1390-1492م

إعداد

بيسان عماد يوسف قاطوني

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 2019/07/18م، وأجيزت.

التوقيع

أعضاء لجنة المناقشة

1. د. عامر القبيج / مشرفاً ورئيساً

2. أ. د. عبد الرحمن المغربي / ممتحناً خارجياً

3. د. عدنان ملحم / ممتحناً داخلياً

ب

الإهداء

إلى كل المطالبين بالحرية، ورافضي الاستعمار.

إلى الأندلسيين الحاملين بالعودة إلى غرناطة وقرطبة وإشبيلية.

إلى الفلسطينيين المتمسكين بحق العودة إلى يافا وحيفا وبيسان.

إلى أحفاد المطرودين من ديارهم.

إلى ملهمي في حكمتي وعلمي، من قاسي الغيرة وتجرح كأس مرارتها، ليراني في قمة
النجاح: والدي العزيز.

إلى من غمرتني بفيض حنانها، قرة عيني وفؤادي، ورحمة الله على الأرض: والدي
الغالية.

إلى القلوب الطاهرة الرقيقة، ومن تشاركتنا معاً كل شيء، حتى الحلم؛ أختوتي: مجد وكريم
وعاصم.

وإلى صديقتي الدائمة والثابتة التي بقيت صديقتي قولاً وفعلاً: معالي ياسين.

إلى كل هؤلاء، أهدي ثمرة جهدي هذا

الشكر والتقدير

أحمدُ الله سبحانه وتعالى وأشكره؛ إذ وفَّقني في كتابة هذا العمل وأعانني على إتمامه، فله الحمد وإليه يعود الفضل كله، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

واعتدافاً بذوي الفضل عليّ؛ لا يسعني إلّا أن أقدم شكري وتقديري لكل من مد لي يد العون، وبخاصّة الدكتور عامر العبدج، الذي تفصّل بالإشراف وإسداء النصائح والتوجيه. كما أقدم بخالص الشُّكْر والتقدير والعرفان من السادة الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة على جهودهم في القراءة والتقويم.

ولا يفوتني، أن أرفع أسمى عبارات الشُّكْر إلى مقام أساتذتي في قسم التاريخ: الدكتور محمّد الخطيب، والدكتور عدنان ملحم، والدكتور أمية أبو بكر، الذين أناروا لنا دروب العلم والمعرفة.

والشُّكْر موصول إلى جميع العاملين في مكتبة جامعة التجاح الوطنيّة، وبخاصّة الأساتذة الفاضلين فايز سلّوم وعبد الله نصر، وجزيل الشُّكْر أيضاً إلى العاملين في مكتبتيّ بليّة نابلس والبيّرة، ومكتبة الجامعة الأردنيّة، ومكتبة بيسان في بيروت.

بيسان

الإقرار

أنا الموقعة أدناه، مقدمة الرسالة التي تحمل العنوان:

السياسة الصليبية تجاه بلاد المغرب والأندلس

792-897هـ/1390-1492م

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة كاملة، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أي درجة علمية أو بحث علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:

اسم الطالبة:

Signature:

التوقيع:

Date:

التاريخ:

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
ج	الإهداء
د	الشكر والتقدير
هـ	الإقرار
و	فهرس المحتويات
ح	الملخص
1	المقدمة
3	عرض لأهم مصادر الدراسة
30	الفصل الأول: الحروب الصليبية في بلاد المغرب والأندلس في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي
31	الحروب الصليبية، مفهومها ودوافعها
34	توجه القوى الصليبية نحو بلاد المغرب الإسلامي، أسبابه ودوافعه
45	الحملة الجنوبية على طرابلس عام 755هـ/1354م
49	الحملة الجنوبية المسيحية المشتركة على جزيرة جربة عام 790هـ/1388م
51	أحوال الممالك الإسبانية والأندلس، والعلاقات بينهما في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي
61	الفصل الثاني: الحروب الصليبية ضد بلاد المغرب الإسلامي (792-1390/875م)
62	حملة لويس الثاني دي بوربون على المهديّة عام 792هـ/1390م
69	أسباب السياسة الصليبية البرتغالية تجاه بلاد المغرب ودوافعها
75	السيطرة البرتغالية على مدينة سبتة عام 818هـ/1415م
81	فشل الحملة البرتغالية ضد مدينة طنجة عام 840هـ/1437م
83	السيطرة البرتغالية على مدينة القصر الصغير ومينائها عام 862هـ/1485م
85	السيطرة البرتغالية على طنجة وأصيلا وأنفا وأسفى وأزمور (867-891هـ/1463-1486م)
90	الفصل الثالث: السياسة الصليبية الإسبانية تجاه المغرب والأندلس منذ مطلع القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي حتى قيام الوحدة الإسبانية عام 884هـ/1479م

الصفحة	الموضوع
91	أحوال الممالك الإسبانية حتى قيام الوحدة الإسبانية عام 884هـ/1479م
94	الأوضاع الداخلية في بلاد المغرب في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي
101	الحملة الإسبانية ضد مدن الساحل الجزائري (800هـ/1398م، 867هـ/1462م)
104	الهجوم الإسباني على تطوان عام 803هـ/1400م، وقرقنة عام 827هـ/1424م
106	الحملة الإسبانية ضد جزيرة جربة عام 835هـ/1432م
107	أحوال مملكة غرناطة حتى نهايات القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي
116	السياسة الإسبانية تجاه الأندلسيين خلال عهد الملك خوان الثاني (Juan II) (809-858هـ/1406-1454م)
123	الفصل الرابع: السياسة الصليبية الإسبانية تجاه مملكة غرناطة الأندلسية (850-897هـ/1454-1492م)
124	أثر الفتح العثماني لمدينة القسطنطينية عام 857هـ/1453م على بلاد الأندلس
126	سياسة إسبان تجاه مسلمي الأندلس خلال عهد الملك هنري الرابع (Enrique IV) (858-879هـ/1454-1474م)
128	السيطرة الأندلسية على بلدة الصخرة عام 886هـ/1481م
130	سقوط مدينة الحامة عام 887هـ/1482م
132	حرب الاستنزاف الإسبانية، والسيطرة على بلدة الصخرة عام 888هـ/1483م
134	سقوط الحصون الغربية والجنوبية الغربية، ومدينة رندة عام 890هـ/1485م
137	سقوط مدينة لوشة، وحصون البيرة ومكلين وقلنبيرة عام 891هـ/1486م
139	سقوط مدينة مالقة عام 892هـ/1487م
144	سقوط مدينة بسطة عام 895هـ/1489م
145	حرب الاستنزاف الإسبانية، وسقوط مدينة غرناطة (895هـ-897هـ/1489م-1492م)
153	الخاتمة
156	قائمة المصادر والمراجع
175	الملاحق
b	Abstract

السياسة الصليبية تجاه بلاد المغرب والأندلس

792-897هـ/1390-1492م

إعداد

بيسان عماد يوسف قاطوني

إشراف

د. عامر القبيج

الملخص

عُدَّت الحروب التي شنتها القوى الصليبية الأوروبية بدعم من البابوية ضد بلاد المغرب والأندلس امتداداً للحروب الصليبية في بلاد الشرق. وتمثلت أهم هذه القوى في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي بفرنسا وإسبانيا والبرتغال، بالإضافة إلى دويلات المدن الإيطالية، وفي مقدمتها مدينة جنوة، التي نشطت في شن هجماتها ضد مدينة طرابلس وجزيرة جربة منذ القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. وتعددت الأسباب التي دفعت هذه القوى إلى ممارسة سياستها العدوانية ما بين أسباب ودوافع دينية وسياسية واقتصادية، مستغلة سوء الأحوال الداخلية في بلاد المغرب، وطامعة في الاستحواذ على ثرواتها الاقتصادية. وكان لموقعها الجغرافي، وامتلاكها لسواحل طويلة على المتوسط والأطلسي دور هام في توجيه الأنظار الصليبية إلى أراضيها. ولعل من أبرز الحملات الصليبية التي استهدفت بلاد المغرب: حملة لويس الثاني على المهديّة عام 792هـ/1390م، ثم قيام البرتغاليين بالسيطرة على مدينة سبتة عام 818هـ/1415م، التي مثلت احتلالها الخطوة الأهم على طريق سياستهم الاستعمارية. وعلى الرغم من فشلهم في السيطرة على مدينة طنجة عام 840هـ/1437م؛ إلا أنهم تمكنوا من ذلك عام 867هـ/1463م. كما تمكن البرتغاليون حتى عام 891هـ/1468م من السيطرة على القصر الصغير وأصيلا وأنفا وأسفى وأزمور في بلاد المغرب الأقصى، بعد أن عجزت الدولة المرينية ثم الوطاسية عن الدفاع عن أملاكها. ولم تسلم مدن بلاد المغرب الأدنى والأوسط من هجمات الإسبان، الذين اعتمدوا على الهجمات المباغثة والتخريب والنهب ثم الرحيل، ولم يسمح لهم انشغالهم في محاربة مسلمي الأندلس بالاستقرار في المدن المستهدفة، ويبدو أنهم هدفوا من وراء ذلك قطع الصلات بين المغرب والأندلس، ومحاولة القضاء على حركة الجهاد

البحري انطلاقاً من الموانئ المغاربية. ومن أهم معالم السياسة الصليبية الأوروبية ضد المسلمين في الغرب الإسلامي؛ الحروب الإسبانية المتواصلة ضد الوجود الإسلامي في بلاد الأندلس، حيث مملكة غرناطة، آخر الممالك الإسلامية هناك. وكان فتح القسطنطينية على يد العثمانيين عام 857هـ/1453م قد أسهم بشكل كبير في توجيه أنظار القوى الصليبية الأوروبية نحو بلاد الأندلس، وبخاصة أن البابوية عدت الانتصار على المسلمين في الأندلس بمثابة تعويض لها عن خسارتها في الشرق، ولهذا وضعت كل إمكاناتها البشرية والمادية تحت تصرف الملوك الإسبان. وجاءت فاتحة الانتصارات الإسبانية الكبرى في العام 855هـ/1462م، عندما سيطروا على جبل طارق، وازدادت وطأة هجماتهم ضد الأندلسيين بعد قيام الملكين فرناندو وإيزابيل بتوحيد التاجين القشتالي والأراجوني في العام 884هـ/1479م، مما مكنهما من البدء بحرب السنوات العشر في العام 887هـ/1482م، فسيطروا على جميع المواقع، ولم تنق سوى العاصمة غرناطة التي تمكنوا من دخولها في ربيع الأول عام 897هـ/كانون الثاني 1492م.

المقدمة

يهدف هذا البحث إلى دراسة أهم مراحل الاستهداف الصليبية الأوروبية تجاه بلاد المغرب والأندلس، منذ الحملة الفرنسية على مدينة المهديّة في بلاد المغرب في العام 792هـ/1390م، مروراً بالحملة البرتغالية ضد تلك البلاد، حتى حملات الإسبان ضد بلاد المغرب والحروب التي لم تتوقف بهدف إنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس، مما أدى في النهاية إلى سيطرتهم على مدينة غرناطة آخر المعاقل الأندلسية في شبه الجزيرة الأيبيرية في العام 897هـ/1492م.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في موضوعها، حيث لا تزال العديد من المواقع الإسلامية التي استهدفتها السياسة الصليبية الإسبانية والبرتغالية بأيديهم إلى يومنا هذا، فضلاً عن تركيز معظم المؤرخين والباحثين في كتاباتهم على الحروب الصليبية في الجناح الشرقي من العالم الإسلامي، ولم يولوا نظيراتها في بلاد المغرب والأندلس الاهتمام الكافي.

واقترضت خطة البحث ومعلوماته تقسيمه إلى أربعة فصول: الفصل الأول، وهو فصل تمهيدي حمل العنوان الآتي: الحروب الصليبية في بلاد المغرب والأندلس في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، واشتمل على الحروب الصليبية من حيث مفهومها ودوافعها، وأسباب توجه القوى الصليبية نحو بلاد المغرب. والحملة الجنوبية على طرابلس عام 755هـ/1354م، وعلى جزيرة جربة عام 790هـ/1388م. ثم تطرق إلى أحوال الممالك الإسبانية والأندلس والعلاقات بينهما في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.

وأما الفصل الثاني، فجاء بعنوان: الحروب الصليبية ضد بلاد المغرب الإسلامي 792-875هـ/1390-1471م وتناول حملة لويس الثاني دي بوربون الفاشلة على المهديّة عام 792هـ/1390م، وأسباب السياسة الصليبية البرتغالية تجاه بلاد المغرب ودوافعها، والحملة البرتغالية على سواحل بلاد المغرب خلال الفترة الممتدة من (818هـ-890هـ/1415-1486م).

وتطرق الفصل الثالث إلى: السياسة الصليبية الاسبانية تجاه بلاد المغرب والأندلس منذ مطلع القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي حتى قيام الوحدة الاسبانية عام 884هـ/1479م، وتضمن أحوال الممالك الاسبانية حتى التاريخ المذكور، والأوضاع الداخلية في مملكة غرناطة وبلاد المغرب الإسلامي خلال الحقبة المشار إليها، والحملات الاسبانية ضد مدن الساحل الجزائري ومدينة تطوان وجزيرة جربة خلال الفترة الممتدة من (800-835هـ/1398-1432م)، بالإضافة إلى الأحوال الداخلية لمملكة غرناطة حتى نهايات القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وسياسة الملك خوان الثاني (809-858هـ/1406-1454م) تجاه الأندلسيين.

أخيراً؛ الفصل الرابع: السياسة الصليبية الاسبانية تجاه مملكة غرناطة الأندلسية (850-897هـ/1454-1492م)، وتطرق إلى أثر الفتح العثماني لمدينة القسطنطينية عام 857هـ/1453م على الأندلس، وسياسة الاسبان تجاه مسلميها حتى نهاية عهد الملك هنري الرابع في العام 879هـ/1474م، وتبعات الوحدة بين تاجي قشتالة وأراجون، وأخيراً حرب الاستنزاف الاسبانية (886هـ-897هـ/1481-1492م) ضد مسلمي الأندلس، ومراحل سقوط المدن والقواعد الأندلسية، وأختُمت الدراسة بخاتمة اشتملت على النتائج التي توصلت إليها.

عرض لأهم مصادر الدراسة

- مؤلفات لسان الدين بن الخطيب، أبي عبد الله، محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني(ت).
776هـ/1374م)، ويعود ابن الخطيب بنسبه إلى بني سلمان اليمانيين القحطانيين، الذين وفدوا إلى الأندلس بعد الفتح الإسلامي واتخذوا من قرطبة مقراً لهم، وعرف أسلافه من الفقهاء بمعارضتهم سياسة الحكم بن هشام(180-206هـ/796-822م)⁽¹⁾، مما اضطرهم للمغادرة إلى طليطلة⁽²⁾، وعندما بدأت الأخطار الإسبانية تلوح في الأفق ارتحلوا إلى مدينة لوشة⁽³⁾، وفيها ولد بها ابن الخطيب في رجب 713هـ/نوفمبر 1313م⁽⁴⁾. وفي عهد السلطان الغني بالله محمد الخامس(755-760هـ/1345-1359م، 763-793هـ/1361-1393م)⁽⁵⁾ لقب بذي الوزارتين؛ لجمعه ما بين الوزارة والكتابة، وذي العمرين؛ لانشغاله بتدبير الحكم في نهاره والتصنيف في الليل⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ أبو العاص، الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، ثالث الأمراء الأمويين بالأندلس، ولد عام 154هـ/771م، وعرف بالفصاحة والكرم والحزم وحسن التدبير، والقدرة على قرض الشعر، استمرت خلافته ستاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً، واجه خلالها العديد من الثورات الداخلية، أهمها ثورة أهالي ريبض قرطبة، فدُعي بالريضي، انظر: ابن عذاري، ج2، ص(81-91).

⁽²⁾ طليطلة: مدينة وسط الأندلس على ضفة نهر التاج، بينها وبين وادي الحجارة خمسة وستون ميلاً وبينها وبين قرطبة وبلنسية تسع مراحل، انظر: الحميري، الروض، ص393. المرحلة: هي المسافة التي يقطعها المسافر في نحو يوم بالسير المعتاد على الدابة وتقدر (24) ميلاً. انظر: جمعة، ص56.

⁽³⁾ ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص374؛ انظر أيضاً: بسج، ص(25-26)؛ بوفلاقة، ص10. لوشة: مدينة بالأندلس غربي البيرة، بينها وبين قرطبة عشرون فرسخاً وبينها وبين غرناطة عشرة فراسخ، انظر: الحميري، الروض، ص604. الفرسخ: يتألف من ثلاثة أميال، أو ستة كيلو مترات، انظر: هنتس، ص94.

⁽⁴⁾ ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص548؛ البغدادي، ج6، ص167؛ ابن إياس، ق2، ج1، ص143؛ ابن حجر، الدرر، ج3، ص46.

⁽⁵⁾ محمد بن يوسف بن إسماعيل، تولى العرش بعد مقتل والده أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل (733-755هـ/1333-1354م)، عُرف عنه قوته وحزمه وعلاقاته الحسنة مع الدول الأخرى، عرفت غرناطة في عهده فترة من السلم والرخاء. اندلعت ضده ثورة في 760هـ/1359م خلع على أثرها عن العرش لمدة عامين، انظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص(50-30)؛ ابن خلدون، ج7، ص(405-406) 409.

⁽⁶⁾ المقرئ، نفتح ج5، ص80؛ ابن العماد، ج6، ص246؛ انظر أيضاً: ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص7 مقدمة المحقق؛ الزركلي، ص235؛ بسج، ص31.

بدأ ابن الخطيب حياته السياسية أواخر عهد السلطان أبي الحجاج يوسف (734-755هـ/1333-1354م)⁽¹⁾، في الوقت الذي كانت فيه مملكة غرناطة تتعرض لهجمات الملك القشتالي الفونسو الحادي عشر (Alfonso XI)(710-751هـ/1312-1350)⁽²⁾، وعمل في ديوان الإنشاء، ثم فوضه أبو الحجاج في التصرف بشؤون الدولة، وأنبأه عنه في إدارة الحكم⁽³⁾. وبعد مقتل سلطانه في العام 755هـ/1354م خلفه على العرش ابنه الغني بالله، فتولى ابن الخطيب منصب الكتابة ثم منصب الوزارة، وكان من أكبر معاوني الحاجب أبي النعيم رضوان (ت. 760هـ/1350م)⁽⁴⁾، وتمتع بمكانة بارزة عند الغني بالله، فأرسله في العام 755هـ/1354م في سفارة إلى السلطان أبي عنان المريني (759-749هـ/1348-1385م)⁽⁵⁾ 1348م⁽⁵⁾ يطلب منه العون والمدد للوقوف في وجه قشتالة⁽⁶⁾.

ثم كان الانقلاب في غرناطة عام 760هـ/1359م، حيث فقد الغني بالله عرشه على يد أخيه اسماعيل الثاني (760هـ/1360م)⁽⁷⁾، فعبر السلطان ووزيره ابن الخطيب إلى العدو

(1) يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل: أبو الحجاج، وصفه المؤرخ ابن الخطيب بأنه بدر الملوك وزين الأمراء تمكن خلال حكمه من إنشاء العديد من المنشآت المدنية كمدرسة غرناطة وجزء كبير من القصر الملكي والمسجد الكبير، وعرفت البلاد خلال عهده سنوات الاستقرار والبناء، انظر: ابن الخطيب، للمحة، ص89؛ الإحاطة، ج1، ص(509-508).

(2) الفونسو الحادي عشر: تولى العرش بعد وفاة والده فرناندو الرابع (Fernando IV)(1285-1312م) وهو طفل، فخضعت البلاد لوصاية النبلاء، وشهدت حالة من الاضطرابات والفوضى، لكن الأمر سرعان ما تغير بعد أن باشر الحكم بنفسه، حيث قام بالعديد من الإصلاحات الإدارية والقضائية، ومن أجل ذلك لجأ إلى العنف والقمع، انظر: عنان، دولة، ج4، ص(171-172).

(3) ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص377؛ المقرئ، نفع، ج5، ص76؛ انظر أيضاً: بالنثيا، ص28.

(4) أبو النعيم رضوان: أحد أهم وزراء الدولة النصرية الذين تقانوا في خدمتها وفرض الأمن في ربوعها وتعميرها، فبنى العديد من الحصون وكذلك سور ريبض البيازين، وأنشا المدرسة النصرية، وشارك في عدد من الغزوات، انظر: ابن الخطيب، للمحة، ص(90-96).

(5) أبو عنان، فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب المريني: تولى عرش الدولة المرينية في العام 749هـ/1348م بعد معارك مع والده، وتميز عهده بالتوسع في المغربيين الأدنى والأوسط على الرغم من الثورات الداخلية التي عصفت بدولته، كثورة أخيه ابي الفضل محمد بن أبي الحسن (ت. 755هـ/1354م)، وتوفي أبو عنان عام 759هـ/1385م، انظر: ابن خلدون، ج7، ص381، (388-389)، 390، 396؛ الزركشي، ص96.

(6) ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص(5-7).

(7) إسماعيل الثاني: أبو الوليد، إسماعيل بن أبي الحجاج يوسف، انقلب على أخيه الغني بالله عام 760هـ/1360م، إلا أنه لم يحسن التدبير، انظر: ابن الخطيب، للمحة، ص108؛ ابن خلدون، ج7، ص404.

المغربية لاجئين، وبعد قضائهما ما يقارب العامين تمكن السلطان المخلوع من استعادة عرشه، وقام باستدعاء ابن الخطيب من سلا وأعاد له مناصبه، فانفرد بالحل والعقد⁽¹⁾. وأما على صعيد السياسة الخارجية، فقد حرص ابن الخطيب على توثيق صلات المودة والتحالف بين مملكة غرناطة وبين الممالك الإسلامية في المشرق والمغرب عبر الرسائل التي أرسلها باسم سلطانه، يطلب فيها المدد ويستنهض هم المسلمين، فوجه لهذا الغرض عدداً من الرسائل السياسية للبلط المملوكي⁽²⁾.

ويبدو أن المكانة الكبيرة التي تبوأها ابن الخطيب دفعت منافسيه إلى الإكثار من الوشائيات ضده، وعندما شعر بذلك؛ لجأ إلى طلب الحماية من السلطان المريني أبي فارس بن عبد العزيز، ووصل إلى سبتة في العام 773هـ/1371م. وعلى الرغم من ابتعاد ابن الخطيب عن غرناطة إلا أن أعداءه أخذوا يسعون للتخلص منه، فاتهموه بالزندقة والإلحاد واتباع الفلاسفة الملحدين، وذلك بناء على ما ورد في كتابه "روضة التعريف في الحب الشريف"، فصدرت فتوى بحرق كتبه، فأحرقت، وصودرت أملاكه، وأرسل الغني بالله إلى السلطان المريني يطلب منه تسليمه، غير أن طلبه قوبل بالرفض. وعندما توفي السلطان المريني عام 774هـ/1372م فقد ابن الخطيب درعه الحامي، ولم يمضِ عامان حتى قام الغني بالله عام 776هـ/1374م بقلب الحكم لصالحه في المغرب الأقصى، ونودي بالأمير أبي العباس أحمد بن أبي سالم (776-786هـ/1374-1384م) (789-796هـ/1387-1393م)⁽³⁾، وكان تسليم ابن الخطيب أحد

(1) ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص13، 18؛ اللوحة، ص121؛ ابن خلدون، ج7، ص405، (496-497)؛ المقرئ، نفع، ج5، ص84.

(2) القلقشندي، ج8، ص(107-115)؛ انظر أيضاً: عنان، لسان، ص187.

(3) أحمد بن أبي سالم: أبو العباس، أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن، كانت فترة حكمه الأولى عشرة أعوام وشهرين، والفترة الثانية سبعة أعوام، وعانى في بداية حكمه من سطوة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن(ت. 772هـ/1370م) الذي استقل بمراكش، ثم خسر عرشه عام 786هـ/1384م، إلا أنه تمكن من استعادته بعد سبع سنوات، وتميزت فترة حكمه الثانية بالاستقرار، انظر: ابن خلدون، ج7، ص(450-467)؛ ابن حجر، الدرر، ج5، ص106.

أهم شروط توليته، وما أن وصل إلى الحكم حتى ألقى القبض عليه وأودعه بالسجن ثم أمر بقتله، فقتل في محرم سنة 776هـ/يونيو 1374م⁽¹⁾

مكانته العلمية ومؤلفاته: نشأ لسان الدين في غرناطة ودرس على أيدي شيوخها وأفاد من علماء بلاد المغرب، فأخذ عنهم القرآن والفقه والتفسير واللغة العربية والطب والمنطق والحساب والتاريخ، ومن أهم شيوخه: **قاضي الجماعة أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد الحسن السبتي (ت. 761هـ/1360م)** وكان إماماً في الفقه والنحو والعروض. ثم الإمام **شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي (ت. 799هـ/1397م)**، وكان شيخاً عارفاً بالحديث والنحو واللغة والشعر والقراءات. وكذلك **قاضي القضاة أبو عبد الله، محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن القرشي المقرئ، قاضي الجماعة بفاس،** وكان عالماً باللغة العربية والقراءة والفقه والتفسير حافظاً للحديث والتاريخ والأخبار والآداب⁽²⁾. **والأستاذ الصالح أبو عبد الله بن عبد المولى العواد الذي قرأ على لسان الدين القرآن وقراءاته وتجويده⁽³⁾.**

ومن شيوخه أيضاً: **أبو القاسم أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى جُزي (ت. 741هـ/1341م)** الإمام والفقهاء والمفسر والمحدث واللغوي، تولى الخطط الشرعية والقضاء في مدن برجة⁽⁴⁾ وأندرش ووادي آش⁽⁵⁾. **وشيوخ النحويين الإمام أبو عبد الله محمد بن علي الفخار**

⁽¹⁾ للتفاصيل؛ انظر: ابن خلدون، ج7، ص(444-453)؛ ابن حجر، الدرر، ج3، ص(49-50)؛ المقرئ، نفع، ج5، ص(102-103)، ص(105-106)، ص(110-111)؛ ابن الغزي، ج2، ص(192-193)؛ الشوكاني، ج2، ص193؛ الناصري، ج4، ص(63-64)؛ انظر أيضاً: ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص(10-11) مقدمة المحقق؛ الزركلي، ج6، ص235؛ بالنسبة، ص(255-257)؛ بسج، ص(29-30).

⁽²⁾ ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص387؛ المقرئ، نفع ج5، ص385؛ انظر أيضاً: بسج، ص(36-37).

⁽³⁾ ابن حجر، الدرر، ج3، ص46؛ المقرئ، نفع ج5، ص603.

⁽⁴⁾ برجة: حصن في نواحي أستجة، يبعد عنها نصف يوم، وهو ما بين اشبيلية وغرناطة، انظر: حاتم، موسوعة، ج1، ص227.

⁽⁵⁾ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص(52-53)؛ ابن حجر، الدرر، ج3، ص46؛ المقرئ، نفع ج5، ص514؛ الشوكاني، ج2، ص191؛ انظر أيضاً: بوفلاقة، ص12. وادي آش: مدينة تقع جنوبي الأندلس قريبة من غرناطة يوجد في شرقها نهر، انظر: الحميري، الروض، ص604.

البيري، أستاذ الجماعة، وعلم الصناعة، خطيب المسجد الأعظم في غرناطة⁽¹⁾، أخذ عنه ابن الخطيب قراءة اللغة العربية، والفقه والتفسير والعروض. كما تأدب على أيدي الرئيس أبي الحسن علي بن محمد بن سليمان بن الجياب (ت. 749هـ/1348م) وهو من أهل غرناطة وكان شيخاً بليغاً، من أهل الخير والصلاح، عارفاً في العلوم واللغة العربية والقراءات والحديث والأدب والتاريخ والتصوف، وكان إلى جانب ذلك إماماً في الفرائض والحساب⁽²⁾. وأخيراً العلامة الحكيم أبو زكريا يحيى بن هذيل (ت. 753هـ/1352م) الذي أخذ منه ابن الخطيب صناعة التعديل والطب⁽³⁾.

وترك ابن الخطيب تراثاً حافلاً ومتنوعاً في شتى الفنون والآداب، تنوعت ما بين الطب والتاريخ والآداب والسياسة والشعر، فناهزت مؤلفاته ما يزيد على الستين، لم يصلنا منها سوى القليل⁽⁴⁾. ومن مصنفاته في التاريخ: أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام. وقسمه ابن الخطيب إلى ثلاثة أجزاء؛ جزء يتناول تاريخ الجناح الشرقي من العالم الإسلامي، والثاني خصصه لتاريخ الأندلس حتى عصر الغني بالله محمد الخامس، والثالث لتاريخ العدو المغربية، وهذا القسم غير مكتمل، وكتابه: رقم الحل في نظم الدول، وهو عبارة عن مجموعة من القصائد الشعرية التي نظمها وشرحها، حيث تناول فيها تاريخ مجموعة من الدول الإسلامية في المشرق والمغرب منذ عهد الخلفاء الأوائل حتى عهد الموحدين، وكتابه: اللحة البدرية في الدول النصرانية، ألفه في العام 763هـ/1362م في مدينة غرناطة، وانتهى منه في العام 765هـ/1364م، ويعد من أبرز الكتب التي تناولت تاريخ بني الأحمر في غرناطة، حيث توخى فيه الصدق في نقل الرواية، وقسمه إلى خمسة أقسام، ومن كتبه الأخرى: طرفة العصر في دولة بني النصر، وقطع الفلاة بأخبار الولاية، ومعيار الاختيار

(1) السيوطي، ج 1، ص (174-175).

(2) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 4، ص 99، 123؛ ابن حجر، الدرر، ج 3، ص 46؛ المقرئ، نفح، ج 5، ص 75؛ الشوكاني، ج 2، ص 191؛ انظر أيضاً: بوفلاحة، ص 12.

(3) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 4، ص 388؛ ابن خلدون، ج 7، ص 440؛ ابن حجر، الدرر، ج 3، ص 46؛ المقرئ، نفح، ج 5، ص 75؛ الشوكاني، ج 2، ص 191؛ انظر أيضاً: بالنثيا، ص 252، بوفلاحة، ص 12.

(4) بوفلاحة، ص 34.

في ذكر المعاهد والديار، وهو عبارة عن معجم تناول مملكة غرناطة ومملكة بني مرين من النواحي الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، وكذلك كتاب نفاضة الجراب في علالة الاغتراب⁽¹⁾.

ومن تصانيفه في التراجم: التاج المحلى في مساجد القدر المعلى، ويجمع هذا الكتاب ما بين التراجم والتاريخ، تناول فيه لمحات من تاريخ مملكة غرناطة منذ نشأتها على يد محمد بن نصر (629-671هـ/1232-1274م)⁽²⁾ حتى العصر الذي عاش فيه، إضافة إلى تراجم لمائة وعشرة من شعراء الأندلس في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، ومن ضمنهم والده عبد الله بن سعيد السلماني⁽³⁾، وكتابه الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، ترجم فيه ابن الخطيب لمائة وثلاثة أشخاص من الأدباء والكتاب والعلماء والمقربين والفقهاء والخطباء والشعراء الذين عاصروه والتقى بهم في غرناطة⁽⁴⁾، والإكليل الزاهر فيما فضل من نظم التاج من الجواهر، وهو تنمة لكتابه التاج المحلى⁽⁵⁾، وكتاب عائد الصلة⁽⁶⁾.

ومن تصانيفه الأدبية في الشعر والنثر: أبيات الأبيات فيما اختار من مطالع ما له من الشعر⁽⁷⁾، وكتاب: تافه من جمّ ونقطة من يمّ، وهو مجموعة من الرسائل اقتضبها من شيخه علي

⁽¹⁾ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 4، ص(388-390)؛ البغدادي، ج 6، ص(167-168)؛ ابن حجر، الدرر، ج 3، ص 50؛ ابن الغزي، ج 4، ص(92-93)؛ الشوكاني، ج 2، ص 193؛ انظر أيضاً: الزركلي، ج 6، ص 235؛ بسّج، ص(38-41)؛ بوفلاقة، ص 34، 37، 40.

⁽²⁾ الغالب بالله، محمد بن يوسف بن محمد بن نصر: مؤسس مملكة غرناطة، عُرف بالشيخ، ويعود نسبه إلى سيد قبيلة الخزرج، هاجر قومه من المشرق في بداية الفتح الإسلامي واستقروا في ارجونة، وقام في أواخر عهد الموحدين وتحديداً في العام (635هـ/1238م) بدخول غرناطة، وأخذ البيعة من أهلها، واتخذها عاصمة لدولته، انظر: ابن الخطيب، رقم، ص(108-115)؛ المقرئ، نفع ج 5، ص(13-15).

⁽³⁾ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 4، ص 390؛ البغدادي، ج 6، ص(167-168)؛ ابن حجر، الدرر، ج 3، ص 50؛ الشوكاني، ج 2، ص 193؛ انظر أيضاً: الزركلي، ج 6، ص 235؛ بالنثيا، ص 258؛ بوفلاقة، ص 34.

⁽⁴⁾ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 4، ص 390؛ البغدادي، ج 6، ص(167-168)؛ ابن الغزي، ج 4، ص 92؛ انظر أيضاً: الزركلي، ج 6، ص 235؛ بالنثيا، ص 258؛ بسّج، ص 38؛ بوفلاقة، ص 38.

⁽⁵⁾ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 4، ص 390؛ البغدادي، ج 6، ص(167-168)؛ ابن حجر، الدرر، ج 3، ص 50؛ ابن العماد، ج 6، ص 247؛ ابن الغزي، ج 4، ص 92؛ انظر أيضاً: بالنثيا، ص 258؛ بوفلاقة، ص 43.

⁽⁶⁾ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 4، ص 389؛ ابن الغزي، ج 4، ص 92؛ انظر أيضاً: بسّج، ص 39؛ بوفلاقة، ص 43.

⁽⁷⁾ البغدادي، ج 6، ص(167-168)؛ ابن الغزي، ج 4، ص(92-93)؛ انظر أيضاً: ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص(17-19)؛ مقدمة المحقق؛ بسّج، ص 41.

علي بن محمد الأنصاري المعروف بابن الجياب (ت. 749هـ/1348م)⁽¹⁾، وتخليص الذهب في اختيار عيون الكتب، وجيش التوشيح الذي يتضمن مائة وخمسة وستين موشحة لستة عشر وشاحاً عاشوا في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وخلق الرسن للتعريف بأحوال القاضي ابن الحسن، كتبه للسلطان أبي فارس عبد العزيز المريني (786-799هـ/1393-1396م)⁽²⁾، وريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، وهو مجموعة من الرسائل السلطانية والسياسية يصف فيها المعارك الإسلامية في كل من إشبيلية⁽³⁾ وجيان⁽⁴⁾ والجزيرة الخضراء⁽⁵⁾ وجبل طارق، وبعض مراسلات الاستغاثة لسلطين بني مرين، وبعض مخاطبات ملوك النصارى⁽⁶⁾، وكتاب السحر والشعر، وهو مجموعة من المختارات الشعرية لعدد من شعراء الأندلس والمغرب والمشرق، وكتاب: كناسة الدكان بعد انتقال السكان، وهو عبارة عن رسائل سلطانية متبادلة ما بين بني الأحمر وبين السلطان المريني أبي عنان، يقدم فيه صورة عن طبيعة التعاون السياسي والعسكري بين المملكتين. وكتاب المباخر الطبية في المفاخر الخطيبية: ألفه ابن الخطيب

(1) علي بن محمد بن سليمان بن علي ابن الحسن الأنصاري (ت. 749هـ/1348م): ابن الجياب، من أهل غرناطة، يُكنى أبا الحسن الشيخ العلامة، من أهل الخير والصلاح، كان عارفاً في العلوم واللغة العربية، وإماماً في الفرائض والحساب، عارفاً في القراءات والحديث والأدب والتاريخ والتصوف، انظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص99، 123.

(2) أبو فارس، عبد العزيز بن احمد بن احمده بن أبي سالم المستنصر: تقلد عرش الدولة المرينية بعد وفاة والده أبي العباس أحمد (789-796هـ/1387-1393م)، كان محباً للشعر وركوب الخيل وحضور مجالس تفسير القرآن والحديث، ولم يكن بذات القوة التي عرف بها والده، فلم يتمكن من السيطرة على مقاليد الحكم، فظهرت في عهده طبقة الحُجاب، انظر: الكتاني، سلوة، ج3، ص204.

(3) اشبيلية: كانت تسمى اشبالي أي المدينة المنبسطة، وحرّف العرب اسمها إلى اشبيلية، تقع على نهر الوادي الكبير إلى الجنوب الغربي من مدينة قرطبة، وهو موقع أعطاها ميزة فريدة استراتيجياً وتجارياً مما جعلها ميناء نهرياً، وهي أول عاصمة للمسلمين في الأندلس، وأصبحت تابعة في عصر ملوك الطوائف لبني عبّاد، انظر: حتاملة، موسوعة، ج1، ص070، 74، 79.

(4) جيان: مدينة تقع وسط الأندلس، ويقع بالقرب منها نهر بلون، وبينها وبين بياضة عشرون ميلاً، انظر: الحميري، الروض، ص183.

(5) الجزيرة الخضراء: تقع على ربوة مشرفة على البحر جنوب الأندلس، بينها وبين قلشانة أربعة وستون ميلاً، يقال لها جزيرة أم حكيم نسبة لجارية طارق بن زياد، انظر: الحميري، الروض، ص223.

(6) ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص388؛ البغدادي، ج6، ص(167-168)؛ ابن الغزي، ج4، ص92؛ الزركلي، ج66، ص235.

للسلطان أبي فارس عبد العزيز المريني، حيث يرد فيه على من انتقصوا من منزلة بني الخطيب، ويذكر فيه نباهة أسلافه ومجدهم⁽¹⁾.

ومن تصانيفه في التصوف والشريعة والحث على جهاد النفس: استتزال اللطف

الموجود في سر الوجود، وأنشدت على أهل الرد، ويرد فيه ابن الخطيب على أصحاب الآراء المضللة وأهل الزندقة، والحلل المرقومة في اللمع المنظومة، تناول فيها أصول الفقه، والرد على أهل الإباحة والرميمة، حيث تناول فيه ابن الخطيب أصول الدين والدفاع عن الشريعة، وروضة التعريف بالحب الشريف: وهو كتاب في التصوف، عارض فيه ابن الخطيب ديوان الصبابة لأحمد بن يحيى أبي حجة التلمساني(ت. 776هـ/1375م)، وتكلم فيه على طريقة أهل الوحدة المطلقة، وعد بمثابة وثيقة إدانة ضده بالإلحاد والزندقة، وكتاب سدّ الذريعة، في تفصيل الشريعة، وكتاب المحبة⁽²⁾. ومن تصانيفه في السياسة: الإشارة إلى أدب الوزارة حيث تناول فيه آداب الوزارة، وبستان الدول، ويدور حول السياسة والحرب والقضاء وأهل الحرف والمهن⁽³⁾، وتخصيص الرياسة بتلخيص السياسة ورسالة السياسة، ويدور حول فن السياسة، ومقامة السياسة⁽⁴⁾.

وأما تصانيفه في الطب والأغذية: فله أرجوزة في فن العلاج من صنعة الطب، وذكر

فيه جميع الأمراض الكلية والجزئية وأسبابها وعلاماتها وطرق علاجها حسب أحوالها، والأرجوزة المعلومة: حيث عارض فيها أرجوزة لابن سينا الطبية⁽⁵⁾، والبيطرة، والديزرة⁽⁶⁾، والرجز في عمل الترياق الفاروقي، ورسالة تكوين الجنين: تناول فيها مراحل الحمل، ورسالة الطاعون، واسمه الآخر مقنعة السائل عن المرض الهائل، وهو عبارة عن رسالة تطرق فيها

(1) ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص388؛ البغدادي، ج6، ص(167-168)؛ ابن الغزي، ج4، ص(92-93)؛ انظر أيضاً: بسج، ص(40-41).

(2) ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص388، ج1، ص(20-22) مقدمة المحقق.

(3) المصدر نفسه، ج4، ص389؛ البغدادي، ج6، ص167؛ ابن الغزي، ج4، ص92؛ انظر أيضاً: بسج، ص39.

(4) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص(22-23) من مقدمة المحقق.

(5) البغدادي، ج6، ص168؛ انظر أيضاً: ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص(24-26) من مقدمة المحقق.

(6) ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص390؛ البغدادي، ج6، ص168؛ ابن الغزي، ج6، ص92؛ انظر أيضاً: بسج، ص41.

لمرض الطاعون الذي أصاب الأندلس وحوض البحر الأبيض المتوسط في العام 749هـ/1348م⁽¹⁾، وعمل مَنْ طبَّ لمن حبَّ: كتاب ضخم يبحث فيه مختلف الأمراض وطرق علاجها⁽²⁾، وكتابه المسائل الطبية والمعتمدة في الأغذية المفردة: تحدث فيه ابن الخطيب عن منافع الأغذية ومضارها، وكتابه الوصول لحفظ الصحة في الفصول: ويتحدث فيه عن الحمية الغذائية⁽³⁾، واليوسفي في الطب: ألفه ابن الخطيب مقتدياً فيه بالرازي (ت. 311هـ/865م) الطبيب ذائع الصيت في كتابه المنصوري⁽⁴⁾.

- وفيما يتعلق بتلاميذه: فقد أخذ منه كثيرون ، ولكن بعضهم لم يحفظ العهد وناصره العداء واجتهد في إيذائه، ومن أشهر تلاميذه الذين لم يحفظوا العهد: الوزير الكاتب أبو عبد الله بن زمرك: (ت. 795هـ/ 1393م) الذي ورث منصب أستاذه بعد التخلص منه، وقد تميز بن زمرك بنبوغه في اللغة والآداب والسير والتفسير واجتهاده الكبير في التصوف والرحلات. والطبيب العالم ابن مهنا: شارح ألفية ابن سينا، ويعد شرحه عليها من أفضل الشروح، وقد نقل عن لسان الدين الكثير فيما ما يتعلق بأمور الطب. الأديب العلامة القاضي أبو بكر ابن جزي: كان والده أحد شيوخ لسان الدين، وبيت بني جزي من البيوت المشهورة في المغرب والأندلس، وقد روى الكثير عن لسان الدين وقام بجمع مؤلفاته. المؤدب أبو عبد الله الشريشي: مؤدب أولاد الملوك ومعلم القرآن والسنة النبوية، وهو من نقل كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة من مبيضته في ستة مجلدات، وكان لسان الدين قد أعطاه كافة المبيضات وأوكل إليه مهمة نقلها لتقته الكبيرة به، واعتماده عليه، نظراً لانشغاله في شؤون الدولة. أبو محمد عطية بن يحيى بن عبد الله المحاربي: أحد تلاميذ ابن الخطيب، عرف عنه الهمة الكبيرة في العمل، ولد في وادي آش وتولى القضاء فيها في العام 743هـ/ 1342م وبقي فيها حتى أواخر العام 756هـ/ 1355م

(1) ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص388.

(2) المصدر نفسه، ج4، ص390؛ البغدادي، ج6، ص168؛ ابن اياس، ق2، ج1، ص94؛ ابن الغزي، ج4، ص92؛ انظر أيضاً: الزركلي، ج6، ص235؛ بالنثيا، ص39.

(3) ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص388؛ البغدادي، ج6، ص168؛ ابن الغزي، ج4، ص93؛ انظر أيضاً: بسج، ص41.

(4) ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص388، 390؛ ابن حجر، الدرر، ج3، ص50؛ ابن الغزي، ج4، ص93؛ الشوكاني، ج2، ص193؛ انظر أيضاً: بالنثيا، ص39.

حيث انتقل إلى غرناطة وولي الخطابة في مسجدها الأعظم ومن ثم تولى كتابة الإنشاء في الباب السلطاني. الكاتب أبو الحسن بن أحمد بن سليمان بن فركون(ت. 820هـ/1417م): كان من زمرة التلاميذ الذين انقلبوا على لسان الدين، ولذا نجده يمدحه في كتابة الإحاطة ويصفه بأنه شعلة ذكاء وطالب ذو خصال حميدة ومتميز عن أقرانه، إلا أنه ينقلب عليه في كتابه الكتيبة الكامنة ويصفه بأبشع الصفات(1).

ولعل من أبرز مؤلفاته في التاريخ: الإحاطة في أخبار غرناطة، الذي يعد من أهم المصادر التي اعتمدت عليها الدراسة، وهو موسوعة تاريخية وأدبية وجغرافية ضخمة، تناول فيها كل ما يتعلق بمدينة غرناطة : جغرافيتها وخطتها ومواقعها وما يحيط بها من المروج والجال، وتاريخها منذ الفتح الإسلامي حتى عهد السلطان الغني بالله، وكما اشتمل على دراسة مميزه لسير أعلام غرناطة، حيث قدم ترجمة لما يقرب من خمسمائة شخصية ممن عاشوا فيها أو نزلوا أو مروا بها أو وفدوا إليها في مختلف عصور التاريخ الإسلامي، وتتوعدت ما بين ملوك وأمراء وأعيان ووزراء وقضاة وعلماء وزهاد ومتصوفين وشعراء، ولم يقم ابن الخطيب بتأليف الكتاب دفعة واحدة، فبدأ بجمع المادة المطلوبة قبل النفي مع السلطان الغني بالله إلى المغرب، واستكمل العمل بعد عودته في العام 763هـ/1362م وأخذ يضيف وينقح حتى انتهى منه بشكل كامل في العام 772هـ/1371م. وبين ابن الخطيب دوافعه لتأليف كتابه من خلال مقدمته وأنه رأى كثيراً من العلماء والأدباء قد وضعوا مؤلفات لأوطانهم في الشرق والغرب معاً، فدفعه شعوره الوطني تجاه وطنه غرناطة للتفكير في كتابة مؤلف لها(2).

وأعتمد ابن الخطيب في تأليفه موسوعته على عدد كبير من المصادر المتنوعة والموثوقة، أهمها: كتاب أبي القاسم محمد بن جزي الغرناطي(ت. 741هـ/1340م) الذي اطلع عليه أثناء إقامته في فاس في العام 755هـ/1354م وسار على نهجه في تأليف كتابه(3)، وتاريخ افتتاح الأندلس لأبي بكر بن القوطية(ت. 367هـ/977م)، والمقتبس من أبناء أهل الأندلس لابن

(1) المقرئ، نفع، ج7، ص(145-146)، (281-283)، ص287.

(2) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص(3-4) مقدمة المحقق؛ بوفلاحة، ص(51-52).

(3) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص5 مقدمة المحقق.

حيان القرطبي(ت. 469هـ/1076م)، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني (ت. 542هـ/1147م)، والبيان المغرب لابن عذارى المراكشي(ت. 695هـ/1295م)⁽¹⁾. إضافة إلى المصادر الشفوية التي تنوعت ما بين شيوخه وتلاميذه حيث حصل على المعلومات من الأشخاص أنفسهم، أو من ذويهم أو من معارفهم، كما اعتمد على الوثائق والرسائل الديوانية الخاصة بسلاطين الدولة النصرية⁽²⁾.

واعتمد ابن الخطيب على الترتيب الأبجدي للتراجم في الحديث عن إقليم غرناطة وكل ما يخصه من ذكر هوائه وقبائله وملوكه وأعيانه وأكابره وفضلائه وقضائه وأدبائه وزهاده وسكانه، وقدم الكتاب على قسمين؛ القسم الأول: تناول فيه اسم مدينة غرناطة وتاريخها وجغرافيتها وبناءها وفتحها منذ أن دخلها العرب حتى أصبحت عاصمة بني زيري⁽³⁾ عام 403هـ/1012م وحتى اتخذها بنو الأحمر قاعدة لملكهم⁽⁴⁾. وأما القسم الثاني فخصه لكل من نزل الحاضرة من زائر أو قاطن ومتحرك وساكن، وسيرة أهل غرناطة من حيث أحوالهم وأملاتهم وأنسابهم وجندهم وأزيائهم، واعتد الترتيب الابجدي في ترجمة الأعلام، وذكّرت الأسماء على الحروف المبوبة، وقد قسم الترجمة إلى أقسام، فذكر الملوك والأمراء ثم الأعيان، ثم أفرد قسماً لذوي النباهة من قضاة والمحققين وعلماء القرآن والحديث والفضلاء والفقهاء والأدباء ورجال الدولة من وزراء وحجاب وكتّاب كما تطرق للحياة العامة، والحياة الاجتماعية والاقتصادية⁽⁵⁾.

كما قسم كل فئة من الفئات المترجم لها إلى تقسيم داخلي، فمن سكن المدينة بحكم الأصل والاستقرار، ومن جاء إليها من الأقطار المجاورة، ولم تقتصر الترجمة على أبناء غرناطة

(1) بوفلاقة، ص(56-58).

(2) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص5 من مقدمة المحقق؛ بوفلاقة، ص56.

(3) بنو زيري: إحدى طوائف ملوك الطوائف، ينتسبون إلى قبيلة صنهاجة البربرية، وتمكنوا في العام 403هـ/1212م من السيطرة على غرناطة واتخاذها قاعدة لملكهم حتى قدوم أمير المرابطين يوسف بن تاشفين في العام 483هـ/1090م وقضائه على ملوك الطوائف، وضم الجزيرة الأندلسية إلى بلاد المغرب الإسلامي، انظر: الفلقشندي، ج5، ص251؛ أنظر أيضاً: عنان، دولة، ج2، ص(120-121)، 124، (340-341).

(4) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص5 مقدمة المحقق؛ بوفلاقة، ص(61-62).

(5) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص5 مقدمة المحقق؛ بوفلاقة، ص61.

وحسب؛ بل على كل من كان له علاقة من قريب أو بعيد بهذه الحاضرة، وفيما ما يتعلق بمنهج ابن الخطيب في الكتابة التاريخية والأدبية والترجمة للشخصيات التاريخية فكان على النحو التالي: يبدأ بعرض الشخصية المترجم لها من حيث اسمه وكنيته ونسبه وثقافته ومشيخته ووقت دخوله غرناطة في حال كان ليس من ساكنيها ووفاته⁽¹⁾.

ولعل المطلع على تلك الترجمات يلاحظ أن ابن الخطيب وقع في خطأ التكرار في كتبه، فنقل المعلومات المتعلقة بغزوات السلطان الغني بالله والترجمات المتعلقة بالملوك كما هي في عدد من كتبه⁽²⁾، وأفاض في حديثه عن سلاطين الدولة النصرية ولا سيما ترجمته للسلطان الغني بالله، بينما أوجز في ترجمة كثير من الأعلام الأندلسية الأخرى أمثال: عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل (138-172هـ/755-788م) والمطرف بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام (ت. 282هـ/895م) وغيرهما. وركز ابن الخطيب في ترجمته لملوك بني الأحمر على الجانب التاريخي والسياسي، فأسهب في الحديث عن السلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج وتطرق لأهم الأحداث العسكرية التي وقعت في عهده، وعلى وجه الخصوص الهجمات القشتالية على الأراضي الأندلسية، كما تناول العلاقات الطيبة التي ربطت غرناطة بفاس، وانعكاس هذه العلاقة على أرض الواقع عبر المشاركة المرينية في الدفاع عن الأراضي الأندلسية ضد الهجمات القشتالية، وخوضهما حروباً مشتركة مثل: معركة طريف 740هـ/1339م⁽³⁾ ومعركة الجزيرة الخضراء 742هـ/1341م⁽⁴⁾.

(1) بوفلاقة، ص 62.

(2) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 6 مقدمة المحقق.

(3) طريف: جزيرة تقع على مضيق جبل طارق، ويتصل بها من الغرب المحيط الأطلسي، ومن جزيرة طريف إلى الجزيرة الخضراء ثمانية عشر ميلاً، انظر: الحميري، الروض، ص 39، أما واقعة طريف فحدثت 741هـ/تشرين الأول 1340م بين الجيوش الأندلسية بقيادة أبي الحجاج يوسف (733-755هـ/1333-1345م) والمرينيين بقيادة السلطان أبي الحسن علي (731-752هـ/1331-1351م) من جهة، وجيوش الممالك المسيحية القشتالية وليون واراغون والبرتغال من جهة أخرى، وانتهت بهزيمة المسلمين ومقتل وأسر عدد كبير منهم، انظر: ابن الخطيب، كناسة، ص 33؛ انظر أيضاً: الحجى، ص 543.

(4) معركة الجزيرة الخضراء: معركة بحرية وقعت في شوال من العام 740هـ/أبريل 1340م بين الأسطول القشتالي والأسطول المغربي بمشاركة أندلسية في مياه الجزيرة الخضراء، وانتهت بانتصار المسلمين وسيطرتهم على بعض القطع البحرية، انظر: ابن الخطيب، كناسة، ص 30؛ ابن خلدون، ج 7، ص (345-346)؛ الناصري، ج 3، ص 135.

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، للمقري، أبي العباس، أحمد بن محمد بن يحيى (ت. 1041هـ/1632م)

ولد المقري بتلمسان في العام 986هـ/1578م⁽¹⁾، وكنى أبا العباس، ولقب شهاب الدين⁽²⁾. وينتمي لأسرة قرشية يعود أصلها إلى إحدى قرى الزاب القريبة من بلاد المغرب الأوسط⁽³⁾. هاجر جده أبو عبد الله محمد المقري (ت. 759هـ/1359م)⁽⁴⁾ إلى تلمسان في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، وعملت أسرته بالتجارة وحفر الآبار وتأمين التجارة⁽⁵⁾. وشهد المقري دخول العثمانيين الجزائر، كما شهد تدفق الأندلسيين بعد طردهم بشكل نهائي في العام 1022هـ/1613م، وانتقال مركز الخلافة من القاهرة إلى اسطنبول⁽⁶⁾، وكان على اطلاع بالأحوال السياسية للدولة السعودية، فشهد أواخر عهد السلطان المنصور السعدي وثورة ابنه محمد الشيخ الملقب بالمأمون (ت. 1017هـ/1608م) عليه في العام 1010هـ/1601م واستقلاله بالحكم في فاس واستعانتة بالأتراك⁽⁷⁾.

وبعد وفاة السلطان المنصور بالطاعون وتولية ابنه السلطان أبي المعالي زيدان العرش، وقع نزاع بينه وبين أخوته على الحكم، فثار أخوه المأمون في مراكش في العام 1012هـ/1603م وما لحق ذلك من فتن ومنازعات وحروب داخلية، لجأ للاسبان فتنازل لهم في العام 1018هـ/1610م عن مدينة العرائش⁽⁸⁾، وتمكن من الحصول على فتوى من بعض العلماء والفقهاء بجواز ذلك، وخشية منهم من بطشه، فقام بعض العلماء بالاختفاء، وكان من

(1) المقري، نفع، ج1، ص5 من مقدمة المحقق؛ عنان، تراجم، ص375؛ نويهض، ص310؛ مكي، ص369؛ حسن، ص21.

(2) المحبي، ج1، ص302؛ انظر أيضاً: الكتاني، فهرس ج1، ص574؛ المقري، نفع، ج1، ص5 من مقدمة المحقق؛ عنان، تراجم، ص374؛ نويهض، ص310؛ مكي، ص365؛ حسن، ص12.

(3) التنبكتي، ص(420-421)؛ انظر أيضاً: عنان، تراجم، ص374؛ مكي، ص388.

(4) التنبكتي، ص(420-421)؛ انظر أيضاً: مكي، ص369.

(5) المقري، رحلة، ص5.

(6) الناصري، ج6، ص11؛ انظر أيضاً: مكي، ص366.

(7) الناصري، ج5، ص(169-170)؛ انظر أيضاً: حسن، ص11.

(8) العرائش: مدينة واقعة على شاطئ المحيط الأطلسي على مصب نهر اللكوس، فجهة من هذه المدينة تقع على المحيط والجهة الأخرى تقع على ضفة النهر، انظر: كربخال، ج2، ص188.

بينهم الإمام أبو العباس المقرئ⁽¹⁾ الذي ما لبث بعد ذلك أن رحل إلى مصر واستقر بها، إلى أن توفي في القاهرة في العام 1041هـ/1632م ودفن في مقبرة المجاورين الملكية⁽²⁾.

رحلته ومآثره العلمية: تلقى المقرئ في تلمسان تعليمه على يد عدد من الأدباء والعلماء الذين بقوا في المدينة، وعلى رأسهم مفتيها عمه أبو عثمان سعيد بن أحمد المقرئ (ت. 1025هـ/1616م) الذي زين لابن أخيه الرحيل إلى فاس، مدينة الثقافة والعلم والأدب، فدخلها في صفر 1009هـ/1609م⁽³⁾ والتقى فيها بعدد من العلماء والأدباء⁽⁴⁾، كالفقيه إبراهيم بن محمد محمد الايسي الذي أصطحبه المقرئ إلى مراكش⁽⁵⁾، والتقى فيها بالسلطان المنصور أحمد الذهبي (986-1012هـ/1578-1603م)⁽⁶⁾، وسمع فيها عدداً من الشيوخ، ثم ارتحل منها عائداً إلى تلمسان، وعكف فيها على تأليف كتابه "روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس" لتقديمه للسلطان المنصور، إلا أن وفاة السلطان قد حالت دون ذلك⁽⁷⁾، وفي العام 1013هـ/1614م عاد إلى فاس التي وجد فيها ضالته، حيث مجالس العلم وخزائن الكتب وكثرة الأدباء والعلماء والمتقنين⁽⁸⁾.

(1) الناصري، ج 6، ص (4-5)، ج 7، ص (20-22).

(2) المحبي، ج 1، ص 311؛ انظر أيضاً: المقرئ، نفح، ج 1، ص 10 مقدمة المحقق؛ الكتاني، فهرس، ج 1، ص 574؛ عنان، تراجم، ص 379؛ نويهض، ص 311؛ حسن، ص 186.

(3) المحبي، ج 1، ص 302؛ انظر أيضاً: عنان، تراجم، ص 375؛ نويهض، ص 310؛ مكي، ص 370؛ حسن، ص 26.

(4) المقرئ، نفح، ج 1، ص 5 مقدمة المحقق.

(5) المقرئ، نفح، ج 1، ص 5 مقدمة المحقق، رحلة، ص 7 مقدمة المحقق؛ مكي، ص 370؛ حسن، ص 26.

(6) أبو العباس، القائم بأمر الله، أحمد المنصور بالله السعدي، المعروف بالذهبي: يعد عهده من أزهى عهود الدولة السعدية، ببيع بعد انتصار معركة المخازن عام 986هـ/1578م، تربع على العرش لربع قرن، وصلت خلالها الدولة إلى قمة مجدها وعظمتها، وحرص خلال حكمه على تقوية علاقته مع الاسبان والبرتغال، ومن أجل ذلك منح التجار الأجانب امتيازات خاصة، ولجأ لعقد التحالفات العسكرية مع الأوروبيين لمواجهة الخطر العثماني، انظر: الناصري، ج 5، ص 89، (91-95)، 145، 186.

(7) المحبي، ج 1، ص 302؛ انظر أيضاً: المقرئ، نفح، ج 1، ص 5 مقدمة المحقق، رحلة، ص 7 مقدمة المحقق.

(8) المحبي، ج 1، ص 302؛ انظر أيضاً: المقرئ، نفح، ج 1، ص 7 مقدمة المحقق؛ عنان، تراجم، ص 375؛ نويهض، ص 310؛ مكي، ص 370؛ حسن، ص 26.

واستقر المقرّي في فاس لمدة أربعة عشر عاماً أصبح خلالها من أفاضل العلماء⁽¹⁾ في بلاط السلاطين السعديين، مستفيداً من مكتباتهم الخاصة⁽²⁾، فجمع مادته ودوّن مذكراته من عشرات الكتب والوثائق الأندلسية⁽³⁾، ثم اضطر لمغادرتها في العام 1027هـ/1618م قاصداً المشرق الإسلامي، وفي بلاد الحجاز أدى مناسك العمرة، وبقي فيها حتى وقت الحج، كما زار قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وجاوره عدة أيام، وألقى خلال زيارته دروساً في الفقه والحديث والسيرة النبوية⁽⁴⁾.

وقصد المقرّي في ربيع الأول من العام 1029هـ/1620م بيت المقدس والخليل، واتصل بعدد من علمائها⁽⁵⁾ من بينهم أيوب الخلوتي (ت. 1071هـ/1660م)، كما ألقى بعض الدروس، ومن ثم غادرها إلى القاهرة التي اتخذها مستقراً له، ولازم الدرس والتدريس، وحظي بمكانة علمية مرموقة، وكان أكثر وقته يمضيه في مكتبة رواق المغاربة، التي عُثر فيها فيما بعد على مخطوطة كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة وعلى هوامشها ملاحظات بخط المقرّي⁽⁶⁾، كما كان له مجلس عظيم في صحن الأزهر يقرأ العقائد على تلاميذه⁽⁷⁾. وأما دمشق فقد وصلها المقرّي في رمضان 1040هـ/1631م، وخرج للقائه عدد كبير من الأعيان، كشهاب الدين أحمد الشاهيني (ت. 1053هـ/1643م)، الذي أنزله في حي المغاربة بدمشق وأعتنى به. ونال فيها اهتماماً كبيراً من أدبائها وشعرائها الذين دأبوا على الإشادة بخصاله الحميدة ومدحه وتعداد فضائله وذكر قيمته العلمية والأدبية، ودأب المقرّي خلال إقامته بدمشق على إلقاء الدروس في الجامع الأموي، فالتف حوله الطلاب من كل صوب⁽⁸⁾.

(1) المقرّي، نفح، ج1، ص7 مقدمة المحقق؛ عنان، تراجم، ص375؛ مكي، ص370؛ حسن، ص26.

(2) عنان، تراجم، ص375؛ حسن، ص29.

(3) عنان، تراجم، ص381.

(4) المحبي، ج1، ص304؛ انظر أيضاً: المقرّي، نفح، ج1، ص8 مقدمة المحقق؛ عنان، تراجم، ص376؛ نويهض، ص310؛ مكي، ص373؛ حسن، ص31.

(5) المقرّي، رحلة، ص8 مقدمة المحقق؛ عنان، تراجم، ص377؛ مكي، ص373؛ حسن، ص32.

(6) عنان، تراجم، ص377؛ مكي، ص373؛ حسن، ص33.

(7) الكتاني، فهرس، ج1، ص574.

(8) المقرّي، نفح، ج1، ص9، رحلة، ص38؛ المحبي، ج1، ص305، 311؛ انظر أيضاً: عنان، تراجم، ص377؛ مكي، ص374؛ حسن، ص(45-46).

وأما فيما يتعلق بشيوخه؛ فقد دأب المقرّي على التردد على مجالس الدرس والرواية، فحفظ من خلالها عدداً من كتب الدين والحديث، وقرأ كثيراً من كتب التاريخ والأدب، وأولى اهتماماً كبيراً للفقهاء والدين والأخبار⁽¹⁾، كما التقى عدداً من العلماء والأدباء ومن أهم شيوخه: عمه الشيخ أبو عثمان سعيد بن أحمد المقرّي شيخ الشيوخ ومفتي تلمسان (ت. 1013هـ/1604م). الشيخ أبو عبد الله محمد بن القاسم القيسي القصار (ت. 1013هـ/1604م) من علماء المغرب، التقى المقرّي به في فاس، وروى عنه بعض الأحاديث النبوية. أحمد بابا التنبكي (ت. 1032هـ/1627م) صاحب كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج، وهو من علماء إفريقيا، وكان فقيهاً ومحدثاً التقى به المقرّي في الأعوام الممتدة من (1009-1014هـ/1600-1605م). أبو العباس أحمد بن القاضي (ت. 1025هـ/1616م)، من أشهر علماء المغرب، أخذ المقرّي عنه علم الفرائض والحساب والهندسة والفقهاء والنحو. علي بن عمران السلاسي (ت. 1018هـ/1609م) الفقيه والقاضي والمفتي والعلامة، التقى به في جامع القرويين وشهد السلاسي للمقرّي بالتفوق وقوة الحجة والنباهة⁽²⁾.

مؤلفاته: ترك المقرّي ثروة كبيرة ساهمت في إثراء الحركة العلمية، وتنوعت المؤلفات التي تركها بين الثقافة والأدب والفقهاء والتوحيد والتراجم، ومن تصانيفه في التاريخ والتراجم: أزهار الرياض في أخبار عياض: يتحدث الكتاب عن الحياة العلمية في المغرب، وترجمة فيه لكثير من علمائها، وأختص بالذكر القاضي عياض (ت. 544هـ/1149م)⁽³⁾، كما عرض بعض الأحداث التي صاحبت سقوط مملكة غرناطة، والأخبار التي سمعها من الأندلسيين الفارين إلى المغرب. وكتابه روض الأس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحاضرتين مراكش وفاس، وهو أول باكورة أعمال المقرّي، وبدأ تأليفه في عام 1011هـ/1602م وانتهى منه في العام

(1) حسن، ص 522.

(2) المقرّي، رحلة، ص 239؛ المحبي، ج 1، ص (170-172)؛ انظر أيضاً: المقرّي، نفع، ج 1، ص 5 مقدمة المحقق؛ حسن، ص (53-55)؛ نويهض، ص 310.

(3) أبو الفضل، عياض بن موسى بن عمران بن موسى اليحصبي: القاضي والإمام المالكي، سبتي الميلاد وأندلسي الأصل، ارتحل في العام 507هـ/1113م إلى الأندلس طلباً للعلم، تولى عدداً من المناصب كقضاء سبته وغرناطة، ومن أهم مؤلفاته: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، وإكمال المعلم في شرح مسلم، انظر: ابن الخطيب، الاحاطة، ج 4، ص (188-190)، (192-193).

1013هـ/1604م وترجم فيه لعدد من علماء المغرب ومن لقيهم أو تلقى عنهم أو عاشوا أيامه⁽¹⁾.

ومن مصنفاته في التوحيد والفقہ والسيرة النبوية: حاشية على أم البراهين للشيخ السنوسي، وكتابه إضاءة الدجنة لعقائد أهل السنة، وهو في علم الكلام والتوحيد، ودرسه في الحرمين الشريفين، وكتابه اتحاف المغرم الغمري في شرح الصغرى السنوسي، وهو في علم الكلام، وقد بدأ المقرئ تأليفه في فاس وأكماله في الإسكندرية ولم يطبع إلى اليوم، وكتابه قطف المهتصر في شرح المختصر على حاشية مختصر خليل، وكتابه فتح المتعال في مدح النعال، وهو مجموعة شعرية في نعل الرسول صلى الله عليه وسلم، وعكف المقرئ على تأليفه أثناء تواجده في المدينة المنورة، وكتابه خلاصة أزهار الكمامة في شرق العمامة. **ومن مؤلفاته الأخرى:** حسن الثنا في العفو عن جنى، جمع فيه بعض الآيات والأحاديث، وله أيضاً الشفاء في بديع الاكتفاء، وشرح مقدمة ابن خلدون (ت. 808هـ/1406م)⁽²⁾.

وفيما يتعلق بتلاميذه؛ فقد درس على يديه عدد من العلماء في المشرق والمغرب نذكر منهم: **أبا الحسن علي بن عبد الواحد بن محمد بن أبي بكر الأنصاري (ت. 1054هـ//1645م)** وتلمذ على أيد المقرئ في فاس، وكان دائم الترحال معه. **أبا عبد الله محمد بن أحمد ميارة (ت. 1072هـ/1666م).** **أبا العباس أحمد بن شاهين (ت. 1053هـ/1643م)** تتلمذ على يد المقرئ في دمشق⁽³⁾. **أبو القاسم محمد بن جمال الدين بن خلف المسراتي (ت. 1065هـ/1655م)** أخذ عن المقرئ في القاهرة. **الشيخ عبد الباقي الحنبلي،** وكان من أعظم علماء الإسلام فقهاً ودياناً وحفظاً⁽⁴⁾.

(1) المحبي، ج 1، ص 302؛ انظر أيضاً: الكتاني، فهرس، ج 1، ص 575؛ المقرئ، نفح، ج 1، ص (11-12) مقدمة المحقق، رحلة، ص 8 مقدمة المحقق؛ عنان، تراجم، ص (383-384)؛ نويهض، ص 310؛ مكي، ص (376-377).

(2) المحبي، ج 1، ص 303؛ انظر أيضاً: الكتاني، فهرس، ج 1، ص 575؛ المقرئ، نفح، ج 1، ص (12-13) مقدمة المحقق؛ عنان، تراجم، ص 384؛ نويهض، ص 310؛ حسن، ص (181-182).

(3) ابتيسام، ص 17.

(4) الكتاني، فهرس، ج 2، ص 575؛ حسن، ص 61.

ومن أهم وأبرز مؤلفاته في التاريخ والتراجم كتابه "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب"، وعكف المقرئ بالقاهرة على ترتيب المادة وجمع الأفكار، وانتهى من تأليفه في أواخر ذي الحجة 1039هـ/1630م ويعد من أهم المصادر التي اعتمدت عليها الدراسة، وهو موسوعة علمية كبيرة تدور حول كثير من المعلومات والمعارف والأدب والتاريخ والأخبار عن المغرب في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي مما جعله مصدراً عظيماً للمغرب والأندلس، خاصة في أيام محنتها الأخيرة وخروج المسلمين منها (1).

وبين المقرئ دوافعه من تأليف كتابه، فخلال تواجده في دمشق، دأب خلال جلساته مع تلاميذه على الحديث عن الأندلس وتاريخها ورجالها، وعن شعر الأديب لسان بن الخطيب ونثره وعن مكانته السياسية والأدبية، فتولد في نفسه شغف لمعرفة المزيد، وطلب منه شهاب الدين أحمد الشاهيني المدرس في المدرسة الجقمقية (2) تأليف كتاب يتحدث عن الكاتب الأندلسي ابن الخطيب وأحواله وملوك عصره وعلمائه، وكان في البداية قد أسماه "عرف الطيب في التعريف بالوزير لسان الدين ابن الخطيب"، وعندما رأى المادة قد شملت تاريخ الأندلس وآدابها غير اسم الكتاب وجعله "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب". واعتمد المقرئ في تأليفه موسوعته على وثائق ومصادر وكتب أصيلة لم تتح الفرصة لغيره بالاطلاع عليها بحكم قربه من الاشراف السعديين، وكان قد اطلع عليها في فاس بالفترة الممتدة من (1013-1017هـ/1603-1606م)، وزد على هذه اطلاعه على مصادر كبار المؤرخين والعلماء المسلمين، ومنهم المقتبس من أخبار بلد الأندلس لابن حيان (ت. 469هـ/1076م)، والذخيرة في محاسن أهل السنة لابن بسام (ت. 542هـ/1147م)، كما اطلع على صلة الصلة لابن بشكوال (ت. 578هـ/1183م)، والحلة السيرة لابن الأبار (ت. 658هـ/1260م)، والمسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن لابن مرزوق التلمساني (ت.

(1) المقرئ، نفح، ج 1، ص 15 مقدمة المحقق؛ عنان، تراجم، ص (378-379)؛ مكي، ص (374-376)؛ حسن، ص 178.
(2) المدرسة الجقمقية: إحدى مدارس مدينة دمشق، بناها حاكم المدينة المملوكي سيف الدين جقمق (822-824هـ/1419-1422م)، واتخذت شكلاً مربعاً، ولها صحن مسقوف، وتضم أربعة إيوانات، ومدخلها من الجهة الشمالية في مواجهة الجامع الأموي، انظر: النعيمي، ص (101-102)؛ انظر أيضاً: نتيغه، ص (342-343).

781هـ/1379م)، و وفیات الأعیان للفتح بن خاقان (ت. 861هـ/1457م)، وعلى كثير من غيرها⁽¹⁾.

وأما عن منهج المقرئ في موسوعته التاريخية فقد اتبع قاعدة الاستطراد، فينتقل من موقف إلى آخر دون اعتناء بالتنظيم والتناسق، فجل اهتمامه كان نقل المادة، فهو لم يكن مؤرخاً أو محققاً أو ناقداً بالمعنى الحقيقي، بل كان أديباً وناقلاً، ولكثرة الاستطراد فقد أصبحت الإفادة من الكتاب دون الفهارس أمراً بالغ الصعوبة. ونتيجة لكثرة المعلومات التي حصل عليها المقرئ مال إلى المبالغة في التدوين والنقل، فنقل النصوص الشعرية والأخبار مهما بلغ طولها، بل إنه كان ينقل كتباً كاملة، ولم يكتفِ بمجرد النقل والأخذ بل عمد إلى إيداء رأيه في الكتاب المنقول أو الحكم عليه، فنجده -على سبيل المثال لا الحصر- يعلق على كتاب لسان الدين بن الخطيب "رقم الحلل في نظم الدول" قائلاً: إنه في غاية الحلاوة والعذوبة والجزالة⁽²⁾.

ويقسم الكتاب إلى قسمين: خصص القسم الأول للتعريف بالأندلس وتاريخها وفتحها وأحداثها وطبيعتها الجغرافية وأرضها وسكانها، وتحدث عن قرطبة وجامعها، وحدائقها وأرباضها، كما أورد باباً كاملاً للحديث عن رحلات الأندلسيين إلى الشرق، وعن الوافدين من أهل المشرق إلى الأندلس. وخصص القسم الثاني للتعريف بابن الخطيب وموطنه ونشأته وأسرتة وصباه وشبابه وشيوخه وأساتذته، ورسائله وشعره ومخاطباته للملوك والأكابر، ومؤلفاته وتلاميذه وأولاده ومحنته ووفاته، ونقل في الجزء الثالث ترجمة طويلة عن جده أبي عبد الله نقلاً عن الإحاطة، وكما نقل تراجم عدد من شيوخه الذين أخذ عنهم في المغرب أو تونس أو الحجاز، والذين قابلهم في الشام وبيت المقدس⁽³⁾، كما أورد المقرئ حديثاً مطولاً حول المنصور بن أبي

(1) المقرئ، نفع، ج 1، ص (14-15)، ص 17 مقدمة المحقق؛ مكي، ص (374-375)؛ حسن، ص (175-178)؛ عنان، تراجم، ص 383.

(2) حسن، ص 88، (92-93)؛ عنان، تراجم، ص 380.

(3) المقرئ، نفع، ج 1، ص 15 مقدمة المحقق؛ عنان، تراجم، ص (380-381)؛ مكي، ص (377-378)؛ حسن، ص 178.

عامر مؤسس الدولة العامرية الذي كان يمثل - من وجهة نظره - البطولة العربية في الأندلس⁽¹⁾.

ولعل القارئ لكتاب نفح الطيب يلحظ وقوع المقرئ في خطأ التكرار في الموضوع الواحد بعدة مواقع، كون التأليف على غير منهج، والأفكار والحوادث والأخبار كثيرة يكتبها في موقع وينسى أنه ذكرها، فيعود لذكرها مرة أخرى، فكان على سبيل المثال يترجم لإحدى الشخصيات نقلاً عن كتاب أو كتب، ثم يعود ويترجم لذات الشخص في موضع آخر من كتاب أو كتب غير المصدر الأول، وكانت الترجمات لا تتفقان. ومن الأخطاء التي وقع بها، أنه كان خلال حديثه عن موضوع معين يتركه دون أن ينهيه ويدخل في موضوع آخر ثم يعود للموضوع الأول⁽²⁾.

وقد أفاد هذا الكتاب الدراسة في التعريف بالأوضاع الداخلية الأندلسية المضطربة التي بدأت بإعلان الثورة في العام 760هـ/1359م على السلطان الغني بالله وصولاً لإعلان الأمير أبي عبد الله الصغير (887-897هـ/1482-1492م) الثورة على والده السلطان أبي الحسن علي بن سعد (868-887هـ/1464-1482م)، والحرب الأهلية التي اندلعت في غرناطة خلال الفترة الممتدة من شوال 891هـ - محرم 892هـ/أكتوبر 1486م - يناير 1487م، كما أشار إلى سقوط المدن والحصون الأندلسية واحدة تلو الأخرى، بداية من سقوط مدينة الحامة في العام 887هـ/1482م إلى أن حصار غرناطة وسقوطها في ربيع الأول من العام 897هـ/يناير 1492م.

وصف أفريقيّا، للحسن بن محمد الوزان الفاسي (ت 957هـ/1550م)

الحسن بن محمد الوزان الفاسي الغرناطي، ويعود نسبه إلى قبيلة بني زيات الزيانية في أقصى غرب بلاد غمارة من سلسلة جبال الريف، القريبة من ساحل البحر المتوسط، وحمل بعد وقوعه في الأسر اسم ليون الأفريقي، فاشتهر به. ولد الوزان في غرناطة ما بين عامي (878-

(1) المقرئ، نفح، ص 18 مقدمة المحقق.

(2) المصدر نفسه، ص 17 مقدمة المحقق؛ حسن، ص (94-95)، (97-99).

884هـ/1489-1495م). وهاجرت أسرته في العام 901هـ-1496م من غرناطة إلى مدينة فاس، حيث شغل والده وظيفة مرموقة، ونشأ الوزان فيها نشأة علمية ودينية في وسط من العلم والأدب والنباهة، وأعتاد أن يرافق والده لقضاء بعض المهمات الوظيفية. وتلقى الوزان تعليمه بجامع القرويين، حيث درس العلوم الدينية والنظرية كالأدب والمنطق والنحو والشعر والحديث والتاريخ والجغرافية، وكانت فاس تعج بعدد كبير من العلماء الذين كان لهم باع طويلة في العلوم المختلفة (1).

وعُرف عن الوزان كثرة الترحال، فبدأ رحلاته في سن مبكرة حيث اعتاد مرافقة والده في رحلاته إلى إقليم جبال الريف والأطلس لجمع الضرائب من تلك النواحي (2)، كما أهلت ثقافته وعمله الواسع للحصول على ثقة الشريف السعدي محمد القائم بأمر الله (915-923هـ/1509-1517م) (3) والسultan محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي (910-931هـ/1504-1525م) (4)، فأسندوا إليه رئاسة عدد من البعثات الدبلوماسية إلى الأقاليم والممالك المتمردة (5).

ويمكن تقسيم رحلاته إلى قسمين: القسم الأول ويشتمل على رحلاته إلى الشمال الإفريقي والسودان الغربي التي بدأها في العام 915هـ/1509م حيث أرسل من قبل سلطان فاس محمد البرتغالي إلى مدينة أسفي (6)، لإجراء مفاوضات مع البرتغاليين فيها، كما أرسله في العام ذاته لتحصيل الجزية من اليهود المقيمين في بعض مدن المغرب، وقد تعرف في هذه المرحلة إلى الشريف السعدي، المبايع في الجنوب من قبل مملكة بني وطاس أميراً على الجهاد، وسوف

(1) الحجوي، ص5، (7-9)، 11؛ قاسم، الحسن، ص(94-96)؛ الوزان، ج1، ص6، 7 مقدمة المترجمين.

(2) الوزان، ج1، ص8 مقدمة المترجمين.

(3) أبو عبد الله، محمد بن محمد بن علي بن مخلوف زيدان، عميد الأسرة السعدية وسلطانها في المغرب، ظهرت بعد اشتداد وطأة البرتغاليين في الجنوب بويح أبو عبد الله عام 915هـ/1509م وتولى مسؤولية مقارعة البرتغاليين، انظر: الناصري، ج5، ص(6-7)، (12-13).

(4) أبو عبد الله محمد، آلت إليه الدولة الوطاسية بعد وفاة والده أبي زكريا محمد الشيخ المهدي (877-911هـ/1471-1505م)، ونشطت في عهده الطرق الصوفية، وكما شهد حكمه أوضاعاً داخلية سيئة بسبب اشتداد الأعراب، وتقاعس عن مواجهة الخطر الصليبي، انظر: الغنيمي، ج6، ص(29-32).

(5) قاسم، الحسن، ص96.

(6) أسفي: مدينة بناها الأفاارقة القدامى على شاطئ المحيط الأطلسي بين مدينتي الجديدة والصويرة، انظر: كاربخال، ج2، ص71.

يتردد الوزان على هذه المنطقة بشكل مستمر كرسول من السلطان الوطاسي محمد البرتغالي الذي كانت تربطه علاقات طيبة مع الدولة السعدية الناشئة⁽¹⁾.

كما تمكن من خلال هذه البعثات التعرف إلى الممالك الإسلامية والوثنية في المناطق الإفريقية المختلفة، وفي العام 917هـ/1511م توجه في سفارة من قبل السلطان محمد البرتغالي إلى بلاد السودان، ولم يذكر الوزان سبب الرحلة إلا أنها أغلب الظن كانت بهدف عقد تحالفات بين ملوك المغرب وملوك السودان للوقوف في وجه البرتغال⁽²⁾، وأسند إلى الوزان في العام 918هـ/1513م مهمة القيام بجولة سياسية لدى بعض القبائل القاطنة في جبال دأَس⁽³⁾ وما حولها، واستمرت جولته سبعة أشهر، زار خلالها بلاد حاحا⁽⁴⁾، والتقى الأمير السعدي محمد في زيارة دبلوماسية مكلفاً من السلطان محمد البرتغالي⁽⁵⁾.

وفي العام 919هـ/1513م خرج الوزان من مراكش مع الأمير الشريف السعدي قاصدين السوس الأقصى حيث حضر خلال الرحلة بيعة الشريف السعدي من قبل أهل تردانت وغيرها من مدن السوس⁽⁶⁾. وفي العام التالي حضر الصلح بين سلطان فاس محمد البرتغالي وابن عمه عوان علي أبي رقرق، وفي العام ذاته زار سلا⁽⁷⁾ والرباط⁽⁸⁾ وذكر ما حل بهما من من خراب⁽⁹⁾، ومنها توجه إلى مراكش في مهمة من قبل الشريف السعدي، ومن طبيعة سير

(1) الوزان، ج1، ص8 مقدمة المترجمين؛ الحَجوي، ص(12-13).

(2) الوزان، ج1، ص8 مقدمة المترجمين؛ الحَجوي، ص14؛ قاسم، الحسن، ص96.

(3) جبال دأَس: جبال شاهقة باردة تكسوها غابات عالية كثيفة يزيد طولها عن ثلاثين فرسخاً من الشرق إلى الغرب، تبدأ من جبل مفران وتنتهي في تخوم اوخسان، انظر: الوزان، ج1، ص188؛ انظر أيضاً: كربخال، ج2، ص122.

(4) بلاد حاحا: إقليم في أقصى غرب مملكة مراكش، يحتل جميع رأس الأطلس الكبير، ويعرف بوعورته وكثرة جباله وعلوها، وكثرة الغابات والشعاب والأودية الصغيرة، انظر: الوزان، ج1، ص96؛ انظر أيضاً: كربخال، ج2، ص5.

(5) الوزان، ج1، ص9 من مقدمة المترجمين.

(6) الحَجوي، ص14.

(7) سلا: مدينة تقع في بلاد المغرب الأقصى على ساحل البحر المحيط الأطلسي، بينها وبين مراكش عشر مراحل، يحدها من الشمال المحيط الأطلسي ومن الجنوب نهر أبي الرقاق، انظر: الحموي، ج3، ص231.

(8) الرباط: مدينة كبيرة تقع على شاطئ المحيط الأطلسي، عند مصب نهر أبي الرقاق وهو نهر ضحل الذي يفصلها عن مدينة سلا الواقعة على الضفة الشمالية منه، بينما تقع الرباط على ضفته الجنوبية، انظر: الوزان، ج1، ص201.

(9) الحَجوي، ص(14-15).

الأحداث يمكن إدراك نجاح الوزان في المهمات التي أوكلت إليه، حيث انضمت مراكش بعد سنوات قليلة لحكم الدولة السعدية، وشهد في العام ذاته مع السلطان محمد البرتغالي بعض جولاته العسكرية، وأما القسم الثاني من رحلات الوزان فتشمل الجناح الشرقي من العالم الإسلامي وأوروبا، حيث كانت بلاد الحجاز أولى محطاته في المشرق، فخرج إليها في أواخر العام 921هـ/1516م مع ركب الحجاج الفاسي، وبعد أدائه مناسك الحج توجه إلى الأستانة للقاء السلطان العثماني سليم الأول (918-926هـ/1512-1520م)⁽¹⁾ مرسلًا بسفارة من السلطان محمد الوطاسي البرتغالي، وما أن وصلها إلى حتى كان السلطان سليم قد غادرها متوجهاً إلى مصر، فتبعه الوزان والتقى به وحضر معه بعض المعارك ضد المماليك، وعاش دخول العثمانيين الإسكندرية في العام 923هـ/1517م، ومنها توجه إلى السودان في رحلته الثانية التي استغلها بجولة شملت أغلب مناطقها، وما أن انتهى من جولته حتى أبحر قاصداً جدة، ومنها ارتحل إلى البلاد الليبية والتونسية التي أقام فيها لمدة عامين، وتحديداً خلال الفترة 924-926هـ/1518-1520م⁽²⁾.

وانتهت رحلات الوزان في العام 926هـ/1518م بشكل محزن، حيث أبحر من تونس قاصداً المغرب، وفي طريق العودة وقع بأيدي بعض القراصنة الذين يجوبون البحر المتوسط بالقرب من جزيرة جربة، فحملوه إلى نابولي، وقدموه للبابا ليو العاشر (Leo X) (919-927هـ/1513-1521م)⁽³⁾ المهتم بعلوم العرب وحضارتهم، فوجد فيه ضالته وأعاد إليه حريته، وعاش في كنفه وتحت حمايته، وشجعه على مواصلة التأليف، وسماه بليون الإفريقي⁽⁴⁾،

(1) سليم الأول: السلطان التاسع من سلاطين الدولة العثمانية، وأول من حمل منهم لقب أمير المؤمنين، وصل إلى الحكم بعد انقلابه على أبيه بايزيد الثاني (886-918هـ/1481-1512م) بدعم من الانكشارية، وتمكن من السيطرة على بلاد الشام ومصر بعد انتصاره على المماليك في معركة مرج دابق 922هـ/1516م والريدانية 923هـ/1517م، انظر: المحامي، ص (187-190)، 192، 197.

(2) الوزان، ج 1، ص (9-10) مقدمة المترجمين؛ الحجوي، ص (14-15)، 18.

(3) البابا ليو العاشر: ولد باسم جوان يدي لورينزو دي ميريشي في العام 880هـ/1475م، وهو البابا السابع عشر للكنيسة الكاثوليكية، ينسب إليه إدخال الثقافة إلى البلاط الكنسي، وكما حاول جعل روما مركزاً للعلوم والثقافة، انظر: مجموعة مؤلفين، الباباوات، ص 245.

الإفريقي⁽¹⁾، وطلب منه تصنيف كتاب يلخص فيه نتائج رحلاته في إفريقيا، فكتب: "وصف إفريقيا"، وفرغ من تأليفه عام 923هـ/1526م، وعدّ وثيقة جغرافية أساسية لعلماء الخرائط الجغرافية، ولعب دوراً معلوماً كبيراً في حركة الاكتشافات الجغرافية الأوروبية الحديثة⁽²⁾. ومارس الوزان تدريس اللغة العربية في مدينة روما⁽³⁾، وفي العام 934هـ/1528م عاد إلى تونس، ولا نستطيع تحديد سنة وفاته، إلا أنه يمكن القول: إن أقرب تاريخ هو العام 975هـ/1550م⁽⁴⁾.

ومن أهم شيوخ الحسن الوزان: ابن غازي محمد بن أحمد العثماني (ت 920هـ/1514م) الفقيه الخطيب المحدث، والأستاذ الرياضي. أحمد بن يحيى الونشريسي (ت. 914هـ/1508) الفقيه المفتي صاحب كتاب المعيار المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب. الزقاق أحمد بن علي بن قاسم (ت. 932هـ/1526م) الفقيه العالم. أحمد بن محمد الحباك الأستاذ النحوي (ت. 938هـ/1531م). أبو الحسن علي بن هارون المطري (ت. 951هـ/1544م) الإمام الفقيه المفتي الحافظ الخطيب⁽⁵⁾.

وألف الوزان عدداً كبيراً من المؤلفات في التاريخ والجغرافيا واللغة باللغتين الإيطالية واللاتينية، وقد ارتبطت مصنفاًه ارتباطاً وثيقاً بالمسلمين وتاريخهم، إلا أن جزءاً من مصنفاًه لم يصل إلينا كاملاً، وهناك جزء لم يصل منه غير اسمه⁽⁶⁾. ومن مصنفاًه: معجم عربي - عبري لاتيني: ألفه للطبيب اليهودي يعقوب بن شمعون في مدينة بولونيا Bologne⁽⁷⁾، وكتابه في التراجم كتبه باللاتينية وترجم فيه لثلاثين شخصية من فلاسفة العرب وأطبائهم، وهو عبارة عن تعريف بتاريخ تطور الطب، وانتهى من تأليفه في روما في العام 933هـ/1527م، وكتاب

(1) الحَجّوي، ص22؛ قاسم، الحسن، ص96.

(2) الوزان، ج1، ص15 من مقدمة المترجمين؛ قاسم، الحسن، ص99.

(3) الحَجّوي، ص23؛ قاسم، الحسن، ص97.

(4) الوزان، ج1، ص14 من مقدمة المترجمين؛ الحَجّوي، ص(24-25).

(5) الحَجّوي، ص31، (35-63).

(6) الوزان، ج1، ص12 من مقدمة المترجمين.

(7) بولونيا: مدينة في شمال إيطاليا تمتاز بخصوبة أراضيها واعتدال مناخها، وفيها تأسست إحدى أقدم الجامعات في العالم

عام 493هـ/1100م، انظر: بيريغ، ص149.

في الجغرافية أسماء "الجغرافيا العامة" وهو كتاب كبير ألفه باللغة الإيطالية ثم ترجمه إلى العربية، لم يصل منه سوى الجزء الثالث الذي اعتمد عليه في كتابه وصف إفريقيا⁽¹⁾.

ومن كتبه المفقودة: مختصر تاريخ الإسلام، الذي جاء على تفاصيل كثير من الوقائع التاريخية، وكتاب أشعار الأضرحة، حيث قام بجمع أشعار الوعظ والزهد عن الأضرحة والقبور في مختلف أقطار المغرب، ألفه في العام 910هـ/1504م، وألف في الفقه الإسلامي وأصوله كتاباً في الفقه المالكي⁽²⁾.

وأعتمد الوزن في تأليف كتاب وصف إفريقيا على مصادر متنوعة وموثوقة، ومنها كتب المسعودي (ت. 346هـ/957م)، وأبو النعيم الأصفهاني (ت. 430هـ/1038م)، والشريف الإدريسي (ت. 560هـ/1166م)، وابن الجوزي (ت. 597هـ/1201م)، وابن خلكان (ت. 681هـ/1282م)، وابن فضل الله العمري (ت. 749هـ/1349م)، وابن خلدون (ت. 808هـ/1406م)⁽³⁾. وأما عن منهج الوزن في كتابه؛ فقد عرضه في تسعة فصول، تناول الأول جغرافية إفريقيا العامة ومناخها وخصائصها وشعوبها وأخلاقهم، وقد قسمها إلى أربعة أجزاء بشكل عمودي، وقسم كل جزء من هذه الأجزاء الأربعة إلى عدة أقسام: بلاد البربر شمال سلسلة جبال الأطلس الممتدة من تخوم مصر شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً. وبلاد الجريد جنوبي جبال الأطلس التي كان الرومان يطلقون عليها اسم نوميديا. والصحراء الكبرى المترامية بعد بلاد الجريد. وبلاد السودان الواقعة وراء الصحراء⁽⁴⁾.

وأما الأقسام السبعة التي أتى فيها لتفصيل الأقسام الأربعة الأصلية لإفريقيا وأقاليمها، فقد فصل أقاليمها انطلاقاً من الغرب إلى الشرق: ممالك مراكش وفاس وتلمسان وبجاية وتونس وبلاد الجريد والصحراء وبلاد السودان ومصر. وفي القسم التاسع أتى على ذكر المعالم الجغرافية العامة من أنهار وسهول وجبال ووديان وحيوانات ونباتات، وتحدث عن هذا القسم

(1) الحَجَوِي، ص32، 34؛ قاسم، الحسن، ص99.

(2) الوزن، ج1، ص15 مقدمة المترجمين؛ قاسم، الحسن، ص99؛ الحَجَوِي، ص(32-34).

(3) الحَجَوِي، ص(44-45).

(4) الوزن، ج1، ص17 مقدمة المترجمين.

المختص بالمغرب الأقصى بشكل أكبر. وجعل ما بين هذين القسمين دراسة لكل ناحية من المدن والبوادي، وجرى تقسيم المسافات بين المدن، كما أتى على ذكر الجبال، وجرى في تقسيمها على نهج الجغرافيين العرب في بيان ارتفاعها ومواقع الثلوج والمسالك، وأتى على ذكر جبال الريف والأطلس، وتطرق إلى نوعية التراب، فذكر أن أرض الريف صالحة للزراعة، وأن بعض حجارة المدن صالحة للبناء كحجارة الأطلس وحجارة الجبس قرب فاس، واهتم بأحوال الطقس والحرارة والمطر والرياح والمياه، وأنواع المزروعات والمواشي والبقر، والصيد، والمعادن. وتطرق الوزان إلى أخلاق البربر وعاداتهم وطبيعة الحياة في بلادهم، وأتى على ذكر كل ناحية من حيث نوع سكانها ومأكلهم وملبسهم، فمثلاً برابرة الأطلس يأكلون خبز الشعير والزيت في الشتاء، واللبن والسمن في الصيف وكما تحدث عن كل أمة من حيث نوع تمدنها وحضارتها وقوانينها ومعتقداتها ومعارفها، وأهتم بدخول العرب إلى بلادهم، والحالة السياسية، والطرق⁽¹⁾.

ومن المأخذ على الوزان عدم ذكره لكافة الثغور المغربية المحتلة في الشمال الإفريقي، فاكتفى بذكر بجاية وهران⁽²⁾ والمرسى الكبير⁽³⁾، كما لم يول اهتماماً كبيراً لحركة الجهاد البحري الإسلامي في البحر المتوسط، كما وقع في بعض الأخطاء بسبب اعتماده على ذاكرته في بعض الأحيان، ومن الأخطاء التي وقع فيها اتجاه نهر أم الربيع الذي ظنه يجري نحو الجنوب، وكما أخطأ في تقدير بعض المسافات والتواريخ⁽⁴⁾. وعلى الرغم من ذلك؛ أفاد هذا الكتاب الدراسة في الحصول على المعلومات المتعلقة بالهجمات البرتغالية والإسبانية على الثغور الإسلامية في الشمال الإفريقي كالهجمات البرتغالية على سبته في العام 818هـ/1415م وعلى

(1) الحجوي، ص(51-57).

(2) وهران: مدينة ساحلية متوسطة تقع شمال بلاد المغرب الأوسط، ومنها إلى تنس ثماني مراحل، انظر: الحموي، ج5، ص385.

(3) المرسى الكبير: مدينة صغيرة أسسها ملوك تلمسان على ساحل البحر المتوسط بالقرب من وهران، حيث كان من السهل على السفن الكبيرة والحربية والمراكب أن ترسو فيه، وهو آمن من العواصف، انظر: الوزان، ج2، ص31.

(4) الوزان، ج1، ص16، 18 مقدمة المترجمين.

طنجة⁽¹⁾ في العام 840هـ/1437م ، والحملة الإسبانية على تطوان⁽²⁾ في العام 803هـ/1400م، إضافة إلى تعريفات لكثير من المواقع الجغرافية الواردة في الدراسة.

نبذة العصر في أخبار ملوك بني النصر تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب، لمؤلف مجهول ويعدُّ هذا المصدر من أهم الوثائق التاريخية ، التي تتحدث عن أخبار المسلمين في الأندلس وسقوط المدن والقرى والحصون الإسلامية، وحصار غرناطة واستسلامها، وهي وثيقة من تأليف شخص مجهول، ولكن على ما يبدو من سير الأحداث أنه جندي غرناطي شاهد على الأحداث ومشارك في المعارك، ويظهر من خلال الكتاب أن المؤلف قد سجل كل ما شاهد، ويبدو أيضاً أنه من أشرف غرناطة الذين بقوا فيها بعد السقوط، وبقي على إسلامه، ولذا آثر عدم ذكر اسمه خشية من الاسبان، وما قد يلحقه من أذى وتتكيل. والكتاب أشبه بمذكرات ومدونات شخصية، ويقع الكتاب في مائة وثمانين صفحة فقط، وقد وضعه المؤلف بعد سقوط غرناطة⁽³⁾، وقد أفاد هذا الكتاب الفصل الرابع والأخير من الدراسة بشكل كبير؛ وذلك في التعرف على الأوضاع الداخلية المضطربة في مملكة غرناطة، بما في ذلك التناحر الداخلي وسقوط المدن الأندلسية، وحصار غرناطة حتى تسليمها في ربيع الأول 897هـ/ كانون الثاني 1492م.

(1) طنجة: مدينة تقع على ساحل المتوسط شمال بلاد المغرب الأقصى، على مضيق جبل طارق، إلى الغرب من سبتة، مقابل الجزيرة الخضراء، انظر: الحموي، ج4، ص43.

(2) تطوان: مدينة تقع شمال بلاد المغرب الأقصى، بينها وبين البحر خمسة أميال، ومنها إلى مدينة سبتة مرحلة صغيرة، انظر: الإدريسي، ج1، ص531.

(3) عنان، دولة، ج4، ص196.

الفصل الأول

الحروب الصليبية في بلاد المغرب والأندلس في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي

- الحروب الصليبية، مفهومها ودوافعها
- توجه القوى الصليبية نحو بلاد المغرب الإسلامي، أسبابه ودوافعه
- الحملة الجنوبية على طرابلس عام 755هـ/1354م
- الحملة الجنوبية المسيحية المشتركة على جزيرة جربة عام 790هـ/1388م
- أحوال الممالك الإسبانية والأندلس، والعلاقات بينهما في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي

الفصل الأول

الحروب الصليبية في بلاد المغرب والأندلس في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي

الحروب الصليبية، مفهومها ودوافعها

الحروب الصليبية، هي الفعاليات العسكرية التي شنّها الغرب الأوروبي المسيحي ضد فلسطين وسائر بلاد الشرق الأدنى الإسلامي برعاية البابوية؛ رأس المؤسسة الدينية في أوروبا، لتحقيق أهداف سياسية واقتصادية، واتخذت من الدين ستاراً ورافعة من أجل تحقيق أهدافها. فكان لهذه الحروب دوراً مركزياً في دائرة الصراع الطويل بين الغرب والشرق. وعُدَّ الخطاب الذي وجّهه البابا أوربان الثاني (Urbanus II) (481-492هـ/1088-1099م)⁽¹⁾ عام 488هـ/1095م في مدينة كليرمونت بفرنسا بمثابة الشرارة التي أشعلت فتيل هذه الحروب⁽²⁾، واستمرت حتى هزيمة الصليبيين على يد المماليك، وتحرير مدينة عكا من أيديهم عام 690هـ/1291م⁽³⁾.

وكانت فكرة الحروب الصليبية قد بدأت بالتبلور بالتزامن مع الحج المسيحي إلى بيت المقدس؛ اقتفاءً لآثار المسيح وحوارييه، وسعيًا وراء الغفران الصليبي، ثم تطورت إلى شكلها العسكري المعروف. وارتبطت منذ نشأتها بفكرة (الحرب العادلة) التي كُرِّست لمحاربة غير المسيحيين، وفي أحيان أخرى لمحاربة كل من لا يدين بالمذهب الكاثوليكي، وحددت القوى الدينية الصليبية الشروط الواجب توفرها في الحرب العادلة: بالسبب العادل، والسلطة الشرعية، وسلامة القصد⁽⁴⁾.

(1) أوربان الثاني: تولى الكرسي البابوي عام 481هـ/1088م، وحرص خلال سنوات حبريته على إعادة الهيئة للبابوية، ومنحها كافة الوسائل التي تكفل لها ممارسة سلطتها الفعلية، انظر: حاطوم، ج1، ص(734-736).

(2) اليوسف، ص143.

(3) ابن تغري بردي، ج8، ص(5-7).

(4) قاسم، ماهية، ص(17-18)، 21، 30، 37.

ولكي تعبر هذه الحروب عن التوجه الصليبي؛ ظهرت في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي الكلمة اللاتينية (Crusesignati)، ومعناها الموسوم بالصليب، لأن المحاربين كانوا يضعون صلباناً قماشية على ستراتهم⁽¹⁾، وسميت تلك الحروب بمجملها حينذاك بالحرب المقدسة. واستمر البابوات بمباركتها ودعمها، خاصة أنهم هم أول من صاغوا أفكارها، مما أعطها السمة الصليبية⁽²⁾. ولم تظهر الكلمة الانجليزية (Crusade) في كتابات المؤرخين إلا في القرن الثامن عشر، وأما المصادر العربية؛ فاستخدمت مصطلح حركة الفرنج والفرنجة للإشارة للصليبيين⁽³⁾.

ويرجع البعض أسباب الحروب الصليبية ودوافعها إلى عوامل تاريخية تعود جذورها إلى حقبة انهيار الإمبراطورية الرومانية منذ عام 476م، ويرى فريق آخر أنها انطلقت بعد ظهور الحركات الإصلاحية الدينية الأوروبية التي بدأت في القرن الرابع الهجري/القرن العاشر الميلادي، وبشكل خاص حركة الإصلاح الكلونية⁽⁴⁾، التي ترتب عليها عودة البابوية إلى مركزها القديم في زعامة العالم المسيحي، والإشراف على الكنائس الغربية كافة، ما ولّد طاقات دينية جديدة، فأخذت أوروبا وعلى رأسها البابوية تبحث عن متنفس خارجي لاستيعاب هذه الطاقات، واستثمارها بما يخدم مصالحها على جميع الصعد⁽⁵⁾.

ولعبت الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي عاشتها أوروبا في ظل النظام الإقطاعي دوراً مهماً في ظهور النزعة الصليبية وتبلورها؛ فقد تألف المجتمع الأوروبي من ثلاث طبقات: أهمها طبقة الفرسان، الذين انطلقوا لقيادة الحركة الصليبية مدفوعين بمحفزات دينية "مستقاة من قيم التقوى والورع"، وبسبب الضغط البابوي الذي مورس عليهم تحت طائلة التهديد بالحرمان والطرده من الكنيسة، إلا أن الدوافع والأطماع السياسية والاقتصادية كانت بمثابة المحرك الرئيس

(1) قاسم، ماهية، ص9.

(2) عمران، ص(14-17).

(3) قاسم، ماهية، ص(10-12).

(4) حركة الإصلاح الكلونية: إحدى حركات الإصلاح الديني التي شهدتها أوروبا، وقامت هذه الحركة انطلاقاً من دير كلوني في فرنسا في العام 297هـ/910م، ودعت إلى إصلاح الكنيسة وتنقيتها من مظاهر الانحلال، والفصل بينها وبين الدولة، ووضع نظام ثابت لانتخاب البابا من قبل مجلس الكرادلة، أنظر: سيد، ص51.

(5) عاشور، الحركة، ج1، ص(22-23).

لهؤلاء لخوض غمار الحروب الصليبية، كما وجدوا فيها أيضاً فرصة جيدة للوصول إلى المجد والجاه. وأما طبقة الفلاحين فكانت تشكل الغالبية الكبرى من مجموع السكان، وكان الفلاحون يعيشون حياة منحطة، في أكواخ خشبية، محرومين من أبسط الحريات، مجبرين على خدمة الطبقة الحاكمة، وفلاحة الأراضي الزراعية، وإنشاء الطرق، وحفر الخنادق، وإصلاح الجسور، ودفع ضريبة الرأس سنوياً. وبدورها؛ وجدت هذه الطبقة ضالتها في الحروب الصليبية بهدف التخلص من العبودية، ومن الضرائب والديون التي تراكت عليها، وسعيًا وراء وعود الكنيسة بالغفران وتكفير الذنوب⁽¹⁾. ومما أسهم في توجيه الحروب الصليبية ضد المسلمين خلال نهايات العصور الوسطى؛ الأوضاع الاقتصادية الأوروبية المتدهورة، بسبب المجاعات المتكررة، وشح الغلال، وارتفاع أسعارها، في ظل الزيادة المضطربة في أعداد السكان⁽²⁾.

ومن ناحية أخرى؛ لطالما سعت المدن التجارية إلى إشعال فتيل الحروب ضد المسلمين خدمة لمصالحها التجارية، وفي مقدمتها مدن جنوب غرب أوروبا، والمدن الإيطالية كالبنديقية⁽³⁾، وجنوة⁽⁴⁾، وبيزا⁽⁵⁾ التي كانت تنشط تجارياً على طول سواحل البحر المتوسط، فتحوّلت إلى جمهوريات مستقلة⁽⁶⁾، ووجدت في هذه الحروب فرصة لتحقيق مكاسب مادية من خلال المشاركة الحربية المباشرة، أو من خلال القيام بمهام النقل البحري، خاصة وأن هذه القوى كانت تضع على رأس سلم أولوياتها السيطرة على سواحل البحر المتوسط للاستحواذ على مقدراته وتجارته، ولهذا أخذت على عاتقها في كثير من الأحيان الاستزادة من الأساطيل

(1) الزيدي، ص 24، (37-38)؛ عاشور، الحركة، ج 1، ص 32، (35-38)؛ قاسم، ماهية، ص 52، 66؛ أبو دية، ص 33.

(2) عاشور، الحركة، ج 1، ص 32.

(3) البنديقية: مدينة متوسطة تقع في شمال شرق إيطاليا، تطل على البحر الأدرياتيكي، تميزت عن غيرها من الإمارات الإيطالية باستقرار نظام الحكم فيها القائم على مؤسسات تشريعية على الرغم من سيطرة الطبقة التجارية عليها، انظر: بيريغ، ص 55.

(4) جنوة: مدينة متوسطة تقع في أقصى شمال غرب إيطاليا. عقدت في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي تحالفات مع بيزا ضد المسلمين، ونافست البنديقية، وتمكنت من تحقيق عدد من الانتصارات، إلا أنها شهدت انتكاسات في القرن الخامس عشر، انظر: الحميري، الروض، ص 173.

(5) بيزه: مدينة إيطالية تقع على ضفتي نهر أرن، شمال شرق البلاد الإيطالية، وكانت المنفذ الرئيس لسهل مقاطعة توسكانا، وتشتهر ببرجها المائل، انظر: بيريغ، ص 178.

(6) الزيدي، ص 39.

والمبادرة في الهجوم على سواحل المسلمين، ونشطت في ذلك منذ منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي⁽¹⁾.

ونظراً للدور الكبير الذي اضطلعت به الكنيسة في العصور الوسطى، فقد شكلت رأس الهرم في إطلاق شرارة الحروب الصليبية وتوجيه دفتها ومباركتها وتشجيعها دفاعاً عن العالم المسيحي وخدمة لمصالحها⁽²⁾، بهدف السيطرة على العالم الإسلامي، وتوسيع رقعة نفوذها السياسي والديني، وحتى يكرس البابوات أنفسهم زعماء دينيين لكافة المسيحيين في الشرق والغرب⁽³⁾. واستغلت الكنيسة الأوضاع في أوروبا وما كانت تعيشه من أجواء فكرية مشبعة بالخرافات من أجل تحقيق ذلك⁽⁴⁾. ولجأت إلى تقديم الإغراءات المادية للمتطوعين ومنح الامتيازات لهم، كإعفائهم من الضرائب وإسقاط العقوبات عن المحكومين منهم⁽⁵⁾. كما لجأت إلى التحالف مع الفرسان ضد النظم الملكية الفردية، بهدف تحقيق الأهداف المتوخاة من هذه الحروب⁽⁶⁾. وأخيراً يمكن القول: إنَّ الهجمات الإسلامية ضد الممالك المسيحية في الغرب الأوروبي قد لعبت هي الأخرى دوراً في إثارة النزعات الانتقامية الأوروبية، مما دفعها لتوجيه حملاتها نحو البلاد الإسلامية⁽⁷⁾.

توجه القوى الصليبية نحو بلاد المغرب الإسلامي، أسبابه ودوافعه

لقد ذهب البعض إلى القول: إنَّ تطلُّع القوى الأوروبية للسيطرة على الجناح الغربي من العالم الإسلامي قد سبق الحروب الصليبية في بلاد المشرق⁽⁸⁾، واستمر ذلك خلال الحروب المذكورة، حيث توجهت العديد من القوى الصليبية إلى بلاد المغرب لمهاجمة مدنه الساحلية

(1) عاشور، الحركة، ج1، ص(33-34)؛ عمران، ص20؛ قاسم، ماهية، ص64.

(2) الزيدي، ص17.

(3) عاشور، الحركة، ج1، ص(28-30).

(4) الزيدي، ص30.

(5) أبو دية، ص(53-54).

(6) قاسم، ماهية، ص48.

(7) علي، ص35. للمزيد من التفاصيل حول أسباب الحروب الصليبية ودوافعها؛ انظر أيضاً: عمران، ص(17-23).

(8) حسين؛ مصطفى، ص(16-17).

والسيطرة عليها. وانسجاماً مع هذا التوجه فقد تطلع النورمان، على سبيل المثال، للاستيلاء عليها، فتم لهم ذلك في عهد الملك روجار الثاني (Roger II) (524-549هـ/1130-1154م)⁽¹⁾، الذي استولى على المناطق الواقعة من مدينة طرابلس شرقاً إلى تونس غرباً في سنة 543هـ/1148م، إلى أن قام عبد المؤمن بن علي الكومي (542-558هـ/1147-1163م)⁽²⁾ بطردهم من المهديّة⁽³⁾؛ آخر معاقلمهم عام 555هـ/1160م. وعندما دبّ الوهن في جسم الدولة الموحدية⁽⁴⁾ منذ مطلع القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي عادت القوى الصليبية لتمارس دورها من جديد، حتى إذا ما انهارت تلك الدولة وجه إليها لويس التاسع الفرنسي (Luis IX) (623-668هـ/1226م-1270م)⁽⁵⁾ سنة 668هـ/1270م حملته الصليبية الثامنة. وعلى الرغم من أنها لم تحقق أهدافها؛ فإن ذلك لم يصرف أنظار الصليبيين عن بلاد المغرب. وعلى الرغم من الفشل الذي مُني به المشروع الصليبي برمته، والنهاية المأساوية التي آل إليها في نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي؛ فإن النزعة الصليبية ما فتئت تعشعش في أذهان الساسة وعقول رجال الدين في أوروبا خلال القرون

⁽¹⁾ روجر الثاني النورماني: من أعظم ملوك أوروبا، تمكن من بناء أسطول قوي، كان بلاطه مركزاً للفنون والأدب والعلوم، ومن الناحية السياسية: عمل على ضم نابولي إلى مملكته، فقاتلته البابوية، إلا أنه تمكن من الانتصار واجبارها على الاعتراف بسلطته، كما تمكن من السيطرة على عدد من المدن على الساحل الإفريقي، انظر: مجموعة مؤلفين، الموسوعة العربية الميسرة مج4، ص1858.

⁽²⁾ عبد المؤمن بن علي: الخليفة المؤسس لدولة الموحدين، ولد عام 487هـ/1049 في مدينة هنين، ويعد أول من تمكن من توحيد جميع أقطار بلاد المغرب تحت سلطته، بعد دخوله مراكش عاصمة المرابطين عام 541هـ/1147م، انظر: المراكشي، ص(192-196م).

⁽³⁾ المهديّة: تقع على الساحل الشرقي التونسي، يحيط بها البحر من جهاتها الثلاث، وتبعد عن القيروان ستون ميلاً، وعدت من أهم المدن الإسلامية. أسسها عبيد الله المهدي الشيعي(909-934هـ/1503-1528م) أول خلفاء الفاطمية، انظر: التجاني، ص320؛ الحميري، الروض، ص561.

⁽⁴⁾ الدولة الموحدية: نشأت في بلاد المغرب على أنقاض دولة المرابطين عام 541هـ/1147م، ويعد المهدي محمد بن تومرت(515-524هـ/1121-1130م) الزعيم الروحي والمؤسس لها. حكمت معظم بلاد المغرب حتى العام 668هـ/1269م، انظر: النويري، ج24، ص152.

⁽⁵⁾ لويس التاسع الفرنسي: تولى العرش بعد وفاة والده لويس الثامن (Louis VIII) (620-654هـ/1223-1256)، وعرف بالتقوى والصلاح، فأطلق عليه "لويس القديس"، تولى قيادة الحملة الصليبية السابعة عام 647هـ/1249م التي توجهت إلى مصر، فوقع في الأسر عاماً كاملاً، حتى تمكن من افتداء نفسه بمبلغ مالي كبير، وأقام في بلاد الشام أربع سنوات، وعاد إلى بلاده في العام 1254م، فأخذ في تنظيم أجهزة الدولة وتوطيد دعائم السلطة الملكية، انظر: عاشور، أوروبا، ج1، ص(260-261).

اللاحقة، ونشط دعاة الحركة الصليبية في إثارة حماسة مسيحيي الغرب الأوروبي لاستئناف الحروب الصليبية في الجناح الغربي من العالم الإسلامي، فظهر العديد من المشاريع الداعية لهذا الغرض⁽¹⁾. ومن هنا يمكن القول: إنَّ النصف الثاني من القرن الرابع عشر قد شهد العديد من التغيرات على صعيد ميادين الحروب الصليبية، التي شملت مناطق أخرى كمصر وشمال إفريقيا بدعم من البابوات والملوك الأوروبيين⁽²⁾، ومن ذلك حملة الجنويين على طرابلس سنة 755هـ/1354م وحملة لويس البوربوني على المهديّة سنة 792هـ/1390م، وظلّ شمال إفريقيا مسرحاً للهجمات الصليبية خلال المراحل اللاحقة⁽³⁾.

ولعبت أهمية موقع بلاد المغرب، وامتلاكه لسواحل طويلة على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي وما تمتعت به تلك البلاد من ثروات اقتصادية، دوراً كبيراً في توجيه دفعة الصراع الصليبي إلى أراضيها، والمقصود ببلاد المغرب: الأراضي الممتدة من إقليم برقة⁽⁴⁾ شرقاً، حتى سواحل المحيط الأطلسي غرباً، ومن البحر المتوسط شمالاً، حتى الصحراء الكبرى جنوباً⁽⁵⁾. وقُسمت هذه البلاد طبيعياً إلى ثلاثة أقاليم: الإقليم الساحلي الممتد على طول ساحل البحر المتوسط، من إقليم برقة حتى آخر مدينة مغربية على الأطلسي، وتميزت سهوله الساحلية بضيقها بصفة عامة واشتمالها على الكثير من الرؤوس والخلجان والنتوءات الصخرية⁽⁶⁾. أما الثاني: فهو الإقليم الجبلي المتمثل بإقليم التل، أي الأطلس الصغير والكبير، الممتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي بمحاذاة الساحل، حتى ينتهي في البلاد التونسية، وتسير إلى جانبه بعض الأنهار التي تخترق السهل الساحلي وتصب في البحر، أما الإقليم الثالث: فهو الصحراء الكبرى الممتدة من جنوب المغرب الأقصى حتى جنوب مصر⁽⁷⁾.

(1) حسين؛ مصطفى، ص18، (363-380).

(2) عطية، ص(92-93).

(3) حسين؛ مصطفى، ص18.

(4) برقة: إقليم صحراوي بين الاسكندرية والمغرب الأدنى، وهو أول مكان ينزل فيه القادم من مصر إلى القيروان، افتتحه عمرو بن العاص(ت. 43هـ/664م) عام 21هـ/642م، انظر: الحميري، الروض، ص91.

(5) المقدسي، ص216.

(6) حسين؛ مصطفى، ص52.

(7) العقاد، ص9.

وقد جرت العادة على تقسيم بلاد المغرب إلى ثلاثة أقسام إدارية بناءً على قربها أو بعدها عن مركز الخلافة الإسلامية، وهي: المغرب الأدنى، أو أفريقية الممتد من إقليم برقة حتى تخوم بجاية، وعُرف بسهوله الخصبة الخضراء، وسهولة طرقه وقربه من أوروبا الجنوبية، وبخاصة إيطاليا التي لا يفصلها عن البلاد التونسية سوى مضيق لا يتعدى طوله 130 كلم، مما جعل من بلاد المغرب الأدنى (أفريقية) هدفاً للعديد من الحملات الصليبية⁽¹⁾. أما القسم الثاني: فهو المغرب الأوسط، الممتد من مدينة بجاية شرقاً حتى نهر ملوية⁽²⁾ غرباً، وعرف بموقعه الاستراتيجي، وأهميته التجارية التي استمدها من كثرة موانئه ورواج بضائعه القادمة من الدواخل كالتمر، والعبيد والذهب⁽³⁾. وشكلت هذه الموانئ وبخاصة وهران والمرسى الكبير مقصداً للتجار الأوروبيين؛ وبخاصة تجار جنوة والبندقية⁽⁴⁾. أما القسم الثالث والأخير من بأقسام بلاد المغرب: فهو المغرب الأقصى، الممتد من نهر ملوية حتى سواحل المحيط الأطلسي⁽⁵⁾.

وتميزت بلاد المغرب بشكل عام بكثرة ثرواتها الزراعية وتنوعها، وبكثافة غطائها النباتي بسبب خصوبة أراضيها الساحلية والداخلية واستقرارها المناخي، ولذلك كثرت فيه الثروة الحيوانية مما أدى إلى ازدهار الصناعات الجلدية والصوفية، وعلاوة على ما ذكر عرفت بلاد المغرب بغناها بالثروات الطبيعية والمواد الأولية الضرورية للصناعة كالمعادن على اختلاف أنواعها، فضلاً عن انتشار المرجان على سواحلها⁽⁶⁾. ونتيجة للمميزات التي تمتعت بها بلاد المغرب فقد أصبحت مدنها وموانئها مركزاً مهماً من مراكز النشاط الاقتصادي والحركة التجارية العالمية، وكان جنوب غرب أوروبا يعتمد عليها في الحصول على حاجته من الغلال، وزيت الزيتون، والذهب، وريش النعام، وخشب الأبانوس، والصندل، والرقيق. أضف إلى ذلك؛

(1) حسين؛ مصطفى، ص54.

(2) نهر ملوية: نهر كبير ينبع من جبال الأطلس، ويقطع العديد من السهول ويصب في البحر الأبيض المتوسط ما بين المغربيين الأوسط والأقصى، انظر: الوزان، ج2، ص250.

(3) الوزان، ج2، ص(33-58).

(4) المصدر نفسه، ج2، ص9.

(5) ابو الفداء، ص(11-12).

(6) ابن حوقل، ص(76-77).

فقد تمتعت بلاد المغرب بمكانة استراتيجية مهمة؛ لأن من يحكمها ويسطر عليها يمكنه السيطرة على جزر المتوسط، وعلى سواحل جنوب أوروبا⁽¹⁾، مما جعل الأوروبيين يوجهون أنظارهم إليها، خاصة وأنها قريبة من بلادهم، وبسبب معرفتهم الواسعة بأوضاع تلك البلاد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً لسهولة الاتصال بين الطرفين، ثم الحقد الشديد الذي كانوا يضمرونه لأهالي شمال إفريقيا بسبب ممارستهم للجهاد في جنوب أوروبا أكثر من غيرهم، فضلاً عن أهمية بلاد المغرب عموماً والمغرب الأدنى على وجه الخصوص للكنيسة والعالم المسيحي⁽²⁾.

ومن المعلوم أن تلك البلاد قد تمتعت بالوحدة السياسية والجغرافية في ظل دولة الموحدين، التي ضمت بلاد الأندلس إلى أملاكها، إلا أن هذه الوحدة ما لبثت أن تبددت بعد هزيمتهم في موقعة العقاب⁽³⁾ في الأندلس عام 609هـ/1212م، مما أدى إلى ضعف الدولة وقيام أربع دول على أراضيها وهي: الحفصية (626-982هـ/1229-1574م) والزيانية (632-963هـ/1235-1556م) والمرينية (642-869هـ/1244-1465م) في بلاد المغرب، ومملكة غرناطة (635-897هـ/1238-1492م) في بلاد الأندلس، ولعبت الظروف الداخلية المضطربة في تلك الدويلات دوراً كبيراً في تشجيع القوى الأوروبية المختلفة على مهاجمة أراضيها، ومحاولة السيطرة على مدنها الساحلية. وما يهمنا في هذا المقام المغرب الأدنى، خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، حيث الأسرة الحفصية الحاكمة، والتي شهدت صراعات داخلية وأطماعاً خارجية، سواء من جانب جيرانها أو من جانب بعض القوى الأوروبية التي استغلت ضعفها، مما جعل سواحلها تتال النصيب الأكبر من الهجمات الصليبية الأوروبية.

(1) حسين؛ مصطفى، ص(70-72).

(2) عن ذلك، انظر: حسين؛ مصطفى، ص(57-68).

(3) معركة العقاب: وقعت في العام 609هـ/1212م في بلاد الأندلس بين قوات الملك القشتالي الفونسو الثامن(553-611هـ/1158-1214م) وقوات الخليفة الموحد محمد الناصر(595-610هـ/1199-1213م)، وانتهت بهزيمة الأخير، انظر: المراكشي، ص322.

وكانت ذروة الاضطرابات قد تفجرت في بلاد المغرب الأدنى عقب وفاة السلطان أبي بكر الحفصي (718-747هـ/1318-1346م) ⁽¹⁾ عام 747هـ/1346م، بعد أن تمكن في حياته من توحيد البلاد وقمع الثورات ووضع حدٍ لشغب الأعراب ⁽²⁾، إلا أن وفاته ما لبثت أن فتحت الباب على مصراعيه أمام النزاعات بين مختلف قوى البيت الحفصي، وذلك بعد أن قام ابنه الأمير أبو حفص عمر (ت. 748هـ/1247م) بانتزاع السلطنة من أخيه أبي العباس أحمد (ت. 747هـ/1346م)، ولي العهد الشرعي، بتحريض من الحاجب ابن تافراجين (ت. 776هـ/1364م) ⁽³⁾ الذي كان يتمتع بنفوذ واسع داخل الدولة ⁽⁴⁾. وبعد صراع مرير مع أخيه تمكن أبو العباس أحمد من انتزاع السلطة ودخول العاصمة تونس في السنة نفسها، ففر أبو العباس إلى مدينة بجاية، وأما ابن تافراجين فلجأ إلى بلاد المغرب الأقصى. ومن ناحية أخرى فقد عاد الأعراب إلى مسرح الأحداث، وظلت الدولة تعيش حالة من الصراع بين الأخوين الأميرين، ثم ما لبث الأمير أبو حفص عمر أن استطاع اقتحام تونس والسيطرة على الحكم من جديد، والتخلص من منافسيه قتلاً وحبساً وتشريداً، وعلى رأسهم أبو العباس أحمد ⁽⁵⁾. وإزاء هذا الوضع المتردي بدأ السلطان أبو الحسن علي المريني (731-752هـ/1330-1351م) ⁽⁶⁾ يعد العدة من أجل السيطرة على بلاد المغرب كلها لجعلها تحت سلطته؛ ففي مطلع العام 748هـ/1431م سار على رأس جيشه قاصداً مدينة تونس، وعندما وصل إلى مشارفها انضم

⁽¹⁾ أبو بكر الحفصي: المتوكل على الله، أبو يحيى أبو بكر بن أبي زكريا ابن أبي اسحاق، ولد بمدينة قسنطينة عام 692هـ/1293م، وتميز بكونه شجاعاً مهاباً محبوباً لدى العامة والخاصة، استمرت ولايته ثمان وعشرين سنة تعرضت خلالها لعدد من الصعوبات، إلا أنه تمكن فيما بعد من السيطرة على زمام الحكم، أنظر: ابن الشماخ، ص (87-89).

⁽²⁾ ابن أبي دينار، ص (136-137)؛ انظر أيضاً: المطوي، ص 371.

⁽³⁾ أبو محمد بن تافراجين: عبد الله بن أحمد عبد العزيز بن تافراجين، الحاجب، ينتمي إلى أحد بيوت الموحدين في تينمل، تولى الحجابة لأبي بكر الحفصي (718-747هـ/1318-1346م) ثم لابنه أبي حفص عمر (ت. 748هـ/1347م) الذي نقض وثيقة ولاية العهد، وولي السلطنة ليستمر ابن تافراجين في منصبه محافظاً على صلاحياته التي تخطت حدود الحاجب، انظر: ابن خلدون، ج 6، ص 511؛ ابن حجر، الدرر، ج 2، ص (243-244).

⁽⁴⁾ ابن خلدون، ج 6، ص 517؛ الناصري، ج 3، ص 154؛ انظر أيضاً: المطوي، ص 371؛ برنشفيك، ج 1، ص 196؛ التازي، التاريخ، ج 7، ص 28.

⁽⁵⁾ الزركشي، ص 81؛ ابن خلدون، ج 6، ص 519.

⁽⁶⁾ علي بن عثمان بن يعقوب المريني: أبو الحسن، ولد في فاس عام 696هـ/1297م، بلغت الدولة في عهده أعظم اتساع لها، حيث تمكن من تحقيق الوحدة المغربية وإعادة البلاد كما كانت في أيام الموحدين، انظر: ابن خلدون، ج 7، ص 374؛ الناصري، ج 3، ص 124.

إليه بعض الأمراء الحفصيين وناصروه، مما مكنه من دخول المدينة بعد فرار سلطانها عنها في العام التالي⁽¹⁾. وما لبثت السلطة المرينية الوليدة في بلاد المغرب الأدنى أن تعرضت لشغب الأعراب وغاراتهم على أملاك الدولة، وتمكنوا من إلحاق هزيمة كبيرة بالجيش المريني بالقرب من القيروان⁽²⁾، في موضع يُعرف بالثنية، وذلك بفضل التحالف الذي جرى بين الجند الزياني وبين قبائل الكعوب وحكيم والمهلل، ولاحق الأعراب السلطان المريني حتى القيروان وحاصروه فيها، وحينها استغل ابن تافراجين هذا الوضع، بعد أن تمكن من الهرب من محبسه، وانضم إلى الأعراب وسار بهم للسيطرة على تونس، ولكنه فشل في ذلك بسبب استبسال بني مرين في الدفاع عن القصبية، مما مكن أبا الحسن المريني من العودة ثانية إلى تونس⁽³⁾.

ثم تعرض الحكم المريني في بلاد المغرب الأدنى للخطر من جانب عدد من الشخصيات الرسمية، وعلى رأسها أمير عنابة (بونة)⁽⁴⁾ أبو العباس الفضل بن أبي بكر الحفصي (ت. 750هـ/1350م) في كل من عنابة وقسطنطينة⁽⁵⁾ وبجاية. وبذلك أصبحت المناطق الغربية من السلطنة الحفصية بيد أبي العباس المذكور، فطمع في السيطرة على تونس وانتزاعها من أبي الحسن، إلا أنه لم يتمكن في بداية الأمر، ثم بدأ يحشد الأنصار، وتحالف معه زعماء بلاد

(1) للاطلاع على تفاصيل السيطرة المرينية والإجراءات التي قام بها أبو الحسن؛ انظر: ابن خلدون، ج6، ص(520-522)؛ الزركشي، ص(82-83). ابن القنفذ، ص17؛ الناصري، ج3، ص155، 157؛ انظر: المطوي، ص379؛ حركات، ج2، ص46؛ برنشفيك، ج1، ص196.

(2) القيروان: قاعدة البلاد الأفريقية وأعظم مدن المغرب تقع في سهل رملي قاحل لا تنبت فيه الأشجار، بينها وبين البحر المتوسط ستة وثلاثون ميلاً ونحو مائة ميل من تونس، وتبعد عن المهديّة والمنستير أربعون ميلاً. انظر: الحميري، الروض، ص486؛ الوزان، ج2، ص87، 90.

(3) ابن خلدون، ج6، ص524، 526؛ الناصري، ج3، ص155، 160، (158-161)؛ ابن الشماخ، ص(196-197)؛ ابن أبي دينار، ص139؛ الزركشي، ص84؛ ابن القنفذ، ص170، التازي، التاريخ، ج7، ص30؛ برنشفيك، ج1، ص200؛ حركات، ج2، ص48.

(4) عنابة: تقع شمال شرق بلاد المغرب على ساحل البحر الأبيض المتوسط، انظر: الحميري، الروض، ص115؛ الوزان، ج1، ص61.

(5) قسطنطينة: مدينة كبيرة عامرة بالأسواق والتجار، كثيرة الخصب، ومنها إلى بجاية ستة أيام، وإلى جيجل أربعة أيام، تعرف بحصانتهما، انظر: الحميري، الروض، ص481.

الجريد⁽¹⁾، بالإضافة إلى بني مكي أصحاب قابس⁽²⁾، وبذلك أصبح الجنوب التونسي بأكمله مع أبي العباس، فقرر السلطان أبو الحسن أمام هذه التطورات الانسحاب إلى بلاد المغرب الأقصى، وفي أواخر العام 750هـ/1350م تمكن أبو العباس من دخول تونس وتولي الحكم⁽³⁾. ونظراً لضعف شخصيته وانشغاله باللهو؛ فقد سيطر الأعراب على مقاليد الحكم في دولته، ومن ثم قام المتنفذون بالإطاحة به وقتله، وقد تولى كير هذه السياسة الحاجب ابن تافراجين وقبائل أبناء أبي الليل⁽⁴⁾، ثم أجبروا العامة على مبايعة الطفل أبي إسحق إبراهيم بن أبي بكر (المستنصر بالله) سلطاناً (751-770هـ/1350-1369م)⁽⁵⁾.

وبعد نجاح المؤامرة، غدا الحاجب ابن تافراجين السلطان غير المتوجج⁽⁶⁾، إلا أن عمال الجنوب الشرقي رفضوا مبايعة السلطان الجديد، ومنهم أحمد بن مكي صاحب قابس وجربة، الذي أخذ يحرض العامة عليه وعلى حاجبه المستبد⁽⁷⁾، ثم أخذ ابن مكي يبحث عن شخصية حفصية ليقا تل تحت رايتها سعياً وراء كسب الشرعية، فوجد ضالته في والي قسنطينة أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر الحفصي، الذي راقت له الفكرة بعدما أغراه بإعادة ملك آبائه⁽⁸⁾. وعندما حاولت قوات الأعراب التابعة لابن مكي وحليفه السيطرة على تونس؛ منيت بهزيمة نكراء على يد ابن تافراجين في بلاد هوارة عام 752هـ/1351م⁽⁹⁾. وعلى الرغم من أن الأحداث اللاحقة كانت تسير لصالح ابن مكي وحليفه أبي زيد؛ فإن الأخير توقف عن

(1) بلاد الجريد: يمتد من تخوم بسكرة إلى جزيرة جربة، وهي بلاد شديدة الحرارة كثيرة الجفاف، تشتمل على عدد من المدن كتوزر وقفصة وغيرها، انظر: الوزان، ج1، ص142.

(2) قابس: مدينة تقع بين مدينة طرابلس وصفاقس، الصحراء متصلة بها، والبحر على بعد ثلاثة أميال منها، انظر: الحموي، ج4، ص289.

(3) الناصري، ج3، ص(161-163)؛ ابن الشماخ، ص98؛ ابن القنفذ، (172-173)؛ ابن خلدون، ج6، ص524، 527، 529؛ الزركشي، ص89-90؛ انظر: برنشفيك، ج1، ص201؛ المطوي، ص411.

(4) ابن خلدون، ج6، ص530؛ الزركشي، ص92.

(5) ابن خلدون، ج6، ص530؛ ابن القنفذ، ص173.

(6) ابن الشماخ، ص102؛ مقديش، ج1، ص553.

(7) ابن خلدون، ج6، ص530؛ المطوي، ص416؛ برنشفيك، ج1، ص203.

(8) ابن خلدون، ج6، ص531؛ انظر أيضاً: المطوي، ص417.

(9) ابن خلدون، ج6، ص532.

محاولات السيطرة على تونس بعدما تنهت إلى مسامحة أن أبا عنان المريني قد سيطر على تلمسان عاصمة الدولة الزيانية، وبدأ بالتقدم شرقاً للسيطرة على تونس، وحينها اعتصم أبو زيد بقسنطينة تاركاً مهمة مناوشة ابن تافراجين في تونس لابن مكّي ولأخيه أبي العباس بن محمد بن أبي بكر⁽¹⁾. وفي ظل هذه الأوضاع الحفصية المتردية تمكن أبو عنان من الوصول إلى مشارف مشارف بلاد المغرب الأدنى بعد تمكنه من الاستيلاء على ولاية بجاية من واليها الأمير أبي عبدالله محمد الحفصي، الذي عرف عنه موالاته للمرينيين⁽²⁾. وكانت سائر الأنحاء قد سقطت بيد أبي عنان ما عدا قسنطينة التي ما لبثت هي الأخرى أن دخلت في حوزة المرينيين عام 758هـ/1357م⁽³⁾، وبذلك يكون أبو عنان قد تمكن من السيطرة على معظم أنحاء البلاد. ويتضح مما ذكر أن تفرق بني حفص، والعداء بين ولاية بجاية وقسنطينة وتونس قد أسهم في تسهيل مهمة أبي عنان في السيطرة على بلادهم.

وكعادة الأعراب، وسياستهم القائمة في الوقوف مع مصالحهم؛ فقد أخذت قبائل الكعوب والمهلهل تحرض أبا عنان على السيطرة على تونس وانتزاعها من ابن تافراجين وخليفته، فتم له ذلك في رمضان 758هـ/ أغسطس 1357م، بيد أن الأوضاع الداخلية لم تستقر، وبخاصة بسبب القلاقل التي كان الأعراب يحدثونها ضد المرينيين، مما اضطره إلى مغادرة تونس في أواخر العام المذكور، ومع ذلك ظل الخطر المريني جاثماً على معظم الأراضي الحفصية⁽⁴⁾. وشكلت وفاة أبي عنان المريني عام 759هـ/1358م فرصة مناسبة للحاجب ابن تافراجين من أجل استعادة السلطة الحفصية المغتصبة، فتمكن من السيطرة على بجاية عام 761هـ/ 1360م⁽⁵⁾، وأقام السلطان بها، في حين أقام ابن تافراجين في مدينة تونس. وخلال تلك الفترة كان على السلطان الحفصي أبي إسحاق إبراهيم مواجهة أطماع أبي عبدالله محمد الحفصي (ت. 762هـ/1361م) ومن التف حوله من الأعراب، فدارت بين الطرفين صولات وجولات، إلى

(1) الزركشي، ص 93؛ انظر أيضاً: برنشفيك، ج 1، ص 206.

(2) ابن خلدون، ج 6، ص 533؛ الناصري، ج 3، ص 184.

(3) ابن خلدون، ج 6، ص 539؛ ابن الشماع، ص 103؛ الزركشي، ص 96.

(4) ابن خلدون، ج 6، ص 539؛ ابن الشماع، ص 104؛ الناصري، ج 3، ص 202؛ انظر أيضاً: المطوي، ص 427، (431-432)

(5) الزركشي، ص 97؛ ابن مقديش، ج 1، ص 582.

(5) ابن خلدون، ج 6، ص 542.

أن تمت تسوية الأمور بين الطرفين⁽¹⁾، ثم ما لبثت نار الفتنة أن اشتعلت في العام التالي بين أبي عبد الله محمد صاحب بجاية (ت. 762هـ/1361م) وأبي العباس أحمد الثاني (772-796هـ/1370-1394م)⁽²⁾ صاحب قسنطينة على حدود الإماراتين، والتقى الفريقان بناحية سطيف، فأختلت مصاف أبي عبد الله بعد أن تخلى عنه أولاد أبي السباع، وانضموا لأبي العباس فهُزم جيشه، والقي القبض عليه وأعدم، واستولى أبو العباس على بجاية⁽³⁾. فاستغل أبو حمو الزياني⁽⁴⁾ (760-770هـ/1359-1378م) انتصار أبي العباس أحمد على ابن عمه من أجل الاستيلاء على بجاية وتحقيق طموحات أسلافه في توسيع مملكتهم، فسار على رأس الآلاف من الجند، وكان معظمهم من قبيلة زغبة، وتمكن من الوصول إلى مشارف بجاية وفرض حولها حصاراً مشدداً، إلا أنه فشل في اقتحامها⁽⁵⁾.

وبعد وفاة السلطان أبي إسحق إبراهيم عام 770هـ/1369م ومبايعة ابنه أبي البقاء خالد (770-777هـ/1369-1375م) الذي لم يكن يتجاوز الثانية عشرة من عمره، عانت السلطنة من تسلط الوزير منصور سريجه، والحاجب أحمد بن إبراهيم المالقي حيث استبدت في الحكم وأخذت يتصرفان بالسلطة بما يتناسب مع أهوائهما، وما يتقاطع مع مصالحهما الشخصية باسم السلطان الجالس على العرش، الأمر الذي تسبب في غضب العامة، وازداد الأمر سوءاً بعد اقدامهما على قتل بعض الشخصيات الدينية والعسكرية المنتفة، حتى يخلو لهما جو الاستبداد على السلطان الطفل⁽⁶⁾، كما عملا على إفساد العلاقات مع منصور بن حمزة شيخ الكعوب، الذي

(1) ابن خلدون، ج6، ص548؛ انظر أيضاً: المطوي، ص(445-446).

(2) أبو العباس، أحمد بن أبي يحيى بن أبي بكر: بويغ بالخلافة عام 772هـ/1370م وحمل لقب المتوكل، شجاع، عاقل، متسامح، ويُعد باعاً حقيقياً للسلطنة الحفصية؛ حيث عمل طوال فترة حكمه على التخلص من الفساد، وتوفير الأمن في أرجاء السلطنة، انظر: ابن الشماخ، ص110.

(3) ابن خلدون، ج6، ص550؛ انظر أيضاً: ابن الشماخ، ص103؛ المطوي، ص453؛ برنشفيك، ج1، ص214.

(4) أبو حمو بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن: أحد سلاطين بني زيان، أقام عند الحفصيين لمدة خمس سنوات، عُوئل خلالها معاملة الأمراء، وتمكن بمساعدتهم من استعادة تلمسان من السيطرة المرينية عام 760هـ/1359م، امتد عهده لثلاثين عاماً قضاها بالبناء والتشييد وحكم البلاد بالحكمة والعدل، انظر: الفيلاي، ج1، ص57.

(5) ابن خلدون، ج6، ص(551-552)؛ انظر أيضاً: برنشفيك، ج1، ص214؛ المطوي، ص(456-457).

(6) ابن خلدون، ج6، ص(553-555)؛ الزركشي، ص104؛ انظر أيضاً: برنشفيك، ج1، ص217؛ ابن الشماخ، ص107.

الذي لم يجد سبيلاً سوى اللجوء مع قومه إلى أبي العباس أحمد الحفصي أمير المناطق الغربية، والعمل على تحريضه على غزو تونس وضمها إلى نفوذه⁽¹⁾، وفي خريف عام 777هـ/1375م سار الأمير بعساكره من بجاية قاصداً العاصمة، وتمكن من دخولها والتخلص من سلطانها، وتسمى بأبي العباس أحمد أبي بكر المتوكل على الله (776-786هـ / 1374-1384م)⁽²⁾.

وواجه السلطان الجديد تحديات جمة تمثلت بضرورة توفير الأمن والحد من سلطة الأعراب وانتزاع إقطاعاتهم، وبخاصة بني حمزة الكعوبيين حلفاء الأمس الذين أعلنوا العصيان وعقدوا تحالفاً مع أولاد حكيم واتجهوا صوب قبائل الذواودة، الذين تواجد عندهم الأمير أبو يحيى زكريا ابن السلطان أبي بكر المتمرد السابق في المهديّة، بهدف استمالاته من أجل الانضمام إلى صفهم ومبايعته سلطاناً، فلاقى هذا العرض استحسان الأمير الحفصي، وتمت مبايعته، وساروا مجتمعين صوب العاصمة، فتصدت لهم قوات السلطان أبي العباس وتمكنت من دحرهم، ثم استغل السلطان هذا الانجاز بإحكام السيطرة على كل من ولايتي سوسة⁽³⁾ والمهديّة، ثم اتبعهما بإخضاع جزيرة جربة التي كانت تعيش حالة من التمرد والعصيان⁽⁴⁾. كما اضطر عام 778هـ/1376م لمحاربة القبائل المتمردة في قفصة⁽⁵⁾ وتوزر⁽⁶⁾ وسائر بلاد الجريد، وبخاصة قبيلة أبي الليل الذين هاجموا تونس العاصمة، ثم تمكن السلطان الحفصي من فرض سيطرته على ولاية بسكرة⁽⁷⁾ التي كانت تحت حكم ابن مزني المتغلب عليها، وتم له ذلك بوساطة شيخ

(1) ابن خلدون، ج 6، ص 555؛ ابن الشماخ، ص 106؛ الزركشي، ص 104؛ انظر أيضاً: برنشفيك، ج 1، ص 230.

(2) ابن خلدون، ج 6، ص 555-556؛ ابن الشماخ، ص 108؛ الزركشي، ص (104-106)؛ انظر أيضاً: برنشفيك، ج 1، ص 217؛ المطوي، ص (481-482).

(3) سوسة: مدينة كبيرة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، تبعد مائة ميل عن تونس محاطة بالاسوار، وفيها قسبة كبيرة حصينة. انظر: الوزان، ج 1، ص 83.

(4) ابن خلدون، ج 6، ص (557-560)؛ ابن الشماخ، ص (108-111)؛ الزركشي، ص (105-107)؛ انظر أيضاً: برنشفيك، ج 1، ص 220؛ المطوي، ص (486-488).

(5) قفصة: بلدة صغيرة من عمل الزاب الكبير بالجريد، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام. انظر: الحموي، ج 4، ص 382.

(6) توزر: مدينة تقع جنوب بلاد المغرب الأدنى، وهي من نواحي الزاب الكبير، بينها وبين نقطة عشرة فراسخ، وتعرف بكثرة نخيلها. انظر: الحموي، ج 2، ص 57.

(7) بسكرة: مدينة تقع جنوب بلاد المغرب الأدنى، وهي من بلاد الزاب، بينها وبين قلعة بني حماد مرحلتان، انظر: الحموي، ج 1، ص 422.

قبيلة رياح عام 783هـ/1381م⁽¹⁾، وبذلك يكون السلطان أبو العباس قد حقق طموحاته في وضع كامل البلاد الحفصية تحت سلطته. وعلى الرغم من الامتيازات التي قدمها السلطان أبو العباس للقبائل البدوية؛ إلا أن مشاكلهم لم تنته، ووصل بهم الأمر إلى خلق حلف مكون من الكعوبيين ويحيى بن يملول صاحب توزر وابن مزني في بسكرة، ومحاولة الاتصال مع الزيانيين ضد الدولة⁽²⁾.

ولم تقف الأمور عند هذا الحد؛ إذ عادت الفوضى تعم بلاد الجريد من جانب أولاد المهمل عام 783هـ/1381م، مما اضطر السلطان إلى تجريد حملة عسكرية ضد مدينة توزر بهدف تأديب الثائرين، وأتبعها بحملة أخرى ضد ابن مكي في قابس، حيث قامت جيوشه بمحاصرتها وقطع أعداد كبيرة من نخيلها، مما اضطر ابن مكي على الاستسلام، وفي العام 794هـ/1392م وجهت الدولة حملة ضد مدينة طرابلس التي امتنع أهلها عن دفع الضرائب المقررة عليهم، وبعد حصار استمر اثني عشر شهراً استسلم الأهالي ونزلوا عند رغبة الدولة. وعادت قفصة هي الأخرى إلى التمرد والعصيان، مما دفع السلطان إلى تجريد حملة ضدها عام 795هـ/1393م، ولكنه فشل في إخضاعها بسبب خذلان حلفائه من الأعراب له، فاضطر لفك الحصار والانصراف إلى عاصمته⁽³⁾. ويتضح مما ذكر مدى الضعف الذي كانت تعيشه بلاد المغرب؛ وبخاصة عقب انهيار دولة الموحدين، والصراعات التي احتدمت بين مختلف القوى المتنافسة، مما أتاح الفرصة للقوى الخارجية لتمارس أطماعها وسياساتها التوسعية الاستعمارية ضد البلاد المذكورة.

الحملة الجنوبية على طرابلس عام 755هـ/1354م

(1) ابن خلدون، ج 6، ص (562-564)، (570-571)؛ الزركشي، ص 109؛ انظر أيضاً: برنشفيك، ج 1، ص 224؛ المطوي، ص (491-492)، 502

(2) ابن خلدون، ج 6، ص (571-572)؛ الزركشي، ص 111؛ انظر أيضاً: المطوي، ص 504.

(3) ابن خلدون، ج 6، ص (572-573)، 576، (580-581)؛ انظر أيضاً: برنشفيك، ج 1، ص 225، (537-538)؛ المطوي، ص 506، 525.

عُدَّت مدينة طرابلس من أهم موانئ بلاد المغرب بفضل موقعها الجغرافي على ساحل البحر الابيض المتوسط، وقربها من جزيرتي مالطة وصقلية⁽¹⁾، فمثلت مركزاً استراتيجياً وتجارياً واقتصادياً مهماً للقوافل التجارية القادمة من أوروبا، مما جعلها محطاً أنظار مختلف القوى الصليبية⁽²⁾. وكانت الدولة الحفصية، التي تقع مدينة طرابلس ضمن مناطق نفوذها، تستحوذ على مفاتيح التجارة في شمال إفريقيا، وترتبط مع الجنوبيين بمعاهدات تجارية حرصت جنوة على تجديدها باستمرار، ما مكنَّ الجنوبيين من امتلاك العديد من المراكز التجارية الساحلية والاطلاع على أوضاع المدينة بفضل تجارها المترددين بشكل دوري، فكانت على دراية بمناطق الضعف الكامنة في جغرافيتها، وقلة الأعراب في ضواحيها الذين كان بالامكان الاعتماد عليهم في الدفاع عنها والشد من أزر أهلها⁽³⁾.

ومما حفز الجنوبيين على التوجه نحوها للسيطرة عليها علاقاتها المضطربة مع السلطة الحفصية في تونس، حيث دأب ولاية المدينة على إعلان التبعية لتونس تارة والتمرد عليها تارة أخرى، إلى أن قطع واليها محمد بن ثابت عام 750هـ/1349م علاقاته مع الحفصيين، ما أدى إلى فقدان المدينة لعمقها السياسي والجغرافي⁽⁴⁾. وعلى الرغم مما كانت تعاني منه الدولة الحفصية من ضعف النفوذ وتغلب الأعراب والفتن الداخلية وسوء الإدارة⁽⁵⁾؛ فإن قرار الوالي قد جرد الحفصيين من مسؤولياتهم تجاه المدينة، التي باتت تعتمد على إمكاناتها الذاتية في الدفاع عن نفسها في وجه أي هجوم خارجي.

ويبدو أن الجنوبيين قد استغلوا الأوضاع الحفصية السيئة، وانقطاع العلاقات بين تونس وطرابلس؛ فقرروا توجيه حملة عسكرية ضد المدينة بقيادة الأميرال الجنوبي فيليب دوريا

(1) صقلية: إحدى الجزر الإيطالية، خضعت طوال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي لسيطرة أسرة آل لانجو الفرنسية، وعانت خلالها من الفوضى والاضطرابات بسبب اساءتهم للأهالي فتاروا عام 681هـ/1282م، وغدت الجزيرة مسرحاً للفوضى حتى تمكن الملك الأراغوني بيدرو الثالث (Pedro III) (675-684هـ/1276-1285م) من ضمها لأملكه، انظر: بريج، ص (56-57).

(2) الوزان، ج1، ص 469.

(3) ابن خلدون، ج6، ص 563.

(4) المصدر نفسه، ج6، ص 536؛ انظر أيضاً: حسين؛ مصطفى، ص 503.

(5) العامري، ص 108.

Philip Doria عام 755هـ/1354م بهدف السيطرة عليها⁽¹⁾، وأعدوا لهذا الغرض خمس عشرة سفينة حربية⁽²⁾. واتبعوا في هجومهم على المدينة أسلوب المكر والخديعة؛ حيث قدموا على هيئة تجار، فانطلت الحيلة على الأهالي ولم يتعرضوا لهم⁽³⁾، ما مكن الأسطول الجنوبي من الرسو في مينائها بسهولة ويسر، ثم قام الإمبرال بإرسال مبعوث من طرفه ممن يتقنون اللغة العربية، بهدف الاطلاع على أحوال المدينة واستكشاف عوراتها ومواطن ضعفها⁽⁴⁾.

ولما دخل المبعوث الجنوبي المدينة لاحظ ما كانت تعانيه من قلة الحبوب والمواد الغذائية، وارتفاع الأسعار⁽⁵⁾، فضلاً عن الآثار التي بدت ظاهرة بسبب الطاعون الذي كان قد ضرب البلاد في وقت سابق، وخلال ذلك حرص على إطلاع النصارى المقيمين فيها على خطة السيطرة على المدينة، حتى يقوموا بدورهم في المساعدة والإسناد، ثم طلب من والي المدينة ثابت بن محمد جمع أسلحة الجند والعامّة وحفظها في القلعة بذريعة تخوّف التجار الجنوبيين من النزول من مراكزهم في ظل الوضع القائم، فوافق الوالي على ذلك لأن الأهالي كانوا بأمس الحاجة للمواد الغذائية، وطمعاً في حصوله على خمس العائدات التجارية، وبعد أن تأكد الجنوبيون من نجاح الحيلة، وأن المدينة قد أصبحت خالية من الأسلحة؛ عملوا على دس بعض التجار إلى شوارعها وأسواقها، فعرضوا بضائعهم، وأقبل الناس على الشراء⁽⁶⁾، ثم أخذوا يتجولون في أنحاء المدينة لاستطلاع أحوالها، ولتهيئة الأوضاع للقوات من أجل الاقتحام⁽⁷⁾، فاستغل المهاجمون حلول ليل العاشر من ربيع الأول/السابع من إبريل وقاموا ب نصب السلاالم وتسلق أسوار المدينة، ثم قاموا بفتح أبوابها بعد التخلص من حراسها، وهاجموا أهلها العزل من

(1) ابن خلدون، ج6، ص 536؛ أنظر أيضاً: برنشفيك، ج1، ص 203؛ العامري، ص 108.

(2) برنشفيك، ج1، ص 203.

(3) ابن حجر، الدرر، ج2، ص 65؛ الزركشي، ص 94؛ أنظر أيضاً: العامري، ص 108.

(4) ابن حجر، الدرر، ج2، ص 64.

(5) حسين؛ مصطفى، ص 505.

(6) ابن حجر، الدرر، ج2، ص 64.

(7) ابن خلدون، ج6، ص 536؛ أنظر أيضاً: حسين؛ مصطفى، ص 506.

السلاح وهم نيام⁽¹⁾، فلم يشعروا إلا والجنويون قد اقتحموا بيوتهم قتلاً وأسرّاً ونهباً⁽²⁾، ولم يسلم الهاربون من القتل والسلب على يد الأعراب⁽³⁾.

وبعد أن استباح الجنويون المدينة نقلوا إلى بلادهم على متن سفنهم كل ما وجدوه فيها من أموال ومتاع، بالإضافة إلى الأسرى الذي بلغ عددهم سبعة آلاف⁽⁴⁾. أما والي المدينة؛ فعندما رأى الجنويين يحاصرون قلعته، هرب لاجئاً لدى أعراب ذياب الهلالية المقيمين بجوار المدينة، فقتلوه لثأر كان لهم عنده، أما إخوته فتمكنوا من الفرار إلى مدينة الإسكندرية بمصر⁽⁵⁾.

وامتدت إقامة الجنويين بطرابلس لأربعة شهور أو خمسة⁽⁶⁾، تعرضوا خلالها لهجمات عديدة من جانب المسلمين، بهدف إجبارهم على الرحيل⁽⁷⁾، وخلال ذلك لعب الأعراب دوراً سلبياً أسهم في التقليل من جدوى تلك الهجمات⁽⁸⁾. ويبدو أن الجنويين قد ضاقوا ذرعاً بالمقاومة الطرابلسية على الرغم من محدودية فعاليتها، فمالوا إلى المفاوضات مع أحمد بن مكي متولي قابس، واشترطوا الحصول على خمسين ألف دينار من الذهب مقابل الرحيل عن المدينة⁽⁹⁾، فأرسل للسلطان المريني أبي عنان فارس يطلب منه المال اللازم لهذا الغرض، إلا أن المرينيين تأخروا في إرساله⁽¹⁰⁾، مما اضطر ابن مكي لإخراج ما لديه من أموال وجمع المتبقي من أهل قابس والحامة⁽¹¹⁾ وبلاد الجريد ودفعه للجنويين⁽¹⁾، فغادروا المدينة يوم 12 شعبان سنة

(1) ابن خلدون، ج6، ص536؛ الزركشي، ص94.

(2) المقرزي، ج3، ق1، ص21؛ الزركشي، ص94.

(3) حسين؛ مصطفى، ص506.

(4) ابن خلدون، ج6، ص536؛ انظر أيضاً: برنشفيك، ج1، ص204؛ حسين؛ مصطفى، ص508.

(5) ابن خلدون، ج6، ص536؛ ابن حجر، الدرر، ج2، ص65؛ الزركشي، ص93؛ انظر أيضاً: العامري، ص108.

(6) ابن خلدون، ج6، ص536؛ الزركشي، ص94؛ ابن أبي دينار، ص331.

(7) الزركشي، ص94.

(8) حسين؛ مصطفى، ص(508-509).

(9) ابن خلدون، ج6، ص536؛ ابن حجر، الدرر، ج2، ص66؛ الزركشي، ص94؛ انظر أيضاً: برنشفيك، ج1، ص204؛

العامري، ص109.

(10) ابن خلدون، ج6، ص536.

(11) الحامة: مدينة تبعد خمسة عشر ميلاً من قابس، وعلى بعد ميل ونصف من المدينة، ويوجد فيها عين ماء ساخنة

استخدمت للاستشفاء، انظر: الوزان، ج1، ص92.

755هـ/26 أغسطس 1354م⁽²⁾، وانتظمت تحت حكم ابن مكي، فأعاد إعمارها، وظل يحكمها حتى وفاته⁽³⁾.

الحملة الجنوبية المسيحية المشتركة على جزيرة جربة عام 790هـ/1388م

عانت جنوة في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي أوضاعاً داخلية صعبة حالت دون القيام بأعمال ذات قيمة ضد مسلمي شمال إفريقيا، وذلك بسبب النزاع على الحكم بين العائلات النبيلة، وكرهية الشعب للنبلاء، مما أدى إلى انقسام الجنوبيين إلى معسكرين متعارضين، ومما زاد الطين بلة تدخل البابوية في الشؤون الجنوبية، وفي الوقت نفسه وجدت الدولة من يناصرها من أهل المدينة⁽⁴⁾، ومن المشكلات التي عانت منها المدينة تجدد الصراع مع البندقية عام (780هـ / 1378م) وخسارة جنوة معظم أسطولها وخيرة شبابها، علاوة على نزاعها مع دوق ميلان جان جالياتزو فيسكونتي (Gian Galeazzo Visconti)⁽⁵⁾.

وأما جزيرة جربة القريبة من قابس، فكانت تتبع الدولة الحفصية من الناحية الرسمية، ولما كان السلطان الحفصي أبو العباس أحمد الثاني من أقوى حكامها وأكثرهم حزماً؛ فقد عمد إلى قطع الإتاحة التي كانت تؤذيها الدولة لمملكتي أراغون⁽⁶⁾ وصقلية⁽⁷⁾، وفي عهده زادت الهجمات الإسلامية انطلاقاً من جزيرة جربة ومن غيرها ضد سفن القراصنة والسفن التجارية، وضد السواحل والجزر الأوروبية، والعودة محملين بالأسلاب والأسرى، واتخذوا من المهديّة

(1) ابن خلدون، ج6، ص536؛ المقرئ، ج3، ق1، ص21؛ الزركشي، ص94؛ انظر أيضاً: برنشفيك، ج1، ص109؛ العامري، ص109.

(2) برنشفيك، ج1، ص109؛ العامري، ص109.

(3) ابن خلدون، ج6، ص536؛ ابن الشماخ، ص103.

(4) حسين؛ مصطفى، ص520.

(5) برنشفيك، ج1، ص229.

(6) مملكة أراغون: ثاني أكبر مملكة في شبه الجزيرة الإيبيرية، تأسست في العام 1138م من ثلاثة أقاليم: أراغون وقطلونيا وبلنسية، ويعد الملك خايمي الأول (Jaime I) (604-675هـ/1208-1276م) المؤسس الحقيقي لها بعد أن تمكن من القضاء على الوجود الإسلامي في جزر البليار وشرقي الأندلس، انظر: عنان، دولة، ج4، ص47؛ بيري، ج47، ص47.

(7) حسين؛ مصطفى، ص516. Charles, p. 28.

وبجاية مراكزاً لعملياتهم⁽¹⁾، فعمل السلطان الحفصي على حمايتهم، وعقد اتفاقاً معهم مقابل تقديم خمس الغنائم للخرينة⁽²⁾.

وأمام هذه التطورات الخطيرة، غلب التوتر على العلاقات بين الحفصيين وبعض الممالك المسيحية كأراغون وصقلية، بالإضافة إلى فرنسا التي تعرضت سواحلها الجنوبية لهجمات إسلامية عنيفة، وأما البندقية فبقيت محافظة على علاقاتها السلمية مع الحفصيين⁽³⁾، مما أجبر جنوة على توقيع اتفاقية سلام وتعاون تجاري مع السلطان الحفصي أبي العباس أحمد عام 785هـ/1383م⁽⁴⁾، ولكن ذلك لم يسهم في وقف الهجمات الإسلامية ضد أراضي جنوة وأوروبا الجنوبية وسفنها، مما عرض الحركة التجارية في غرب البحر المتوسط للخطر، فأصبح الجنويون على قناعة أن هذا الخطر لا يزول إلا بالتدخل العسكري⁽⁵⁾.

وفي أوائل صيف 790هـ/1388م دعت جنوة عدداً من القوى الإيطالية للاجتماع، وبادرت صقلية إلى استضافة المجتمعين وإلى جعل سواحلها منطلقاً للسفن نحو جربة، وما أن انتهت الاستعدادات اللازمة حتى توفر للحملة أسطول حربي من عشرين قطعة، منها اثنتا عشرة سفينة حربية جنوية ضمت ثلاث مجموعات من المجدفين⁽⁶⁾، وشاركت بيزا بخمس سفن⁽⁷⁾، أما صقلية فشاركت بثلاث، وتطوع أحد حكامها بقيادة الحملة⁽⁸⁾.

وأقلع الأسطول المسيحي قاصداً جزيرة جربة، فوصلها بعد عدة أيام⁽⁹⁾، واستطاعت قوات الحملة مباغته أهلها بعد نزولهم إلى البر، وأعملوا فيهم قتلاً وأسراً ونهباً، ونقلوا الأسلاب

(1) ابن خلدون، ج6، ص578؛ انظر أيضاً: مؤنس، تاريخ، ج2، ص(268-269).

(2) حسين؛ مصطفى، ص516.

(3) حسين؛ مصطفى، ص(517-519).

(4) المرجع نفسه، ص520؛ برنشفيك، ج1، ص229.

(5) حسين؛ مصطفى، ص523.

(6) عاشور، الحركة، ج2، ص1240.

(7) حسين؛ مصطفى، ص522؛ برنشفيك، ج1، ص229.

(8) حسين؛ مصطفى، ص523؛ برنشفيك، ج1، ص229؛ عاشور، الحركة، ج2، ص1240.

(9) حسين؛ مصطفى، ص522.

إلى بلادهم⁽¹⁾، ثم ألحقت الجزيرة بصقلية، وتولى قيادة حاميتها القائد الصقلي مانفرد دي كيرمونت (Manfred de Germont)⁽²⁾، ونال هذا العمل مباركة البابا أوربان السادس (Urbanus VI) (780-791هـ/1378-1389م)⁽³⁾، واتخذ المسيحيون من جربة قاعدة لعملياتهم على طول الساحل المجاور، وكانت جنوة أكبر المستفيدين من تلك الحملة، إذ ضمنت سلامة سفنها وسواحلها، وحازت على أكبر قسم من الغنائم⁽⁴⁾، ثم ما لبثت أن تخلت جنوة وبيزا عن حصتها في الجزيرة لصالح الصقليين مقابل ستة وثلاثين ألف قطعة ذهبية⁽⁵⁾، ولا ندري الطريقة التي انتقلت فيها الجزيرة إلى السلطة الحفصية.

أحوال الممالك الإسبانية والأندلس، والعلاقات بينهما في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي

اشتملت شبه الجزيرة الإيبيرية حتى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي على خمس ممالك، وهي: قشتالة، وأراغون، وليون⁽⁶⁾، ونافار⁽⁷⁾، والبرتغال⁽⁸⁾،⁽⁹⁾ ثم ما لبثت قشتالة قشتالة أن استحوذت على أراضي ليون⁽¹⁰⁾، وتوزعت أراضي نافار ما بين قشتالة وأراغون

(1) المرجع نفسه، ص 523؛ برنشفيك، ج 1، ص 230؛

(2) حسين؛ مصطفى، ص 522.

(3) المرجع نفسه، ص 523؛ برنشفيك، ج 1، ص 230. أوربان السادس: ولد في مدينة نابولي في العام 710هـ/1310م، وعرف بالتواضع والمسالمة، إلا أنه تغير بعد توليه الكرسي البابوي، فأصبح قاسياً، الخوند، ص 110.

(4) حسين؛ مصطفى، ص 523.

(5) برنشفيك، ج 1، ص 230؛ عاشور، الحركة، ج 2، ص 1240.

(6) مملكة ليون: ثالث الممالك الإسبانية، تربعت على مساحة صغيرة من الجزيرة الإيبيرية، وعرفت بقوتها وحصانة موقعها، وشاركت إلى جانب قشتالة في معركة العقاب 609هـ/1212م، انظر: ارسلان، الحل، ج 1، ص 328؛ عنان، دولة، ج 4، ص 595.

(7) مملكة نافار: إحدى الممالك الإسبانية التي كانت تقع ما بين أراغون وقشتالة، نالت استقلالها عن أراغون عام 528هـ/1134م وشكلت مملكة مستقلة حتى العام 631هـ/1234م، ثم وزعت أراضيها بين الممالك الكبيرة، انظر: عنان، دولة، ج 4، ص 87.

(8) مملكة البرتغال: تقع في غرب شبه الجزيرة الإيبيرية، تطل على المحيط الأطلسي من الناحية الغربية، وتمتد أراضيها من نهر وادي يانة غرباً حتى المحيط الأطلسي، وتشمل على عدة مدن مثل يابرة واشبونة وقلمرية، انظر: ابن عذاري، ج 3، ص (235-240)؛ النشار، تاريخ، ص 19.

(9) عنان، دولة، ج 4، ص (85-86).

(10) أشباح، ج 2، ص (149-150).

وفرنسا حتى العام 631هـ/1234م⁽¹⁾، فأصبح عدد الممالك المسيحية الإسبانية ثلاثاً وهي: قشتالة وأراغون والبرتغال، وعدت مملكة قشتالة أكثر هذه الممالك قوة وأكبرها مساحة، حيث استطاعت في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي توسيع نفوذها، فشملت أراضيها: قشتالة القديمة، وجيليقية⁽²⁾، والفرننتيرة، وإشبيلية⁽³⁾، وجيان، وطليلة.

وعانت قشتالة منذ أوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي من حالة داخلية سيئة؛ نتيجة الحروب الداخلية والثورات وحلول القحط وانتشار الأمراض، وتزامن ذلك مع الفساد الإداري والقضائي في أوساط البلاط القشتالي، وتناقص أموال خزينة الدولة نتيجة لتراجع الموارد، فضلاً عن وقوع الإدارة المالية تحت تصرف رجال الكنيسة واليهود، وازدياد نفوذ جماعات الفرسان نتيجة كثرة الحروب التي اتخذت طابعاً صليبياً⁽⁴⁾. وأما من الناحية السياسية؛ فقد خضعت قشتالة في بداية عهد الملك الفونسو الحادي عشر (Alfonso XI) (710-751هـ/1310-1350م) لهيمنة النبلاء، مما أدخل البلاد في حالة من الفوضى⁽⁵⁾، وفي محاولة محولة منه لتدارك الوضع المتردي؛ لجأ إلى سياسة العنف والقتل ضد معارضيهِ⁽⁶⁾. وعلى الرغم من الظروف الداخلية القشتالية الصعبة؛ فإنه لم يتوقف عن مهاجمة أراضي مملكة غرناطة الأندلسية ومحاولة الاستيلاء على حصونها⁽⁷⁾، كما نشط في الدفاع عن مناطق نفوذه في وجه الهجمات الإسلامية، ومن ذلك ما حدث في موقعتي طريف (Batalla del Salado)

(1) عنان، دولة، ج4، ص87.

(2) جليقية: تقع بالقرب من ساحل المحيط الأطلسي أقصى شمال غرب الأندلس، انظر: الحموي، ج2، ص157.

(3) إشبيلية: تقع جنوبي غرب بلاد الأندلس، بينها وبين قرطبة ثمانون ميلاً، ويطل عليها جبل الشرف، انظر: الحميري، صفة، ص(58-59).

(4) عنان، دولة، ج4، ص(118-120).

(5) جوليان، ج2، ص127.

(6) عنان، دولة، ج4، ص173.

(7) ابن خلدون، ج7، ص(330-331)؛ المقرئ، نفتح، ج1، ص(449-450)؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص(117-118).

. Bishko, III, p. 26

عام 740هـ/1339م، والجزيرة الخضراء عام 742هـ/1341م، فضلاً عن سعيه للسيطرة على مضيق جبل طارق عام (750هـ/1349م)⁽¹⁾.

وسار الملك القشتالي بيدرو الثاني Pedro II (751-770هـ/1350-1369م) على سنة أسلافه في سياسته الداخلية وتجاه الأندلسيين، وعُرفت عنه سياسته الدموية تجاه المعارضة الداخلية، وبخاصة النبلاء، ووصل به الأمر إلى إقدامه على قتل زوجته بهدف الزواج من خليلته، فلقب بالقاسي. ثار ضده أخوه الكونت هنري دي تراستمارا (Enrique Trastmara) (769-781هـ/1368-1379)، ما أدى إلى خلعته عن العرش عام 767هـ/1366م، إلى أن قتل في العام 770هـ/1369م خلال صراعه مع القوى الداخلية المعارضة، وتولى الحكم بدلاً من هنري المذكور باسم هنري الثاني حتى عام 781هـ/1379م⁽²⁾.

وتمكن هنري الثاني من تثبيت حكمه وإعادة الهدوء والاستقرار إلى البلاد بمساعدة الأشراف، إلا أنه كان مضطراً لمواجهة الأطماع النافارية والبرتغالية في عرش بلاده، فأحرز النصر على أعدائه، وبخاصة بعد تدخل البابوية⁽³⁾. وخلفه عقب وفاته ابنه خوان الأول (Juan I) (781-792هـ/1379-1390م)، الذي تمكن بحنكته من تجنيب البلاد حرباً كانت ستقع مع إنجلترا على خلفية مطالبة الأخيرة بالعرش، وخاض معارك ضارية مع أراغون والبرتغال من أجل حماية عرشه⁽⁴⁾. ثم قرر خوان الأول قتال المسلمين، فطلب من غرناطة دفع الجزية، إلا أن وفاته حالت دون تحقيق أهدافه⁽⁵⁾. وعقب وفاة الملك القشتالي خوان الأول في أكتوبر من العام 792هـ/1390م تولى الحكم من بعده ولده هنري الثالث (Henry III) (792-808هـ—1406-1390م)، فتمكن من فرض النظام، والأمن داخل المملكة، والقضاء على تمرد

(1) عاشور، أوروبا، ج1، ص559؛ عنان، دولة، ج4، ص173؛ أرسلان، خلاصة، ص122.

(2) للاطلاع على التفاصيل؛ انظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص21؛ العبادي، ص446؛ عنان، دولة، ج4، ص143، ص173؛ أرسلان، خلاصة، ص(120-121)، (129-133)؛ عاشور، أوروبا، ج1، ص556؛ حاطوم، ج2، ص582؛ انظر أيضاً: Chapman, p. 26.

(3) العبادي، ص446؛ عاشور، أوروبا، ج1، ص575؛ غريمال بيير، ج2، ص134؛ عنان، دولة، ج4، ص174.

(4) أرسلان، خلاصة، ص123، ص(137-138)؛ عاشور، أوروبا، ج1، ص575؛ عنان، دولة، ج4، ص174.

(5) ابن عاصم، ج1، ص15 مقدمة المحقق.

الأشراف⁽¹⁾، ومن ناحية أخرى؛ استمر في محاربة مسلمي الأندلس، حيث نشبت خلال عهده حرباً انتهت بعقد صلح بين الطرفين⁽²⁾.

وأما أراجون فعدت المملكة الثانية في إسبانيا بعد قشتالة، وتألقت من ثلاثة أقاليم: أرغونه وقطالونية، وبلنسية⁽³⁾، وتمتع النبلاء فيها بقدر كبير من النفوذ⁽⁴⁾. ومن أهم ملوك أراغون؛ بيدرو الرابع (Pedro IV) (736-789هـ/1336-1387م) الذي انشغل طوال عهده في مقارعة النبلاء بهدف الحد من نفوذهم، فانقسمت المملكة إلى قسمين: أحدهما مؤيد للملك والآخر مؤيد للنبلاء، ولما رجحت كفة الملك؛ خسرت الأرستقراطية الإقطاعية نفوذها⁽⁵⁾. وتمكن وتمكن بيدرو من إخضاع جزر صقلية والبليار⁽⁶⁾ وسردينيا⁽⁷⁾ لسلطته⁽⁸⁾، وحاول مد نفوذ مملكته مملكته على حساب قشتالة؛ إلا أنه فشل في ذلك، وأخيراً؛ فإن أبرز ما تميز به عهده هو تشجيع العلاقات التجارية مع البلاد الشرقية المتوسطية⁽⁹⁾. وتوفي بيدرو الرابع عام 789هـ/1387م تاركاً أراجون في أوج عظمتها وقوتها، وخلفه على العرش ابنه خوان الأول (Juan I) (789-797هـ/1387-1395م)، وكان ملكاً ضعيف الخلال والعزم⁽¹⁰⁾، فبدد ثروات الدولة، ولم تعد قوية كما كانت في عهد أبيه، ولم يستمر حكمه سوى بضع سنوات، حيث مات عام 797هـ/1395م⁽¹¹⁾.

(1) عاشور، أوروبا، ج1، ص576؛ عنان، دولة، ج4، ص174؛ انظر أيضاً: Bishko, pp. 121-122.

(2) عنان، دولة، ج4، ص175؛ انظر أيضاً: Bishko, pp. 121-122.

(3) بلنسية: تقع شرق الأندلس، بينها وبين قرطبة على طريق بجانة ستة عشر يوماً، بينها وبين البحر ثلاثة أميال، وتقع على نهر جار يستفيد أهلها منه في الزراعة، انظر: الحميري، صفة، ص97.

(4) عاشور، أوروبا، ج1، ص(558-559).

(5) عاشور، أوروبا، ج1، ص562؛ عنان، دولة، ج4، ص177.

(6) جزر البليار: تعرف بالجزائر الشرقية لوقوعها شرق شبه الجزيرة الإيبيرية وهي ثلاث جزر كبيرة: ميورقة، منورقة، وبابسة، وعدد من الجزر الصغيرة تضاف لبلاد الأندلس كونها حكمت من المسلمين، انظر: الزهري، ص(128-130).

(7) سردينية: جزيرة متوسطية كبيرة، إلى الجنوب من كورسيكا، انظر: الحموي، ج3، ص209.

(8) عاشور، أوروبا، ج1، ص562؛ عنان، دولة، ج4، ص177؛ انظر أيضاً: Bishko, III, p. 28.

(9) ارسلان، خلاصة، ص(131-132).

(10) عنان، دولة، ج4، ص178؛ ارسلان، خلاصة، ص(116-117).

(11) عنان، دولة، ج4، ص178؛ ارسلان، خلاصة، ص116.

وكان بعض المؤرخين المحدثين قد اعترضوا على إدراج الحروب التي دارت في الجناح الغربي من العالم الإسلامي ضمن قائمة الحروب الصليبية بدعوى أن هذا المصطلح لا يطلق إلا على الحروب التي شنها الغرب المسيحي على بلاد الشرق الأدنى خلال الفترة الواقعة بين (488-690هـ / 1095-1291م)، مع العلم أنه ليس هناك فرق بينها وبين الحروب المسيحية ضد مسلمي الأندلس وفق ما عرف بسياسة إعادة الاسترداد (La Reconquista)، فكلها حروب صليبية حركتها المشاعر الدينية في المقام الأول، وبالتالي فإن الحروب التي شنها المسيحيون ضد الأندلسيين ما هي إلا حلقة من حلقات الحرب المقدسة الصليبية، وما الضريبة الصليبية (La Cruzada)⁽¹⁾ التي فرضتها الممالك المسيحية لتمويل حروبها ضد المسلمين إلا دليل على صليبيتها⁽²⁾. ومما يدل على الطابع الصليبي لتلك الحروب؛ اتكاء البابوية على فكرة الحرب العادلة في القتال ضد مسلمي الأندلس، كما منح البابا ألكسندر الثاني (Alexander II) (453-465هـ / 1061-1073م) في سنة 455هـ / 1063م غفراناً للفرسان الفرنسيين الذين ذهبوا لقتال المسلمين في الأندلس⁽³⁾.

وكان المسيحيون الإسبان قد سيطروا على الجزء الأكبر من البلاد الأندلسية، مما أدى إلى انحسار الوجود الأندلسي في رقعة صغيرة جنوبي الأندلس على شكل مملكة غرناطة، التي تسمى أيضاً مملكة بني الأحمر والدولة النصرية، وكانت قد تأسست على يد محمد بن يوسف بن الأحمر (629-671هـ / 1232-1274م)، واشتملت عند قيامها قبيل أواسط القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي على القسم الجنوبي من بلاد الأندلس، وتمتد فيما وراء نهر الوادي الكبير إلى الجنوب حتى شاطئ البحر المتوسط ومضيق جبل طارق، ويحدها من الشمال ولايات جيان وقرطبة⁽⁴⁾ وإشبيلية، ومن الشرق ولاية مرسية⁽¹⁾ وشاطئ البحر المتوسط

(1) Cruzada: ضريبة فرضتها البابوية على الدول المسيحية من أجل تقديم المساعدة للجيش الصليبية وتمويل نفقات الحرب ضد المسلمين، انظر: بشتاوي، الأمة، ص 104.

(2) النشار، دراسات، ص (11-12).

(3) قاسم، ماهية، ص 31.

(4) قرطبة: تقع جنوبي الأندلس على ضفة نهر الوادي الكبير، وهي على سفح الجبل المعروف عند المؤرخين العرب بجبل العروس، وطولها من غربها إلى شرقها ثلاثة أميال، وعرضها من باب القنطرة إلى باب اليهود ميل واحد، وتعدُّ قاعدة الأندلس وأم مدائننا ومستقر خلافة الأمويين، انظر: الحموي، ج 2، ص 800.

المتوسط الممتد منها إلى الجنوب، ومن الغرب ولاية قادس⁽²⁾ وأرض الفرنتيرة. وكانت تشتمل عندئذ على ثلاث ولايات كبيرة، وهي: ولاية غرناطة الواقعة في الوسط، والممتدة جنوباً حتى البحر، وأهم مدنها: العاصمة غرناطة، ووادي آش وبسطة⁽³⁾ وأشكر⁽⁴⁾ وحصن اللوز ولوشة والحامة⁽⁵⁾ والمنكب⁽⁶⁾ وشلوبانية⁽⁷⁾. وولاية المريية⁽⁸⁾ التي امتدت من ولاية مرسية حتى البحر، وأهم مدنها ثغر ألمرية والمنصورة وبرشانة⁽⁹⁾ وبرجة ودلاية وأندرش، وأخيراً ولاية مالقة⁽¹⁰⁾، وهي تقع على البحر غربي غرناطة، وأهم مدنها ثغر مالقة، وبلش مالقة وطرش وقمارش وأرشدونة⁽¹¹⁾ وأنتقيرة⁽¹⁾ ورندة⁽²⁾ ومربلة⁽³⁾. ويلحق بها منطقة جبل طارق والجزيرة الخضراء الخضراء وطريف⁽⁴⁾.

(1) مرسية: تقع في جنوب شرق الأندلس على أربعة وستين كيلو متراً عن البحر المتوسط، وقد بنيت على نهر شقورة وبها جامع جليل، وحمامات وأسواق عامرة، ويكثر بها شجر التين، انظر: الحميري، ص 539؛ انظر أيضاً: حتاملة، موسوعة، ج 2، ص 1037.

(2) قادس: مدينة حسنة الموضع بالقرب من وادي آش، بينها وبين جيان ثلاث مراحل، انظر: الحميري، الروض، ص 448.

(3) بسطة: مدينة تقع جنوبي الأندلس قريبة من جيان ومن وادي آش، انظر: الحميري، الروض، ص 422.

(4) أشكر: بلدة صغيرة تقع إلى الشمال من بسطة، وتعد من حصونها، وكانت تتبع ولاية غرناطة، وهي إلى الشمال الشرقي منها، انظر: حتاملة، موسوعة، ج 1، ص 93.

(5) الحامة: بلدة صغيرة إلى الشمال من المريية قرب بجانة، وتُعد من أعمال مالقة، وتقع على رأس جبل، وتبعد عن غرناطة أربعين كيلو متراً إلى الجنوب الغربي منها، انظر: حتاملة، موسوعة، ج 1، ص 419.

(6) المنكب: مدينة لها مرفأً ساحلي على المتوسط، تقع ما بين المريية ومالقة، وتُعد من أعمال غرناطة، انظر: حتاملة، موسوعة، ج 2، ص 1064.

(7) شلوبانية: حصن يقع جنوبي الأندلس على شاطئ البحر الأبيض المتوسط تابع لكورة البيرة، بينه وبين المنكب عدة أميال. انظر: الحموي، ج 3، ص 36.

(8) المريية: مدينة في أقصى جنوب شرق الأندلس، وهي من أشهر مراسي الأندلس وأعرها، انظر: الحموي، ج 5، ص 119.

(9) برشانة: حصن يقع على نهرين مجتمعين ومن أمنع الحصون وأوتقها بنياناً، انظر: الحميري، صفة، ص 42.

(10) مالقة: مدينة ساحلية جنوبية حسنة عامرة بينها وبين أرشدونة ثمانية وعشرون ميلاً، ومرساها من المراسي الرئيسية في الأندلس، انظر: الحميري، صفة، ص (178-180).

(11) أرشدونة: مدينة تقع جنوبي الأندلس قريبة من قرطبة، وهي تشكل قاعدة لكورة رية، بينها وبين مالقة ثمانية وعشرون ميلاً، انظر: الحميري، صفة، ص 25.

وعُدَّ السلطان أبو الحجاج يوسف من أشهر سلاطين هذه المملكة في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي⁽⁵⁾. وكانت الأراضي الإسلامية قد تعرضت خلال عهدة للعديد من الغزوات المسيحية، فأرسل إلى السلطان المريني أبي الحسن علي يطلب منه العون لاستعادة جبل طارق، الذي كان الإسبان قد سيطروا عليه عام 710هـ/1310م⁽⁶⁾. فلبى المرينيون النداء، وتمخض عن ذلك اندلاع العديد من الحروب بين القوات الأندلسية والمرينية من جهة، والإسبان من جهة أخرى، كمعركتي طريف والجزيرة الخضراء سالفتي الذكر، وأعقب هذه الفترة العصبية فترة هدوء، وبخاصة بعد وفاة ملك قشتالة الفونسو الحادي عشر عام 751هـ/1350م، فانصرف خلالها السلطان الغرناطي إلى تنظيم أمور مملكته⁽⁷⁾، إلى أن توفي مقتولاً عام 755هـ/1354م أثناء أدائه لصلاة العيد في جامع غرناطة⁽⁸⁾.

ولا يقل السلطان الغني بالله محمد الخامس بن أبي الحجاج يوسف (الولاية الأولى: 755-760هـ/1354-1359م) أهمية عن أبيه. وعلى الرغم من الأحداث الداخلية العاصفة التي شغلته؛ فقد شهد عهده حالة من الرخاء والازدهار⁽⁹⁾؛ وبخاصة بعد قيامه بمهادنة مملكة

(1) انتقيرة: مدينة تقع ما بين مالقة وغرناطة على بعد ستين كيلو متراً إلى الشمال من مالقة، اتخذها المرابطون موقعاً تحصنوا به وأخذوا يشنون الغارات على من ثار ضدهم، وفي عهد بني الأحمر أصبحت إحدى ولايات مدينة مالقة، انظر: حتاملة، موسوعة، ج1، ص(139-140).

(2) رندة: مدينة أندلسية تقع إلى الغرب من مالقة، وتعد من الحصون التي تحميها، أقيمت على ربوة عالية مما جعلها موقعاً استراتيجياً حصيناً، وأتاح لها الفرصة لتكون من أهم القواعد العسكرية الأندلسية، تكثر فيها المياه وتعرف بخصوبة أرضها وكثرة محاصيلها، حتاملة، موسوعة، ج1، ص454، 456، 463.

(3) مربلة: مدينة أندلسية صغيرة مسورة بالقرب من مرسى سهيل ومرسى مالقة، انظر: الحميري، صفة، ص180.

(4) عنان، دولة، ج4، ص55.

(5) ابن الخطيب، للمحة، ص89، الإحاطة، ج4، ص280؛ انظر أيضاً: فرحات، ص35.

(6) عنان، دولة، ج4، ص(126-127)؛ فرحات، ص36؛ خضير، ص92؛ العاني، ص40؛ انظر أيضاً: Conde, p.613

(7) ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص289؛ انظر أيضاً: Conde, p. 613.

(8) ابن الخطيب، للمحة، ص97، الإحاطة، ج4، ص291؛ المقري، نفح، ج5، ص81؛ انظر أيضاً: فرحات، ص36؛ حتاملة، الأندلس، ص582.

(9) ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص9؛ ابن خلدون، ج7، ص441.

قشتالة، علاوة عن انشغال الأخيرة في مشاكلها الداخلية وحروبها مع البرتغال، فأمنت مملكة غرناطة من شر عدوانها حيناً من الزمن⁽¹⁾.

أما على الصعيد الداخلي الغرناطي؛ فلم تمض سوى خمس سنوات على تولية الغني بالله الحكم حتى قامت ضده ثورة في 28 رمضان 760هـ/22 أغسطس 1359م⁽²⁾، حيث اقتحم الثائرون دار حاجبه أبي النعيم رضوان (ت. 760هـ/1359م) وقتلوه، ومن ثم قاموا بتتويج الأمير إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل (إسماعيل الثاني) فطلب الغني بالله من السلطان المريني المستعين بالله أبي سالم إبراهيم (760-762هـ/1359-1361م)⁽³⁾ اللجوء إلى بلاد المغرب، برفقة وزيره لسان الدين بن الخطيب، وبعد تلقيه موافقة السلطان المريني؛ ارتحل السلطان المخلوع ووزيره، فوصلا في محرم 761هـ/ديسمبر 1359م⁽⁴⁾.

ولم يتمكن سلطان غرناطة الجديد من الاستمرار في الحكم بسبب قيام صهره وزوج أخته الرئيس محمد بن عبد الله بن أبي الوليد (761-763هـ/1359-1361م) بالثورة عليه وقتله عام 761هـ/1359م⁽⁵⁾، وتولى حكم المملكة⁽⁶⁾. ولعل من أهم ما قام به؛ قطع الجزية التي كان يؤديها الغني بالله لبيدرو الثاني ملك قشتالة، وإحاقه الهزيمة بالجيش النصرانية، فبادر الملك القشتالي إلى دعوة الغني بالله لدخول الأندلس، وقدم له وعداً بمساعدته على استعادة عرشه⁽⁷⁾. فجاز البحر برفقة أنصاره وتمكن من السيطرة على عدد من المواقع الأمامية، فهرب الرئيس محمد صوب الأراضي القشتالية، غير أن ملكها قام بقتله، فخلا الجو للغني بالله، ودخل

(1) ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص9.

(2) ابن الخطيب، اللحة، ص101، الإحاطة، ج1، ص11؛ ابن خلدون، ج7، ص405؛ المقرئ، نفتح، ج5، ص84؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص140؛ فرحات، ص37؛ حتاملة، الأندلس، ص585.

(3) إبراهيم بن علي بن عثمان: أبو سالم، ولد عام 753هـ/1335م، كان جواداً كثير العطاء والحياء، وحاول إعادة هبة الدولة المرينية إلا أن كثرة المنافسين على العرش لم تمكنه من ذلك؛ فاستيحت الأموال وتضاعفت الجبايات وكثرت المظالم، انظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص308؛ ابن القنفذ، ص184؛ الناصري، ج4، ص32.

(4) ابن الخطيب، اللحة، ص109؛ ابن خلدون، ج7، ص406؛ المقرئ، نفتح، ج5، ص85؛ الناصري، ج4، ص(8-9).

(5) ابن الخطيب، اللحة، ص(114-117)، نفاضة، ص(113-115)، الإحاطة، ج1، ص(216-217)؛ انظر أيضاً:

Conde, p. 613.

(6) ابن الخطيب، نفاضة، ص183؛ انظر أيضاً: Conde, p. 616.

(7) ابن الخطيب، أعمال، ج2، ص267؛ عنان، دولة، ج4، ص141؛ فرحات، ص41.

غرناطة وتلقاه الناس مستبشرين، فعاد بذلك إلى ملكه عام 763هـ/1361م معلناً بداية ولايته الثانية⁽¹⁾. ولكن الغني بالله ما لبث أن تحلل من التزاماته تجاه قشتاله وأخذ يناصر الملك البرتغالي فرناندو الأول (Fernando I) (768-785هـ/1367-1383م)⁽²⁾، ألد أعداء القشتاليين، بهدف إضعاف قشتالة، وأتبع ذلك بعمليات عسكرية مشتركة ضدها⁽³⁾.

أما فيما يخص الوزارة؛ فقد أعاد الغني بالله لسان الدين بن الخطيب إلى منصبه من جديد، ومنحه صلاحيات مطلقة، ولكن السعيات والوشايات ما لبثت أن كثرت ضده، فشرع ابن الخطيب أن شيئاً ما يحاك ضده فغادر إلى العدة المغربية واستقر في فاس، إلا أن السلطان الغني بالله لم يهدأ، وأصر على ملاحقته وبخاصة بعد ما بلغه عن قيامه بإغراء المرينيين على تملك الأندلس، إلا أنهم رفضوا تسليمه، حتى قام الغني بالله بقلب نظام الحكم في المغرب الأقصى لصالح الأمير أبي العباس أحمد بن أبي سالم (776-786هـ/1374-1384م) (-796 789هـ/1387-1393م)، فقام الأخير بإلقاء القبض على ابن الخطيب وقتله في محرم 776هـ/يونيو 1374م⁽⁴⁾، فكان ذلك من الأخطاء الجسيمة التي ارتكبها الغني بالله بحق دولته، التي كان ابن الخطيب يشكل أحد أهم دعائم مؤسستها الحاكمة. ولعل من أهم أخطائه الأخرى؛ إقدامه عام 783هـ/1381م على إلغاء رسم مشيخة الغزاة⁽⁵⁾ في الأندلس⁽⁶⁾.

(1) للاطلاع على التفاصيل؛ انظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص13، للمحة، ص11، نفاضة، ص(36-38)، 40، 285، 287؛ ابن خلدون، ج7، ص498؛ المقرئ، نفتح، ج5، ص(29-30)؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص141؛ فرحات، ص585؛ p. 618. Conde.

(2) فرناندو الأول: شهدت البرتغال في عهده فترة من الاستقرار بفضل جهوده في تطوير البنية التحتية الاقتصادية وتنشيط الحركة التجارية، ثم ما لبثت أن بدأت في عهده الحرب مع قشتالة واستمرت ثلاثين عاماً، انظر: اليوسف، ص92. (3) العبادي، ص446.

(4) للاطلاع على التفاصيل؛ انظر: ابن خلدون، ج7، ص(444-445)، 448؛ المقرئ، نفتح، ج5، ص(102-103)، 105، انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص145.

(5) مشيخة الغزاة: قوات عسكرية مغربية من المتطوعين المغاربة، أقامها المرينيون في الجنوب الأندلسي في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، كلفت بمهام الجهاد ومساعدة الأندلسيين في صد الهجمات الإسبانية، واستمرت تحت قيادة بني عبد الحق لما يقرب القرن، وانتهى أمرها بشكل فعلي في العام 783هـ/1381م، انظر: ابن الخطيب الإحاطة، ج2، ص(16-17)؛ ابن خلدون، ج7، ص502.

(6) ابن خلدون، ج7، ص502.

وبعد وفاة الغني بالله عام 793هـ/1391م تولى عرش غرناطة - حتى مطلع القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي - اثنان من السلاطين، وهما: أبناه يوسف (793-794هـ/1391-1392م) ومحمد السادس بن يوسف الثالث (795-810هـ/1393-1408م)، وتميز عهداهما بالانحلال والانشغال بالملذات، واستيلاء الحجاب على مقاليد الأمور، والظلم، والتحالف مع المسيحيين الإسبان⁽¹⁾.

هكذا بدت أحوال مملكة غرناطة خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، ما يعكس الجو السياسي الداخلي العاصف الذي كانت تعيشه البلاد، وعلى الرغم من الأوضاع السيئة التي سادت الحياة الداخلية الإسبانية في شبه الجزيرة الأيبيرية خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، فإن مملكتي قشتالة وأراجون لم تتوقفا عن الاستمرار في ممارسة سياسة الاسترداد ضد الأندلسيين، ولكن بوتيرة منخفضة نظراً لانشغال المسيحيين والأندلسيين على حد سواء بأوضاعهم الداخلية.

⁽¹⁾ شرف الدين، ص 727.

الفصل الثاني

الحروب الصليبية ضد بلاد المغرب الإسلامي (792-875هـ/1390-1471م)

- حملة لويس الثاني دي بوريون على المهديّة عام 792هـ/1390م
- أسباب السياسة الصليبية البرتغالية تجاه بلاد المغرب ودوافعها
- السيطرة البرتغالية على مدينة سبتة عام 818هـ/1415م
- فشل الحملة البرتغالية ضد مدينة طنجة عام 840هـ/1437م
- السيطرة البرتغالية على مدينة القصر الصغير ومينائها عام 862هـ/
1458م
- السيطرة البرتغالية على طنجة وأصيلا وأنفا وأسفى وأزمور
(867-891هـ/1463-1486م)

الفصل الثاني

الحروب الصليبية ضد بلاد المغرب الإسلامي (792-875هـ/1390-1471م)

حملة لويس الثاني دي بوربون على المهديّة عام 792هـ/1390م

تمكنت فرنسا خلال عهد الملك شارل الخامس (Charles V) (763-782هـ/1362-1380م)⁽¹⁾ من استعادة عافيتها بعد نشوء حركة من النمو والازدهار استمرت حتى عهد ابنه شارل السادس (Charles VI) (782-828هـ/1380-1425م)⁽²⁾، ما شجع الفرنسيين على خوض الحروب الخارجية، وبخاصة بعد توقيع معاهدة بريتانى (Bretigny) عام 761هـ/1360م مع إنجلترا، وإنهائها المرحلة الأولى من مراحل حرب المائة عام، أضف إلى هذا وجود حكومة قوية استطاعت أن تضع حداً للثورات الداخلية، والتفرغ للسياسة الخارجية التي مثلت فيها رأس حربه للحركة الصليبية الهادفة إلى وضع حد للمسلمين ومحاولاتهم المستمرة للسيطرة على القسطنطينية وإرهاب بلاد المجر، ووضع حد لمراكبهم التي تجوب البحار وتهاجم الشواطئ الفرنسية، وتعرقل التجارة الدولية⁽³⁾.

ومن ناحية أخرى؛ شكل النجاح الذي حققته جنوة وحلفاؤها في كل من طرابلس وجربة حافظاً لمواصله الهجمات ضد مواقع أخرى في بلاد المغرب، بهدف الحصول على مكاسب دائمة، خاصة أن الغزوات البحرية الإسلامية لم تتوقف، مما شكل سبباً كافياً لمواصله العمل ضد المسلمين⁽⁴⁾، ولهذا أخذت جنوة تبحث عن قوة أوروبية لتتحمل معها أعباء هذا التوجه، فوجدت ضالتها في فرنسا، ومما شجعها على ذلك العلاقات التجارية الجيدة التي كانت تربطها مع المدن

(1) شارل الخامس: الملقب بالحكيم، شرع فور استلامه العرش على إجراء إصلاحات في قوانين البلاد وتعزيز قواتها البحرية والبرية، والتصدي للقوات الانجليزية بعد اكتساحها الأراضي الفرنسية، انظر: البستاني، ج10، ص378.

(2) شارل السادس: الملقب بالأحمق والمحبوب، تولى العرش وكان صبيّاً لم يبلغ الحادية عشرة من عمره، فتحكم أعمامه في البلاد، فظلموا واستبدوا، فاضطربت أحوالها حتى تمكن شارل من تولي الحكم في العام 781هـ/1388م، إلا أن ذلك لم يمنع أخاه دوق أربليان عام 804هـ/1402م من الثورة محاولاً السيطرة على العرش ما تسبب باندلاع حرب أهلية؛ انظر: البستاني، ج10، ص(378-379).

(3) عاشور، الحركة، ج2، ص1241؛ حسين؛ مصطفى، ص529، (532-533).

(4) برنشفيك، ج1، ص230.

الساحلية الفرنسية، والمشاركة الجنوبية الفعالة في القتال إلى جانب فرنسا في حربها ضد إنجلترا في حرب المائة عام⁽¹⁾. وفي ذي الحجة من العام 791هـ/كانون الأول 1389م توجه وفد من الجنوبيين إلى تولوز⁽²⁾ من أجل لقاء الملك شارل السادس، وقام بعرض مشروع لتجريد حملة ضد مدينة المهديّة⁽³⁾، ووعد الوفد الجنوبي بتقديم السفن اللازمة والمواد التموينية، بالإضافة إلى اثني عشر ألفاً من الرماة⁽⁴⁾.

وعلى ما يبدو؛ فإن الاختيار قد وقع على مدينة المهديّة لتكون الهدف المنشود لهذه الحملة يعود للشهرة الواسعة التي تتمتع بها في مدن جنوب أوروبا، مما كان من شأنه المساعدة في جذب العديد من الجند للانضمام إلى قوات الحملة، وبالتالي توفير ما يكفي من الطاقات البشرية القادرة على إنجاز هذه المهمة، وتحويل المدينة إلى قاعدة انطلاق نحو المواقع والمدن الأخرى. أضف على ذلك الموقع الاستراتيجي للمدينة على الساحل الشرقي للبلاد التونسية، وأهميتها التجارية لكثرة أسواقها وفنادقها، واشتمالها على أحد أهم الموانئ على البحر الأبيض المتوسط، مما أهلها لنسج علاقات تجارية نشطة مع العديد من الموانئ والمدن المتوسطية. وأخيراً؛ فقد وقع الاختيار عليها لكونها إحدى أهم القواعد التي اتخذها مجاهدو البحر في الإغارة على الأساطيل التجارية الأوروبية في البحر المتوسط⁽⁵⁾. وكان النبلء من أكثر الأطراف الفرنسية حماسة للانخراط في هذه الحملة بدافع حب الشهرة والمغامرة، وسعياً لكسب الأموال والأراضي، ورغبة في تنصير المسلمين والدفاع عن المصالح التجارية والاقتصادية الفرنسية⁽⁶⁾.

الفرنسية⁽⁶⁾.

(1) حسين؛ مصطفى، ص(527-528).

(2) تولوز: مدينة فرنسية تقع على نهر الغارون، غنية بأثارها وبكنائسها وفنادقها ومتاحفها، انظر: الخوند، ج13، ص409.

(3) برنشفيك، ج1، ص230؛ حسين؛ مصطفى، ص513.

(4) عاشور، الحركة، ج2، ص1242؛ حسين؛ مصطفى، ص531.

(5) عاشور، الحركة، ج2، ص(1241-1242)؛ حسين؛ مصطفى، ص(533-534)، 552.

(6) برنشفيك، ج1، ص232؛ عاشور، الحركة، ج2، ص1243.

ومن الواضح أن الملك الفرنسي نفسه لم يكن على درجة كبيرة من الحماس للمشاركة في هذه الحملة، ولذلك كان حريصاً على تحديد عدد الفرسان الفرنسيين المشاركين بألف وخمسمائة، واشترط على كل فارس أو نبيل يرغب في المشاركة أن يتحمل مسؤولية تجهيز نفسه على نفقته الخاصة، كما طلب من النبلاء عدم إحضار محاربين من خارج إقطاعاتهم، وتم استثناء الشبان دون سن الرشد من المشاركة⁽¹⁾.

وفي محرم 792هـ/ أواخر كانون الثاني 1390م بدأت الاستعدادات للحملة تجري على قدم وساق، ووضع الملك الفرنسي على رأسها خاله الدون لويس دي بوربون، البالغ من العمر خمسين عاماً، لكونه أكثر القادة إخلاصاً للملك، وأكثرهم مهارة في قيادة الجيوش وأشدهم صليبيةً، ونظراً لأنه من كبار أعضاء البيت الملكي؛ فإن ذلك سيسهم في فرض مزيدٍ من الانضباط العسكري لدى القادة الميدانيين والجنود على حد سواء. ومن أجل توفير الأموال اللازمة للحملة؛ دفع الملك الفرنسي عشرين ألفاً وستمائة وثلاثين فرنكاً ذهبياً، وثلاثة عشر ألفاً وخمسمائة وثلاثين فرنكاً من شقيقه دوق تورين، وبادر قائدها لبيع قصره، واقتراض عشرين ألف فلورين⁽²⁾. أما جنوة فقد وقع على عاتقها توفير الأسطول اللازم لنقل الجند وتزويد الحملة بالمواد التموينية اللازمة وبخاصة القمح والخمور⁽³⁾، وكلف دوق بوربون أحد مساعديه مهمة التنسيق معها لتذليل أية عقبة قد تؤدي إلى تأجيل الحملة، ولضمان التزام الجنوبيين بتعهداتهم⁽⁴⁾.

وفي الأول من رجب 792هـ/تموز 1390م غادر الدوق لويس دي بوربون ميناء مرسيليا، الواقع جنوب شرق فرنسا، قاصداً ميناء جنوة للاتحاق بقطع الأسطول، وكان هذا الميناء قد اختير ليكون مكاناً لتجمع قوات الحملة، التي انضم إليها أيضاً متطوعة من إنجلترا

(1) حسين؛ مصطفى، ص 534؛ عاشور، الحركة، ج 2، ص 1243.

(2) حسين؛ مصطفى، ص (540-541)، ص 544؛ عاشور، الحركة، ج 2، ص 1243؛ برنشفيك، ج 1، ص 230. فلورين أو فلوران: عملة إيطالية ضربت في الفترة الواقعة ما بين (1252-1533م)، واستخدمت في المبادلات التجارية، انظر: بيرنجيه، ج 2، ص 22.

(3) برنشفيك، ج 1، ص 231؛ حسين؛ مصطفى، ص 545.

(4) حسين؛ مصطفى، ص 545.

وأرغون، ومكث المشاركون بضعة أيام على متن الأسطول الجنوبي، حيث منعهم دوق بوربون من النزول، إلى بر ميناء جنوة خشية من حدوث بلبلة أو اضطراب، وتلافياً لضياع الوقت⁽¹⁾.

وبعد أن حظيت الحملة بمباركة المؤسسة البابوية، غادر الأسطول الصليبي ميناء جنوة في أوائل يوليو، وتكوّن من ثمانين إلى مائة قطعة حربية⁽²⁾، وقيل من مائة وعشرين شانية⁽³⁾، بالإضافة إلى ثلاثمائة قطعة مختلفة الأنواع والأحجام خصصت للنقل⁽⁴⁾. وأما عدد المقاتلة من الفرسان والنبلاء والمشاة والبحارة فبلغ خمسة وعشرين ألفاً، وبعد إبحار شاق تعرض خلاله الأسطول لرياح عاتية؛ وصلت قوات الحملة إلى جزيرة كونغليرا الواقعة في شمال شرق المنستير وشمال غرب المهديّة، لتلقي المزيد من الدعم البشري والمادي، وبعد ذلك أبحر الأسطول نحو المهديّة، واضطر لقضاء تسعة أيام قبالتها؛ انتظراً لتجمع السفن وإعداد الخطط العسكرية، وبحث كيفية النزول على سواحل المهديّة⁽⁵⁾، التي وصلوها يوم الثلاثاء 5 شعبان 792هـ/21 تموز 1390م⁽⁶⁾. وساهم توقف الأسطول المسيحي قبالة سواحل المهديّة في إزالة عنصر المفاجأة عن هذه الحملة⁽⁷⁾، فعمل السلطان الحفصي أبو العباس أحمد الثاني على استنفار استنفار الجيوش في جميع أنحاء المملكة⁽⁸⁾، وأرسل ابنه أبا فارس عبد العزيز (796-837هـ/1394-1434م)⁽⁹⁾ على رأس جيش صوب المهديّة، من أجل ترميم تحصيناتها وشحنها وشحنها بالمقاتلين والأقوات، ومراقبة السواحل وإطلاعه على كل جديد⁽¹⁰⁾.

(1) عاشور، الحركة، ج2، ص1243؛ برنشفيك، ج1، ص231؛ حسين؛ مصطفى، ص(546-547).

(2) الترجمان، ص15؛ ابن أبي دينار، ص144؛ الزركشي، ص125؛ مقديش، ج1، ص587.

(3) الشانية أو القليلة: سفينة حربية ذات أشرعة ومجاديف طويلة، انظر: ابن أشنهو، ص104.

(4) مؤنس، تاريخ، ج2، ص263؛ حسين؛ مصطفى، ص(549-550).

(5) برنشفيك، ج1، ص(231-232)؛ حسين؛ مصطفى، ص549، 551.

(6) حسين؛ مصطفى، ص551.

(7) ابن خلدون، ج6، ص578؛ انظر أيضاً: عاشور، الحركة، ج2، ص1243؛ برنشفيك، ج1، ص232؛ حسين؛ مصطفى، ص554.

(8) ابن أبي دينار، ص133؛ الترجمان، ص14.

(9) أبو فارس عبد العزيز، المتوكل على الله: يُعد من أعظم سلاطين الدولة الحفصية، ساد الأمن والاستقرار في عهده بعد تمكنه من إخضاع الجنوب الشرقي والغربي، إلا أنه واجه خطر قيام أخيه أبي بكر (ت. 799هـ/1396م) بالتمرد في ولاية عنابة، انظر: ابن القنفذ، ص(190-192)، 197؛ الزركشي، ص126.

(10) ابن خلدون، ج6، ص578؛ انظر أيضاً: عاشور، الحركة، ج2، ص1243؛ حسين؛ مصطفى، ص554.

وقُدِّر عدد القوات الإسلامية التي قدمت للدفاع عن المهديّة بأربعين ألف مقاتل بقيادة أمراء تونس وتلمسان⁽¹⁾ وبجاية⁽²⁾ وعددٍ من أمراء الهلالية⁽³⁾، وتولى شقيق السلطان وحاجبه أبو يحيى زكريا قيادة هذه الجيوش⁽⁴⁾. وعلى الرغم من العدد الكبير الذي اشتملت عليه القوات الإسلامية؛ فإن قوات الحملة ما لبثت أن بدأت بالنزول على سواحل المدينة في صبيحة يوم الأربعاء 22 يوليو دون مقاومة تذكر، باستثناء بعض المناوشات، بعد قيام المجانيق الإسلامية باطلاق بعض القذائف انطلاقاً من البرج الكبير⁽⁵⁾.

وبعد أن اتخذت القوات المسيحية موقعاً لها في البر، أخذت باقي القوات بالنزول تحت حمايتها. ونظراً لضخامة عددها وقوة تسليحها؛ فقد اتبع المسلمون خطة من أجل الحفاظ على المدينة، ومحاولة إبقاء القوات المهاجمة خارجها أطول فترة ممكنة، وإجبارهم على الرحيل. على أي حال؛ بدأت هذه القوات بفرض حصار بحري وبري حول المدينة، مع بقاء أسطولها راسياً في عرض البحر للعمل على تزويد القوات بالمؤن والمعدات عبر القوارب الصغيرة، وبعد مرور عدة أيام حدثت المواجهة الأولى؛ حيث فتح المسلمون بوابة المدينة من الناحية البرية واندفعوا بقوة كبيرة نحو القوات المسيحية، إلا أن لويس دي بوربون، صاحب الحنكة العسكرية الكبيرة، قد احتاط لمثل هذه الأمور، حيث كان قد شكل فرقة مؤلفة من مائتي جندي وألف رام للحراسة، فتمكنت من صد المسلمين ومطاردتهم حتى بوابة المدينة، بعد معركة دامت أكثر من ساعتين وخلفت ثلاثمائة قتيل⁽⁶⁾.

وفي الوقت الذي كانت القوات الإسلامية بقيادة الأمير أبي فارس عبدالعزيز تقف على أهبة الاستعداد للدفاع عن المدينة، وصد أي هجوم مباغت ضد أسوارها؛ كان عمه أبو يحيى زكريا مرابطاً مع قواته على ربوة صغيرة قبالة المعسكر المسيحي، الأمر الذي بات يشكل

(1) عاشور، الحركة، ج2، ص1244؛ برنشفيك، ج1، ص232.

(2) حسين؛ مصطفى، ص544؛ عاشور، الحركة، ج2، ص1244.

(3) الزركشي، ص113؛ انظر أيضاً: حسين؛ مصطفى، ص544.

(4) ابن خلدون، ج6، ص579؛ الزركشي، ص11؛ انظر أيضاً: مقديش، ج1، ص587؛ برنشفيك، ج1، ص232.

(5) الزركشي، ص112؛ مقديش، ج1، ص587؛ انظر أيضاً: برنشفيك، ج1، ص232؛ حسين؛ مصطفى، ص566.

(6) حسين؛ مصطفى، ص(555-556)، ص558؛ برنشفيك، ج1، ص232.

خطراً كبيراً على القوات المسيحية، ما دفع قائد الحملة إلى إحاطة معسكره بسياج من القطع الخشبية والمجازيف المثبتة بالحبال، بناء على اقتراح الجنويين الذين كانوا على دراية بطرائق القتال الإسلامية⁽¹⁾. وخلال هذه المرحلة تجنب المسلمون الزج بكامل قواتهم في ميدان المعركة، واعتمدوا على أسلوب الكر والفر والهجمات المباغتة، مما أدى الى تكبد قوات العدو خسائر جسيمة⁽²⁾، وتثيبت عزائمها ومعنوياتها، وما زاد الطين بلة؛ الحرارة المرتفعة، وثقل تسليحهم، في الوقت الذي اعتمد فيه المسلمون على فرسانهم خفيفة الحركة، فضلاً عن خفة أسلحتهم، ومع تكرار الهجمات الإسلامية؛ لم تعد القوات المسيحية قادرة على مزيد من المواجهة أو التقليل من الخسائر⁽³⁾؛ فشن لويس دي بوربون، على رأس ألفي جندي، هجوماً ضد المعسكر الإسلامي وتمكن من اقتحامه وسلب محتوياته وإشعال النار فيه⁽⁴⁾.

وفوجئ المسلمون بهذا الهجوم، ولكنهم سرعان ما تماسكوا واستطاعوا ترتيب أمورهم، وشنوا هجوماً مضاداً، فحدثت معارك عنيفة بين الطرفين، وتكبد خلالها الفريقان خسائر فادحة، وانسحب كل فريق إلى معسكره، وكاد أبو العباس أثناء العودة يقع في الأسر⁽⁵⁾. واستمرت المناوشات بين الطرفين، ثم شن المسيحيون هجوماً كبيراً على المدينة من ناحية البر؛ باعتبارها أكثر النواحي ضعفاً، بناء على المعلومات الواردة من الجنويين المقيمين في المدينة⁽⁶⁾. واشتد القتال عند باب الفتوح، أحد أهم أبواب المدينة، واستخدم خلاله المهاجمون أبراجاً خشبية، تكون الواحد منها من ثلاث طبقات مشحونة بالمقاتلين المزودين بالسلالم. وما أن تحرك المهاجمون حتى أمطر المدافعون الأبراج بالحجارة والسهام والنفط المشتعل، فاحترقت قبل أن تصل إلى

(1) ابن خلدون، ج 6، ص 579؛ أنظر أيضاً: برنشفيك، ج 1، ص 232؛ حسين؛ مصطفى، ص 559.

(2) حسين؛ مصطفى، ص 560؛ برنشفيك، ج 1، ص (232-233)؛ عاشور، ج 2، ص 1244.

(3) حسين؛ مصطفى، ص (560-561).

(4) الزركشي، ص 112؛ مقديش، ج 1، ص 588؛ أنظر أيضاً: برنشفيك، ج 1، ص 233؛ حسين؛ مصطفى، ص (560-562).

(5) ابن خلدون، ج 6، ص 579؛ أنظر أيضاً: برنشفيك، ج 1، ص 233؛ حسين؛ مصطفى، ص (562-563).

(6) حسين؛ مصطفى، ص (546-545).

الأسوار، بيد أن المسيحيين استطاعوا بعد ضغط كبير كسر البوابة الرئيسية، واشتبكوا مع المسلمين، ولكن حصانة المدينة وبسالة المدافعين أفضلت الاقتحام⁽¹⁾.

واستطاع المسلمون بسرعة كبيرة إصلاح البوابة، وفي الوقت ذاته تحركت أربع سفن حملت على متنها عدداً كبيراً من المشاة والرماة، وبعد النزول إلى البر؛ تمكنوا من الوصول إلى سور المدينة، فاعتلاه جنديان منهم، إلا أن المسلمين استطاعوا قتلها وإلقاء جثتيهما صوب المهاجمين، واستبسلاوا في الدفاع عن مدينتهم، وفي الوقت نفسه هاجمت القوات المرابطة خارج المدينة المعسكر المسيحي، لتخفيف الضغط عن أسوار المدينة، مما أجبر القوات المهاجمة على التراجع، وبذلك يكون الهجوم قد مني بالفشل، إلا أن الطرفان تكبدا خسائر جسيمة⁽²⁾.

ويتضح مما ذكر أن قوات الحملة قد فشلت في اقتحام المدينة، على الرغم من المحاولات العديدة التي قامت بها، وفي الوقت ذاته أصيب أفرادها بالتعب والوهن خلال قتالهم في جو قائف مشبع بالرطوبة، وما زاد الأمور سوءاً عدم انتظام وصول المواد التموينية، مما ولد لديهم رغبة شديدة في الانسحاب والعودة إلى بلادهم، وكان الجنويون من أكثرهم حماسة لهذا الأمر؛ لأنهم كانوا الأكثر تضرراً من نتائج هذه الحملة، والأكثر إنفاقاً في تجهيزها، إذ لو تم استثمار جهود المقاتلة والأسطول في التجارة والنقل البري لدرّ عليهم مبالغ طائلة⁽³⁾، ولهذا سارعوا، في شهر محرم 792هـ/كانون الأول 1390م، إلى الدخول في مفاوضات منفردة مع الحفصيين⁽⁴⁾، فعدّ دوق بوربون ذلك غدراً وخيانة⁽⁵⁾، ما جعله هو الآخر مضطراً لعقد اتفاق صلح مماثل⁽⁶⁾.

(1) ابن خلدون، ج6، ص579؛ أنظر أيضاً: حسين؛ مصطفى، ص(546-545)، (565-566)؛ برنشفيك، ج1، ص233عاشور، الحركة، ج2، ص1244.

(2) حسين؛ مصطفى، ص566.

(3) المرجع نفسه، ص(571-572)؛ عاشور، الحركة، ج2، ص1245.

(4) مقديش، ج1، ص588؛ أنظر أيضاً: برنشفيك، ج1، ص233؛ عاشور، الحركة، ج2، ص1245.

(5) الزركشي، ص113؛ الترجمان، ص14.

(6) برنشفيك، ج1، ص233؛ حسين؛ مصطفى، ص573.

وتوصلت مختلف الأطراف إلى اتفاق ينص على انسحاب القوات المسيحية مقابل تعهد الحفصيين بعدم القيام بأي عمل عدائي ضد ممتلكات الدول المشاركة في الحملة براً وبحراً، وضمان حرية التجارة في المتوسط، وعدم التعرض للمسيحيين المقيمين في المدينة بشكل عادي، والتزم الحفصيون بدفع إتاوة سنوية قدرها خمسة وعشرون ألف دوقية⁽¹⁾ لجنوة والفرنجة، وشهد على هذا الاتفاق تجار قطلونية وسردينيا ونابلي المقيمون في المدينة. ووجد المسيحيون هذا الاتفاق نتيجة مرضية وتعويضاً كافياً عما بذلوه من مال وجهد، ووصل الأمر ببعضهم للاعتقاد أن ذلك بمثابة نصر يعادل السيطرة على المهديّة. وغادرت القوات المسيحية برّ المهديّة إلى جزيرة كونغليرا، ومن ثم كل فريق إلى بلده، وهكذا انتهت هذه الحملة بفشل ذريع؛ فلم تتمكن من السيطرة على المدينة أو تحطيم القوة الإسلاميّة، ولم تضع حداً للهجمات البحرية ضد الممتلكات المسيحية في البحر المتوسط⁽²⁾.

أسباب السياسة الصليبية البرتغالية تجاه بلاد المغرب ودوافعها

حظيت مملكة البرتغال بحدود ثابتة ضمن كيان مستقل منذ النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ، وذلك في عهد الملك البرتغالي الفونسو الأول (Alfonso I) (533-581هـ/1139-1185م)⁽³⁾. وحرص خلفاؤه على المحافظة على مملكتهم الوليدة، وعلى رأس هؤلاء الملك ديونيسوس الأول (Dionisio I) (678-725هـ/ 1279-1325م) الذي صبَّ جُلَّ جهوده في الحفاظ على الأمن والنهوض بالاقتصاد، وبخاصة التجارة، كما ارتبطت البرتغال في عهده بعلاقات جيدة مع جيرانها، إلا أن علاقاتها مع قشتاله سرعان ما تدهورت بعد ذلك؛ إذ اندلعت بين الطرفين حرب ضروس دامت أكثر من خمسة

(1) الدوقة أو الدوقية: عملة إيطالية تعادل متقالاً وكانت تزن 3 غرام و523 سنتغرام، انظر: السوزان، ج1، ص23 المترجمان.

(2) برنشفيك، ج1، ص(233-234)؛ حسين؛ مصطفى، ص(573-574)؛ عاشور، الحركة، ج2، ص1245 .

(3) Elliott, p. 43 . الفونسو الأول: أول من نبذ لقب كونت وأخذ لقب ملك، وقد بذل جهوداً كبيرة في تأسيس مملكة البرتغال، وأحرز انتصارات كبيرة ضد المسلمين في الجزيرة الإيبيرية، انظر: عاشور، أوروبا، ج1، ص570.

عشر عاماً، دافعت خلالها البرتغال عن استقلالها في وجه جارتها الكبيرة الطامعة في أراضيها⁽¹⁾.

وعُدَّ الملك البرتغالي فرناندو الأول من أهم الملوك الذين كان لهم دور في هذا الصراع، الذي لم يتوقف إلا بعد قيام البابا غريغوري الحادي عشر⁽²⁾ (Gregorius XI) (771-780هـ/1370-1378م) بعقد صلح بين الطرفين⁽³⁾. ثم ما لبثت البرتغال أن دخلت عهداً جديداً بصعود الملك جون الأول (John I) (787-836هـ/1385-1433م)، الذي سخر كل جهوده من أجل الحفاظ على استقلال كيانه السياسي والاقتصادي، وأبدى اهتماماً بالأسطول والملاحة البحرية، معتمداً على عدد كبير من الملاحين، ومن أبرزهم ابنه الأمير هنري الذي عرف باسم هنري الملاح (Henry the Navigator) (796-864هـ/1394-1460م)⁽⁴⁾، فشهدت البرتغال في عهد جون الأول حركة نشطة في التوسعات الخارجية والاكتشافات الجغرافية، في سواحل أفريقيا الغربية ولقواعد البحرية المطلة على منافذ البحار وطرق التجارة، فنال الملك أموالاً طائلة وشهرة واسعة⁽⁵⁾.

وعلى الرغم من فتور النزعة الصليبية لدى بعض الأوروبيين، وبخاصة بعد فشل المشروع الصليبي في بلاد الشرق الأدنى؛ فإن جذوة هذه النزعة بقيت متقدة لدى البرتغاليين، فعبروا البحار والمحيطات سعياً وراء السيطرة على أراضي الأمم الأخرى وأملكها⁽⁶⁾، بتوجيه ودعم مباشرين من الكنيسة الكاثوليكية، التي أخذت على عاتقها رسم سياسات الدول الأوروبية

(1) اليوسف، ص342؛ بشتاوي، الأندلسيون، ص92؛ انظر أيضاً: Elliott, p. 43.

(2) غريغوري الحادي عشر: ولد عام 730هـ/1330م، وهو آخر البابوات في مدينة أفينيون حيث تعود إليه أولى محاولات إعادة البابوية إلى روما، فحاول عام 779هـ/1377م السيطرة على الأوضاع السياسية في روما إلا أنه فشل، وعاد إلى أفينيون وتوفي فيها عام 780هـ/1378م، انظر: مجموعة من المؤلفين، البابوات، ص245.

(3) ارسلان، خلاصة، ص135.

(4) اليوسف، ص342؛ عاشور، أوروبا، ج1، ص570؛ انظر أيضاً: Howitt, p. 12.

هنري الملاح: أمير ورحال برتغالي، وهو الابن الثالث للملك خوان الأول (John I)، اهتم بشكل كبير بجمع المعلومات عن البلاد البحرية، ويعود له الفضل في تشجيع الملاحة والكشف الجغرافي، وتوجيه وقيادة الحملات البرتغالية انظر: Howitt, p. 12.

(5) عاشور، أوروبا، ج1، ص570؛ العبادي، ص460.

(6) الطيبي، ص85.

وفق ما يخدم مصالحها. ومما أسهم في زيادة النزعة الصليبية الأوروبية بشكل عام والبرتغالية الإسبانية على وجه الخصوص تجاه بلاد المغرب؛ فشل الأوروبيين في مقاومة الزحف العثماني ووقفه، وسعي البرتغاليين للسيطرة على موانئ بلاد المغرب واحتكار التجارة وعوائد الملاحة المتوسطة، مدعومين من جانب المؤسسة السياسية والدينية بروح مفعمة بروح الحماسة الديني⁽¹⁾. ولهذا فإنه من غير الممكن تجاهل الدوافع الدينية، وبخاصة في ظل العداء الذي كانت القوى الصليبية تضمه تجاه الإسلام وأهله⁽²⁾.

وكانت الإشارات الأولى للسياسة الصليبية البرتغالية تجاه بلاد المغرب قد ظهرت عام 741هـ/1341م، من خلال الدعوة التي وجهها البابا بندكت الثاني عشر (Benedictus XII) (734-743هـ/1334-1342م) للملك البرتغالي الفونسو الرابع (Alfonso IV) (725-758هـ/1325-1357م)، حيث طلب منه تجريد حملة ضد بلاد المغرب الأقصى، الذي كان حينذاك يخضع للحكم المريني، وظهرت آثار هذه الدعوة بشكل واضح في الربع الأخير من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي⁽³⁾. ومن ناحيتها؛ فقد لعبت الكنيسة البرتغالية دوراً كبيراً في إثارة النزعة الصليبية ضد المسلمين، ومنحت الأمير هنري الملاح منصب الأستاذ الأعظم لجماعة المسيح التي تأسست عام 719هـ/1319م، واستقرت في البرتغال بعد حل بعض الجماعات الدينية المسيحية، فاستغل الأمير إيراداتها من أجل تنفيذ مشاريعه الصليبية الهادفة إلى السيطرة على سواحل إفريقيا الشمالية ونشر الكاثوليكية "تقرباً إلى الرب"⁽⁴⁾. ووصل التعصب البرتغالي لدرجة أن الشباب البرتغالي كانوا على قناعة بضرورة ملاحقة الأندلسيين المهاجرين إلى بلاد المغرب، حتى لا ينعموا هناك بالأمن والسلام⁽⁵⁾.

ومما أوج النزعة الدينية الأوروبية؛ النشاط الدعائي والتحريري المحموم الذي مارسته البابوية منذ فتح القسطنطينية عام 857هـ/1453م على يد العثمانيين، الذين أصبحوا حسب

(1) العروي، ص(433-434).

(2) مؤنس، رحلة، ص313.

(3) الفكيكي، ص152.

(4) الجمل، المغرب، ص43؛ البرتغاليون، ص27؛ هريدي، ص46، 64؛ رياض، ص19.

(5) الجمل، المغرب، ص44.

وجهة نظرها بمثابة حاجز يقف في وجه مبشري أوروبا للوصول إلى العالم الإسلامي⁽¹⁾، فضلاً عن الخطر الإسلامي الذي بات يهدد شرق أوروبا، وخاصة بعد الانتصار الكبير في معركة نيقوبولس (Nicopolis)⁽²⁾ عام 796هـ/1396م⁽³⁾. وفي خضم هذه الأجواء التي اتسمت بالتعصب والعداء تجاه المسلمين؛ أفصح البابا نيقولا الخامس (Niccolo V) (851-859هـ/1447-1455م) عن خطة الهند، وظهر ذلك من خلال رسائله للأمير هنري الملاح، وهي خطة تهدف إلى استغلال مقدرات بلاد الحبشة، واستثمار أهميتها الدينية للمسيحيين من أجل الالتفاف على بلاد المسلمين والسيطرة عليها، ومن ثم الوصول إلى الهند⁽⁴⁾.

وليس هذا فحسب؛ بل عملت البابوية على إصدار عشرات المراسيم الخاصة بحروب البرتغال ضد المغرب؛ خوفاً من قيام العثمانيين بالسيطرة على حوض البحر المتوسط الشرقي وجنوب أوروبا⁽⁵⁾. وللحيلولة دون نشوب أي خلاف بين البرتغاليين والإسبان؛ عملت البابوية على تقسيم مناطق نفوذهما⁽⁶⁾، وبخاصة في إفريقيا؛ فوُقتت المناطق الواقعة إلى الشرق من باديس⁽⁷⁾ ضمن حصة الإسبان، أما المناطق الواقعة إلى الغرب منها؛ فمن نصيب البرتغاليين⁽⁸⁾، البرتغاليين⁽⁸⁾، ووعدت المؤسسة البابوية المستكشفين من كلا الطرفين بالمغفرة والغفران، وبخاصة إذا ما قاموا بالسيطرة على الأراضي الإسلامية، وعملوا على الحد من انتشار الإسلام الذي شبهته البابوية بالطاعون⁽⁹⁾.

(1) أرنتست، ص 26.

(2) معركة نيقوبولس: وقعت في العام 789هـ/1396م بين القوات الصليبية البلغارية والويلزية والفرنسية بمساندة البندقية وبين القوات العثمانية وانتهت بهزيمة قوات التحالف وأسر كثير من أشرف أوروبا، انظر: المحامي، ص 144.

(3) الجمل، تاريخ، ص 86.

(4) فيشر، ص 79؛ الطيبي، ص 85، 99؛ المدني، ص 29؛ بانيكار، ص (27-28).

(5) بوشرب، ص 149.

(6) Howitt , p. 19.

(7) مدينة باديس: مدينة تقع على ساحل البحر المتوسط شمال بلاد المغرب الأقصى، ينتسب سكانها إلى جبال غمارة، ويحيط بها جبلان شاهقان يخترقهما نهر صغير يطلق عليه اسم تلميادس، وتبعد عن مالقة في جنوب الأندلس أربعين فرسخاً، انظر: الوزان، ج 1، ص (325-326).

(8) العقاد، ص (14-15).

(9) الشناوي، أوروبا، ص 90.

وشكل الدافع الاقتصادي، أحد أهم الدوافع الصليبية الأوروبية تجاه بلاد المغرب؛ لمواجهة النفوذ التجاري الإسلامي، وبخاصة بعد فتح القسطنطينية، وما تمخض عنه من نتائج؛ كان أهمها السيطرة العثمانية على طرق التجارة الدولية. فعقد الأوروبيون بشكل عام والبرتغاليون بشكل خاص العزم على إلغاء دور البحر المتوسط من المعادلة التجارية والاقتصادية الدولية، وحرمان العثمانيين من الاستفادة من هذا الدور، وذلك من خلال البدء بحركة الاكتشافات الجغرافية، والالتفاف حول العالم الإسلامي عبر الأطلسي، وصولاً إلى جنوب إفريقيا، ومن ثم إلى الهند، ومن أجل خدمة هذا الغرض؛ سعى البرتغاليون إلى إيجاد مراكز لهم على طول السواحل الإفريقية الشمالية والشمالية الغربية لأهداف استعمارية وتجارية⁽¹⁾.

وكانت البرتغال قد وجدت نفسها مضطرة لخوض غمار الحركة الاستعمارية؛ نظراً للظروف الاقتصادية الصعبة التي خلفتها حروبها مع مملكة قشتالة طوال الفترة الممتدة من (759-838هـ/1358-1435م، والتي كان من أهم مظاهرها؛ تقهقر الحركة التجارية وشح الموارد وعجز الموازنة، فتحول عدد كبير من السكان في المناطق الداخلية والجبلية إلى مزارعين، يعيشون تحت وطأة الفقر المدقع، وأما أهالي السواحل فكانوا يعتاشون من الصيد واستخراج الملح⁽²⁾. ولعل من أهم الأهداف التي توختها البرتغال من وراء سياستها الاستعمارية؛ الاستعمارية؛ الحصول على المنسوجات الاستوائية والشرقية، دون الحاجة للوسيط العربي، وكانت هذه المنسوجات معروفة لدى الأوروبيين منذ حقبة الحروب الصليبية في الشرق⁽³⁾، فضلاً عن حاجتها للذهب الإفريقي، لاستخدامه في سك العملة. وكانت هذه المادة قد شحت في أوروبا، وبخاصة في البرتغال، منذ منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، مما أدى إلى توقف سك العملة الذهبية، فخرج البرتغاليون يبحثون عن مصادر لسد العجز، وإيجاد سند لعملتهم المتدهورة⁽⁴⁾. وقد دخلت تجارة الرقيق في السياق نفسه؛ حيث سعت البرتغال إلى استغلال إمكانات البلاد الإفريقية الغنية بهذه "السلعة"، فضلاً عن سعيهم لتوظيف المدن والموانئ

(1) يحيى، ج3، ص(11-12)؛ الجمل، البرتغاليون، ص25؛ انظر أيضاً: Elliott, p. 46.

(2) الجمل، تاريخ، ص(79-80).

(3) الرمال، ص26؛ انظر أيضاً: Elliott, p. 56.

(4) بوشرب، ص(154-155)؛ انظر أيضاً: Elliott, p. 57.

الإفريقية في ضمان تدفق التوابل والقرنفل والفلفل والبخور من بلاد الشرق الأقصى إلى أوروبا دون المرور بالبلاد الإسلامية⁽¹⁾.

وشكلت مميزات الموقع الجغرافي للبرتغال حافزاً مشجعاً على خوض غمار الحركة الاستعمارية، نظراً لامتداد سواحلها على مساحات كبيرة بمحاذاة المحيط الأطلسي، وانفتاحها على البحر المتوسط من خلال مضيق جبل طارق، ما منح عاصمتها لشبونة⁽²⁾ أهمية استراتيجية وتجارية كبيرة، وهذا ما جعل ملوكها يهتمون بالأساطيل البحرية ويشجعون التجارة، فشهدت الموانئ البرتغالية نشاطاً كبيراً على هذا الصعيد، فضلاً عن استثمار البرتغاليين لموقع بلادهم بهدف إنجاز أعمال الكشف الجغرافي والسيطرة على بلاد ما وراء البحار⁽³⁾. وحرصاً منهم على ضمان تحقيق ذلك؛ فقد استقدموا العديد من رجال البحر ورأسمي الخرائط الجغرافية من ميورقة، إحدى الجزائر الشرقية، ومن صقلية، من أجل تعليم البرتغاليين طرق الملاحة الحديثة، إضافةً إلى عدد من الصُّناع المهرة، فنجحوا في تطوير صناعة السفن، التي زُوِّدت بأدوات ملاحية جديدة، مثل: البوصلة⁽⁴⁾ التي أُدخل عليها بعض التعديلات كإضافة مؤشر لتحديد اتجاه الرياح، والإبرة المغناطيسية⁽⁵⁾؛ الأمر الذي ساهم في تقدم تقنيات الملاحة البرتغالية⁽⁶⁾.

ومن ناحية أخرى؛ انساق الملوك البرتغاليون وراء رغبات الأمراء والنبلاء والفرسان الذين رغبوا في المحافظة على الروح العسكرية التي بدأت بالفتور بعد إبرام الصلح مع مملكة

(1) متولي؛ الشيخ، ص58؛ الشناوي، أوروبا، ص84؛ فهمي، ص199؛ الجمل، المغرب، ص43؛ هاو، ص45؛ بوشرب، ص156.

(2) لشبونة: عاصمة البرتغال، تقع غربيها على الأطلسي، عند مصب نهر تاجو، وهي مدينة ذات طبيعة جبلية، انظر: مجموعة مؤلفين، الموسوعة العربية العالمية، ج21، ص(112-113).

(3) الجمل، البرتغاليون، ص(164-165)؛ كريم، ص5؛ بانكار، ص24.

(4) البوصلة: أداة لتحديد الاتجاه، وأبسط شكل للبوصلة يتكون من إبرة ممغنطة مثبتة على محور لكي تدور بحرية، وتشير الإبرة إلى اتجاه القطب الشمالي المغناطيسي للأرض، ويوجد تحتها قرص مستدير رسمت عليه نقاط ودرجات على مسافات منتظمة ليشير إلى الاتجاه، انظر: مجموعة مؤلفين، الموسوعة العربية العالمية، ج5، ص282.

(5) الإبرة المغناطيسية: هي جهاز يستخدم لتحديد الاتجاهات المغناطيسية، وهي مصنوعة من مؤشرات ونقطة تصويب تشبه إلى حد بعيد نقطة التصويب في البندقية، كما أنّ هذه الإبرة جزء أساسي في بوصلة المساحة، انظر: مجموعة مؤلفين، الموسوعة العربية العالمية، ج5، ص284.

(6) رياض، ص21؛ هريدي، ص46؛ الجمل، المغرب، ص44؛ يحيى، ج3، ص9؛ انظر أيضاً: Bishko, III, p. 13

قشتالة عام 817هـ/1411م. فلا عجب إن علمنا -إذاً- أن السيطرة البرتغالية على مدينة سبتة المغربية في العام 818هـ/1415م كانت بضغط من هؤلاء⁽¹⁾. ولعل من أهم الدوافع الأخرى التي جعلت كلاً من البرتغاليين والإسبان يضعون بلاد المغرب ضمن دائرة استهدافهم؛ حركة الجهاد البحري الإسلامي في البحر المتوسط، انطلاقاً من موانئ المدن الإسلامية المنتشرة على طول سواحل إفريقيا الشمالية، كميناء تونس، وبنزرت⁽²⁾، ووهران، وسلا. وازدادت هذه الحركة نشاطاً بعد تزايد أعداد المهاجرين الأندلسيين إلى بلاد المغرب، انتقاماً من مسيحيي شبه الجزيرة الإيبيرية الذي نكّلوا بهم واستولوا على مدنها وطردوهم من بلادهم، ووسم الأوروبيون هذه العمليات التي قام بها هؤلاء بالقرصنة، ولهذا وجد البرتغاليون والإسبان في السيطرة على سواحل بلاد المغرب وسيلة للقضاء على هذه الحركة⁽³⁾.

السيطرة البرتغالية على مدينة سبتة عام 818هـ/1415م

عُدَّت مدينة سبتة الواقعة في أقصى شمال بلاد المغرب الأقصى من أهم المدن الواقعة على سواحل البحر المتوسط، ومما زاد من أهميتها؛ إشرافها المباشر على مضيق جبل طارق، الذي يفصل كلاً من إفريقيا عن شبه الجزيرة الإيبيرية، والحوض الغربي للمتوسط عن المحيط الأطلسي. وكان أهلها قد أنشأوا دوراً لصناعة والمراكب، وركبوا البحر منذ أقدم العصور، ما مكنهم من التحكم في كثير من الأحيان بحركة الملاحة الدولية وخطوط التجارة في تلك المنطقة. كل ذلك حول المدينة وميناءها إلى مركز تجاري مزدهر عامر بالسفن التجارية والحربية على حد سواء، وانتشرت في أحيائها الأسواق، والفنادق التي بلغ عددها ثلاثمائة؛ استخدمت لإيواء المسافرين والتجار وتخزين الحبوب وسائر المواد التجارية. ومن ناحية أخرى؛ اتخذ التجار من هذه المدينة قاعدة انطلاق نحو بلاد غانا والسودان الغربي⁽⁴⁾. ومما أسهم -أيضاً- في ازدهار

(1) بوشرب، ص(157-158)؛ انظر أيضاً: Elliott, p. 43.

(2) بنزرت: مدينة تقع في شمال بلاد المغرب الأدنى، بينها وبين تونس يومان، وهي من نواحي سطفورة الواقعة على ساحل البحر، انظر: الحموي، ج1، ص(499-500).

(3) حاطوم، ص360؛ يحيى، ج3، ص19؛ الرمال، ص41؛ المدني، ص74؛ الجمل، المغرب، ص79؛ انظر أيضاً:

.Bishko, III, p. 13

(4) الطيبي، ص(81-81)، 86؛ كريم، ص6؛ التظواني، ص175.

تجارتها غنى جبالها بمناجم الذهب⁽¹⁾. وبناء على ما ذكر؛ وضع البرتغاليون نصب أعينهم السيطرة على المدينة من أجل استغلال مميزات موقعها ومقدراتها الاقتصادية لصالحهم، خاصة وأن العديد من القوى التجارية في المنطقة، وعلى رأسها جنوة، كانت تسعى هي الأخرى للهدف نفسه⁽²⁾.

وعُرف عن مدينة سبته احتضانها للمهاجرين الأندلسيين، بعد أن أخذت القواعد الأندلسية تتهاوى واحدة تلو الأخرى بيد الإسبان منذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. وكما أسلفنا؛ فقد نشط هؤلاء ومعهم المغاربة في مهاجمة السفن التجارية والمدن الساحلية الأوروبية، فأراد البرتغاليون من وراء حملتهم هذه إلى وقف هذه الهجمات؛ حفاظاً على أسطولهم وتجارتهم وأمن مدنها الساحلية، وحتى يصبح ميناؤها ملاذاً للسفن البرتغالية الفارة من هجمات الغزاة المسلمين⁽³⁾. ومن ناحية أخرى؛ فإن السيطرة على هذه المدينة من شأنه الحيلولة دون وصول الإمدادات والنجادات المغربية للأندلسيين⁽⁴⁾.

وعدّ الدعم البابوي من أهم العوامل التي شجعت البرتغال على ممارسة نشاطها الاستعماري، ومن ذلك ما جاء في المرسوم الصادر عن البابا كليمنت الخامس (Clement V) (704-714هـ/1305-1314م)⁽⁵⁾، الذي حث البرتغاليين على مهاجمة بلاد المسلمين وإخضاعها لحكمهم، والاستحواذ على خيراتها⁽⁶⁾. وعلى صعيد آخر؛ كانت أوضاع الدولة الداخلية المرينية متدهورة، بسبب ضعف شخصية سلطانها أبي سعيد المريني (800-

(1) كريم، ص 6.

(2) الطيبي، ص 82، 86.

(3) الطيبي، ص 98؛ الغنيمي، م 3، ج 4، ص 75.

(4) التطواني، ص 175؛ السبتي، ص 6.

(5) البابا كليمنت الخامس: ولد عام 662هـ/1264م، وكان مقرباً من الملك الفرنسي فيليب الرابع (Philippe IV) (684-714هـ/1285-1314م) فعمل على تنفيذ أوامره، ومن أهم قراراته نقل البابوية من روما إلى فرنسا، وتدميره تنظيم جماعة فرسان الهيكل، عبر ملاحظتهم وقتلهم، انظر: مجموعة من المؤلفين، الباباوات، ص (90-92).

(6) الطيبي، ص 82، 86؛ انظر أيضاً: Bishko, III, p. 29.

823هـ/1398-1420م⁽¹⁾ وسوء إدارته، فضلاً عن عوامل أخرى كثيرة⁽²⁾، مما جعل مدينة سبتة في مقدمة المواقع المستهدفة.

وأخذ البرتغاليون يجرون الاستعدادات من أجل تحقيق الهدف المنشود، وأوصى الملك البرتغالي جون الأول أن تحاط العملية بالسرية⁽³⁾. ومن أجل ضمان نجاحها؛ قام البرتغاليون بإيفاد رسل لجمع المعلومات حول المدينة والميناء والتحصينات⁽⁴⁾، علماً أنهم كانوا على دراية سابقة بالكثير من المعلومات حول مدى الضعف والترهل السياسي الذي كانت تعاني منه بلاد المغرب الأقصى، فضلاً عن الكوارث التي حلت بالمنطقة بسبب انتشار الطواعين⁽⁵⁾. واستطاعت رسل الاستطلاع جمع الكثير من المعلومات الإضافية حول مداخل المدينة ومخارجها، وطبيعة المرسى والأسوار والأبواب والحامية المكلفة بالدفاع عنها⁽⁶⁾.

وقبل البدء بالاستعدادات العسكرية؛ خاطب البرتغاليون مملكة قشتالة لحثها على المشاركة، فقبل طلبهم بالرفض، بسبب حالة العداء التي كانت لا تزال قائمة على الرغم من الهدنة المعلنة بين الطرفين، وعلاوة على ذلك؛ أصدر الملك القشتالي خوان الثاني (Juan II) (808-858هـ/1406-1454م)⁽⁷⁾ مرسوماً قضى بمصادرة أملاك كل من يقوم بالمساعدة أيّاً كان نوعها⁽⁸⁾. ونظراً للنقص الذي كانت تعاني منه القوات البرتغالية في أعداد الرماح اللازمة؛ فقد سارعوا على وجه السرعة إلى شرائها من إنجلترا⁽⁹⁾. وما أن بدأت الاستعدادات العملية حتى

(1) أبو سعيد، عثمان بن أحمد بن أبي سالم عثمان بن أبي العباس: من أواخر سلاطين بني مرين، وأطولهم مدة وأعظمهم محنة، تحكم في عهده الوزراء والحجاب بالدولة، انظر: الناصري، ج4، ص(93-95).

(2) ابن الأحمر، ص40.

(3) الشريف، ص433.

(4) الفكيكي، ص160، 195؛ المدني، ص91.

(5) الغنيمي، م3، ج3، ص75؛ كريم، ص6.

(6) الفكيكي، ص(161-162).

(7) خوان الثاني: تولى عرش قشتالة حينما كان طفلاً لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، خضعت البلاد في عهده لسيطرة الاشراف الذين دخل معهم في صراع حول السلطة والضرائب، فعاشت فترة من الفوضى والاضطرابات، وعرف عنه ضعف الشخصية وكثرة اللهو والصيد والفروسية، انظر: عاشور، أوروبا، ج1، ص576؛ عنان، دولة، ج4، ص175.

(8) الشريف، ص442.

(9) الطيبي، ص92، 95.

حتى بدأ المقاتلة البرتغاليون المسلحون جيداً بالتوافد، وانضم إليهم عدد من المتطوعين الفرنسيين والإنجليز والألمان، وانتظم الجميع تحت قيادة الأمير هنري الملاح⁽¹⁾. وفي الوقت الذي لم تذكر تذكر فيه المصادر التاريخية أعداد القوات؛ فإنها أشارت إلى عدد السفن، فقيل إنها اشتملت على ما يقرب من مئتين وعشرين⁽²⁾.

ومن أجل إشاعة جو من الحماس في صفوف المقاتلة الذين احتشدوا في ميناء لشبونة؛ قام أحد الرهبان بتلاوة خطاب البابا، مبشراً فيه بالغفران للمشاركين. وفي 18 جمادى الأولى 818هـ/25 يوليو 1415م غادرت القوات الميناء، ثم ما لبثت بعد ذلك أن واجهت بعض المصاعب، بسبب انعدام الرؤية الناتج عن الضباب الكثيف، فاضطروا للتوقف لبعض الوقت، واصيب العديد من الجند بالأمراض. وعلى الرغم من ذلك؛ إلا أن الأسطول واصل المسير حتى وصل إلى سواحل مدينة سبته⁽³⁾.

وفي الوقت الذي انشغلت فيه قوات الأسطول بالنزول إلى البر بمحاذاة المدينة؛ انكب الأهالي بقيادة والي المدينة صالح بن صالح على تعزيز قدراتهم الدفاعية، ومحاولة الاستفادة من بطئ حركة القوات الصليبية المثقلة بالدروع، ثم ما لبثت أن اندلعت معارك طاحنة بين الطرفين استمرت من الصباح حتى غروب الشمس⁽⁴⁾، وفي الوقت نفسه كان الأسطول البرتغالي يحاصر المدينة من ثلاث جهات⁽⁵⁾. وعلى الرغم من بسالة المدافعين عن المدينة، وكثرة عددهم، والتحصينات القوية التي أعدها؛ إلا أنها ما لبثت أن سقطت بيد القوات المهاجمة في 15 ذي الحجة 818هـ/12 أغسطس 1415م⁽⁶⁾، بعد أن تخاذل السلطان المريني أبو سعيد عثمان عن نجدتها والدفاع عنها⁽⁷⁾.

(1) الشريف، ص(441-442).

(2) العبادي، ص456؛ الشريف، ص442.

(3) الجمل، المغرب، ص44؛ الطيبي، ص(92-96).

(4) الطيبي، ص92؛ الشريف، ص442.

(5) التازي، الوسيط، ج1، ص220.

(6) الطيبي، ص(93-95)؛ العبادي، ص456.

(7) الوزان، ج1، ص309.

وكعادة القوات الصليبية بعد اقتحامها للمدن الإسلامية؛ فقد أعملت السيف بالأهالي قتلاً وجرحاً، ومن لم ينجُ من القتل أخذ أسيراً، وتعرضت المنازل ومخازن التجار للسرقة والحرق، وبعد يومين حولوا جميع مساجدها الى كنائس وأديرة أقيمت فيها صلوات الشكر، وتمت تسميتها بأسماء قديسين مسيحيين⁽¹⁾، وبعد ذلك نُصّب أبناء الملك المشاركون في الحملة فرساناً، وتولى الكونت بيدرو دي مينيزيس (Pedro de Menezes) حكم المدينة، ومن ثم شرعت حامية عسكرية قوامها ألفان وسبعمائة رجل وسفینتان بحراسة مضيق جبل طارق بصورة مؤقتة ريثما تستتب أوضاع البرتغاليين في المدينة، وفي الوقت نفسه انشغلت الحامية البرية، وقوامها ثلاثة آلاف، في بناء التحصينات⁽²⁾، وبهذا تكون مدينة سبتة قد بدأت أول فصول تاريخها تحت الحكم البرتغالي.

وأدى هذا الحدث الجلل إلى شيوع حالة من السخط والغضب في أرجاء بلاد المغرب، وعقد أهالي مدن وأرياف بلاد المغرب الأقصى العزم على مقاومة البرتغاليين، بتحريض من شيوخ الطرق الصوفية؛ ولعل من أهم المدن التي احتلت مركز الصدارة في المقاومة؛ مدينة فاس العاصمة، وبدأ المجاهدون بشن الهجمات البرية والبحرية ضدهم، مما أدى إلى مقتل العديد من جنودهم⁽³⁾. وإدراكاً من الغرناطيين والمرينيين لخطورة ما آلت إليه الأوضاع في سبتة، وخطورة ذلك عليهم؛ قام الآلاف منهم عام 822هـ/1419م بشن هجوم بري بحري مشترك ضد البرتغاليين في المدينة، ولكنهم لم ينجحوا في مهمتهم؛ بسبب خلافات نشبت في صفوف بني مرين، وكذلك قدوم الأمير هنري الملاح من البرتغال على رأس أسطول لنجدة المدينة، ف وقعت بينه وبين المجاهدين معارك تمكن خلالها من تحقيق النصر⁽⁴⁾. وفي المقابل؛ ففي إحدى الهجمات تمكن المجاهدون عام 840هـ/1437م من أسر مجموعة من البرتغاليين كان من بينهم

(1) الطيبي، ص93، (96-97)، الشريف، ص443.

(2) بن تاويت، ص179؛ الطيبي، ص93، 98.

(3) بن تاويت، ص177؛ رضوان، الغزوات ص541؛ الطيبي، ص95، 99.

(4) الطيبي، ص(93-96)؛ العبادي، ص457؛ الجمل، المغرب، ص44.

أحد الأمراء، وساقوهم إلى مدينة فاس، ثم قام المغاربة والمهاجرون الأندلسيون ببناء مدينة تطوان، واستعانوا بالأسرى البرتغاليين، لجعلها قاعدة انطلاق بهدف تخليص مدينة سبتة⁽¹⁾.

وأعلن سكان الضواحي وجبال الخروب الجهاد ضد القوات البرتغالية بتشجيع من الفقهاء ورجال الدين وأرباب الزوايا الصوفية، ولم يتأخر أهالي مدن القصر الصغير⁽²⁾ وتطوان عن الجهاد. ولم يتوان السلطان عبد الحق بن أبي سعيد المريني، آخر سلاطين بني مرين، في التحريض على قتال البرتغاليين⁽³⁾. وعلى الرغم من اعتماد المقاومة المغربية على إمكاناتها المحدودة، وعدم قدرتها على تحقيق انتصارات حاسمة⁽⁴⁾؛ فإنها حرمت البرتغاليين من الأمن، وهددت سلامة مقاتليهم، لدرجة أن الحاكم البرتغالي لم يخلع درعه ولباسه العسكري طوال الوقت⁽⁵⁾.

ومن ناحية أخرى؛ أصبح تحصين سبتة والدفاع عنها عبئاً ثقيلاً على كاهل البرتغال، الذين باتوا يفكرون في التخلي عنها، وبخاصة بعد تحلل النبلاء والفرسان من التزاماتهم القاضية بتحمل نفقات مشاركتهم في السيطرة عليها، في ظل حالة عدم الاكتراث التي أبدتها الممالك المسيحية المجاورة، ولولا الدعم البابوي لما تمكن البرتغاليون من الاحتفاظ بها⁽⁶⁾؛ ففي العام 846هـ/1442م أصدر البابا كلمينت الخامس مرسوماً يمنح الغفران لكل من يساهم في الدفاع عن المدينة، وزيارتها والإقامة فيها، وأن على كل برتغالي التصديق بخمس دوقيات لهذا الغرض، وأمر المرسوم الجماعات العسكرية التي عرفت بغناها وكثرة إقطاعياتها بالمساهمة في إدامة السيطرة على سبتة وبناء الكنائس فيها. وفي العام التالي تم إصدار قرار آخر أجبر البلاد المسيحية على المساهمة في الجهود العسكرية البرتغالية، وحصلت البرتغال بموجبه على عشر

(1) بن تاويت، ص 180.

(2) القصر الصغير: حصن كبير بينه وبين سبتة اثنا عشر ميلاً، وبينه وبين طنجة عشرون ميلاً، وهو الأقرب إلى الأندلس، انظر: الحميري، الروض، ص 476.

(3) بوشرب، ص 163.

(4) رضوان، الغزوات، م 1، ص 541.

(5) الطيبي، ص 95.

(6) بوشرب، ص (149-151، 271).

مداخيل الكنائس الأوروبية، وتنازل البابا نفسه عن خمس مداخيل دولته دعماً للبرتغال، ولتشجيعها على الاستمرار في التوسع بالمغرب⁽¹⁾.

وعلى الرغم من كل ذلك؛ غدت مدينة سبتة معزولة عن المنطقة، وتشكل عبئاً ثقيلاً على خزينة الدولة، وفقدت أهميتها التجارية، وذلك بعد إجماع السفن التجارية عن الورد إلى مينائها، وتحولها إلى موانئ بلاد المغرب الأخرى، مما زاد من أعباء الحامية البرتغالية في المدينة، فلجأ أفرادها إلى سرقة المزارع والبساتين المجاورة، والإغارة على السفن التجارية في مضيق جبل طارق، وبخاصة السفن التي كانت تتاجر مع مدن مملكة غرناطة الأندلسية⁽²⁾. وأخيراً يمكن القول: إنَّ السيطرة البرتغالية على مدينة سبتة لم تكن حدثاً عابراً في تاريخ المنطقة، لا بل مثلت الخطوة الأولى في مشروع الاكتشافات الجغرافية البرتغالية، والتوسع في ما وراء البحار على حساب المسلمين⁽³⁾، وذهب بعض المؤرخين إلى اعتبارها بمثابة نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة⁽⁴⁾.

فشل الحملة البرتغالية ضد مدينة طنجة عام 840هـ/1437م

استمر البرتغاليون في السعي للسيطرة على مزيد المدن والثغور المغربية، لاقامة المزيد من القواعد البحرية، وكان الاستيلاء على مدينة طنجة حلماً يراود التاج البرتغالي للعديد من الأسباب، منها: قربها من جبال غمارة التي تسكنها قبائل مغربية شديدة البأس والعداء للبرتغاليين⁽⁵⁾، فضلاً عما تمثله طنجة كبوابة مهمة لبلاد المغرب الأقصى على مضيق جبل طارق، كما أن السيطرة عليها من شأنها تمكين البرتغاليين من المضيق بأكمله⁽⁶⁾. ولعل من

(1) بوشرب، ص (150-152).

(2) بن تاويت، ص 176؛ الطيبي، ص (97-98).

(3) الغنيمي، ج 3، ص 75.

(4) بوشرب، ص (6-7)؛ الشريف، ص 429.

(5) الجمل، المغرب، ص 312.

(6) غلاب، ص 29.

دوافع السيطرة البرتغالية على طنجة بالإضافة إلى ما ذكر؛ العمل على تأديب سكان المدينة الذين دأبوا على مهاجمة الأهداف البرتغالية⁽¹⁾.

ومن أجل تحقيق الاستيلاء على المدينة طلب الملك البرتغالي دوارتي الأول (Duarte I) (836-841هـ/1433-1438م) عام 840هـ/1437م من البابا إيجين الرابع (Eugene IV) (834-851هـ/1431-1447م) مده بقوات عسكرية⁽²⁾. فاستجاب له، وحينها قام البرتغاليون بتجهيز حملتهم مستغلين فترة الاضطرابات التي كانت تمر بها بلاد المغرب بعد مقتل السلطان أبي السعيد عثمان وتولى ابنه الطفل عبد الحق بن أبي سعيد عام 823هـ/1420م، مما أدى إلى تحكّم الوزراء والحجاب بالدولة⁽³⁾، وانشغال العهد الجديد بقمع التمردات الداخلية في بعض المدن، وعلى رأسها مدينة مكناس⁽⁴⁾.

وفي صفر 841هـ/آب 1437م قام البرتغاليون بتوجيه حملة⁽⁵⁾ تكونت من ستة آلاف مقاتل⁽⁶⁾، وقيل: ثمانية آلاف، ومن عدد كبير من المراكب والسفن الحربية، وقسمت الحملة إلى قسمين؛ أحدهما اتخذ لنفسه طريقاً برياً، بينما اتخذ القسم الثاني طريقاً بحرياً⁽⁷⁾. وأما على صعيد صعيد الاستعدادات الدفاعية الإسلامية؛ فقد أخذ الوزير أبو زكريا يحيى الوطاسي (ت. 852هـ/1448م)⁽⁸⁾ يستصرخ الأقاليم المغربية لحثها على إيجاد المدينة، فلبى دعوته آلاف الجنود المغاربة، وكان الوزير أبو زكريا والقائد صالح بن صالح حاكم سبتة السابق على رأس القوات المدافعة، وبمجرد وصول القوات العسكرية المدينة أخذت بفرض الحصار حولها من البر

(1) مارمول، ج2، ص219.

(2) حركات، ج2، ص62.

(3) الجمل، المغرب، ص45.

(4) الوزان، ج1، ص315.

(5) Charles, III, P. 29.

(6) رضوان، الغزوات، م1، ج6، ص540.

(7) الجمل، المغرب، ص45.

(8) أبو زكريا يحيى بن زيان الوطاسي: أحد أبناء البيت الوطاسي ووزير آخر سلاطين بني عبد الحق، وأول من جمع بين وظيفتي الحاجب والوزير، وقد تميز بالقوة والصرامة، فتمكن من القضاء على تمرد عرب الشاوية بعد أن شكّلوا خطراً كبيراً على الدولة، انظر: الغنيمي، ج(5-6)، ص15.

والبحر، ومن ثم اندلعت المواجهات بين الطرفين، وتمكن المغاربة بإمكاناتهم البسيطة من دحر القوات المهاجمة وإلحاق الهزيمة بها بعد مقتل وأسر عدد من النبلاء والجنود، وسبق الأسرى إلى مدينة فاس، حيث عُرضوا على العامة⁽¹⁾. إثر هذه الكارثة طلب النصارى من المغاربة السماح لهم بإجلاء قواتهم الباقية⁽²⁾، وإطلاق سراح أسراهم، فوافق المغاربة على إجلاء القوات، واشترطوا إعادة سبئة مقابل الأسرى، إلا أن البرتغاليين رفضوا ذلك ثم انسحبوا⁽³⁾.

السيطرة البرتغالية على مدينة القصر الصغير ومينائها عام 862هـ/1458م

على الرغم من الأوضاع السيئة التي كانت تعاني منها مدينة سبتة، وفشل البرتغاليين في السيطرة على مدينة طنجة؛ فإنهم استمروا في سياستهم التوسعية على سواحل بلاد المغرب، فتوجهت أنظار الملك البرتغالي الفونسو الخامس صوب ميناء القصر الصغير المعروف أيضاً بقصر المجاز⁽⁴⁾، وقصر مصمودة⁽⁵⁾.

وكانت هذه المدينة الساحلية المتوسطة قد بنيت بين سبتة وطنجة، في موقع يمكن ساكنيه من رؤية سواحل مملكة غرناطة الجنوبية، ويقال، إن هذا الموقع كان قد استخدمه طارق بن زياد كنقطة عبور إلى الجبل الذي سُمي باسمه، واهتم به الخليفة الموحي أبو يوسف يعقوب المنصور (580-595هـ/1184-1199م)⁽⁶⁾، فبنى المنازل والبيوت، مما أدى إلى انتعاش النشاط التجاري والصناعي، حتى غدت مدينة القصر الصغير ومينائها من الموانئ المهمة على

(1) الناصري، ج4، ص95؛ انظر أيضاً: الوزان، ج1، ص316؛ مارمول، ج2، ص209؛ غلاب، ص30؛ التازي، التاريخ، ج7، ص166؛ الجمل، المغرب، ص45؛ رضوان، الغزوات، م1، ج6، ص540؛ كريم، ص7؛ حركات، ج2، ص62.

(2) الجمل، المغرب، ص46.

(3) الوزان، ج1، ص316؛ مارمول، ج2، ص219؛ الجمل، المغرب، ص(45-46)؛ رضوان، الغزوات، م1، ج6، ص540؛ حركات، ج2، ص62؛ كريم، ص7.

(4) الناصري، ج4، ص96؛ انظر أيضاً: الجمل، المغرب، ص47؛ Bishko, III, p. 29.

(5) الناصري، ج4، ص(96-97)؛ انظر أيضاً: Bishko, III, p. 29.

(6) أبو يوسف يعقوب المنصور: ثالث الخلفاء الموحدين ببلاد المغرب، تميز عهده برد المظالم لأهلها وكرام الفقهاء، وبناء المشاريع العمرانية الكبيرة، وجهاده المستمر في الأندلس، وانتصاره على الإسبان في موقعة الأرك عام 591هـ/1195م، انظر: الناصري، ج2، ص158، 181، 187، 194.

ساحل المتوسط، وأتخذ الأمير الموحي منها قاعدة انطلاق نحو سواحل الأندلس الجنوبية⁽¹⁾، خاصة وأن المرور عبر سبتة كان ينطوي على مشقات ومخاطر كبيرة⁽²⁾، وبقي هذا المعبر الأكثر أفضلية للجيوش الإسلامية من غيره، بهدف العبور إلى الأندلس⁽³⁾.

وبالإضافة إلى أهمية موقعه، فقد هدف البرتغاليون من وراء السيطرة على هذا الميناء إلى تقوية وجودهم وتعزيزه في مدينة سبتة، وبهدف الاعتماد عليه في مهاجمة مدينة طنجة، ولمنع إنشاء السفن الحربية التي تنطلق لغزو الشواطئ المسيحية، والاستفادة من طبيعة المكان والتواجد الكثيف للغابات قريباً منه⁽⁴⁾.

وكان البابا نيقولا الخامس في عام 858هـ/1454م قد بارك النشاط الاستعماري البرتغالي، ومنح البرتغال حق تملك جميع المناطق المجاورة لمدينة سبتة، وكذلك الشاطئ الإفريقي من رأس بوجادور (Cabo Bojador) إلى غينيا⁽⁵⁾، وبعد وفاته اعتلى الكرسي البابوي البابوي البابا كالستوس الثالث (callistus III) (859-862هـ/1455-1458م)، الذي عرف عنه تعصبه الصليبي الشديد؛ فدعا الملك البرتغالي الفونسو الخامس لتجهيز جيش لمهاجمة الأماكن المقدسة في فلسطين، إلا أن دعوته هذه لم تر النور بسبب خلافات داخلية أوروبية، فاستغل الملك البرتغالي هذا الحماس البابوي⁽⁶⁾، وبدأ بإعداد العدة لتوجيه حملة إلى القصر الصغير، وتراوح عدد القوات بين سبعة عشر ألفاً⁽⁷⁾ وخمسة وعشرين⁽⁸⁾، فضلاً عن السفن التي التي بلغ عددها مائتين وثمانين سفينة، وتولى الملك البرتغالي بنفسه قيادتها، ورافقه ابنه وولي

(1) الوزان، ج1، ص317.

(2) مارمول، ج2، ص214.

(3) التازي، الوسيط، ج2، ص222.

(4) الغنيمي، ج3، ص (5-6)، م3، ص77؛ الجمل، المغرب، ص47؛ العبادي، ص458؛ رضوان، الغزوات، م1، ج6، ص541.

(5) كريم، ص7.

(6) الوزان، ج1، ص317؛ انظر أيضاً: مارمول، ج2، ص214.

(7) مارمول، ج2، ص214.

(8) الغنيمي، م3، ج (5-6)، ص78؛ بوشرب، ص161؛ العبادي، ص458؛ كريم، ص8.

عهدہ الضون فرناندو (D. Fernando) (ت. 874ھ/1470م)⁽¹⁾. وما أن اكتملت الاستعدادات حتى توجه الأسطول صوب القصر الصغير في 10 ذي الحجة 862ھ/18 تشرين الأول 1458م⁽²⁾.

وبعد يومين من الإبحار وصلت القوات المسيحية قريباً من سواحل طنجة، وتوقفت ليوم واحد في انتظار وصول بعض السفن الأخرى، وخلال ذلك حاول الملك البرتغالي تغيير مسار الحملة ومهاجمة مدينة طنجة، خشية من عدم مقدرة الأسطول على مواصلة المسير نظراً للرياح الشديدة، لكنه عدل عن رأيه وأكمل المسير بعد رفض الأمراء البرتغاليين والقادة، وعندما وصل البرتغاليون قبالة القصر الصغير؛ استخدموا القوارب والزوارق للقيام بعملية الإنزال، وخلال ذلك قام خمسمائة فارس من المغاربة بالتصدي لهم، ولكن ذلك لم يمنعهم من النزول، مما اضطر المدافعين للانسحاب والتقهقر داخل المدينة والجبال المجاورة⁽³⁾.

وفي بداية الأمر عجز المهاجمون عن اقتحام المدينة بسبب حصانتها وقوة أبوابها الحديدية ومтанيتها، فضلاً عن المقاومة التي أبدتها الأهالي في الدفاع عنها، فلجأوا إلى استخدام المدافع، وتمكنوا بواسطتها من تحطيم طرف من سور المدينة، الذي كان آخر آمال أهالي المدينة في الصمود، بعد أن أنهكهم التعب، ويئسوا من وصول أية نجدة، فأعلنوا الاستسلام مقابل منحهم الأمان على أرواحهم وأمتعتهم، فقبل البرتغاليون ذلك بشرط تسليم الأسرى، وفي صباح اليوم التالي غادر الأهالي المدينة إلى الجبال المجاورة، فدخلها الملك البرتغالي، وأمر بتحويل جامعها إلى كنيسة⁽⁴⁾، وعين الضابط البرتغالي دويرتي مينسي ((Duarte Mense) حاكماً عليها⁽⁵⁾، ومن ثم شرعت حاميتها الجديدة في بناء الحصون ووسائل الدفاع⁽⁶⁾. وفي محاولة منه لاستردادها؛ أرسل السلطان المريني عبد الحق بن أبي سعيد عثمان جيشاً قوياً ضم كل سكان

(1) مارمول، ج2، ص214؛ الغنيمي، م3، ج(5-6)، ص78؛ بوشرب، ص161؛ العبادي، ص458؛ كريم، ص8.

(2) الوزان، ج1، ص317؛ انظر أيضاً: مارمول، ج2، ص214.

(3) مارمول، ج2، ص214.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص(214-215)؛ الغنيمي، م3، ج(5-6)، ص78؛ رضوان، الغزوات، م1، ج6، ص541.

(5) كريم، ص8.

(6) الجمل، المغرب، ص47.

فاس، وفرضوا حصاراً حولها لمدة شهرين ولكن دون نتيجة، بسبب الأمطار الغزيرة والثلوج، مما اضطرهم لرفع الحصار عنها⁽¹⁾، وبقيت مدينة القصر الصغير ومينائها تحت السيطرة البرتغالية حتى تمكن السعديون من إجبارهم على الجلاء عام 956هـ/1549م⁽²⁾.

السيطرة البرتغالية على طنجة وأصيلا وأنفا وأسفى وأزمور (867-891هـ/1463-1486م)

بعد الفتح العثماني لمدينة القسطنطينية عام 857هـ/1453م، دعا البابا نقولا الخامس إلى حرب صليبية جديدة ضد المسلمين، وكان الملك البرتغالي الفونسو الخامس من أوائل الذين استجابوا لدعوته⁽³⁾؛ فأعدَّ حملة جديدة ضد مدينة طنجة، ووقف بنفسه على رأسها⁽⁴⁾. وتكونت من ألف مقاتل وثمانين سفينة⁽⁵⁾. وفي العام 867هـ/1463م⁽⁶⁾، أو في العام الذي تلاه⁽⁷⁾، انطلقت القوات نحو مدينة طنجة، إلا أنها لم تتمكن من تحقيق غرضها بسبب مقاومة الأهالي والأحوال الجوية العاصفة، مما أدى إلى مقتل وأسر العديد من جنودهم، وعندما عجزوا عن دخول المدينة؛ هاجموا الأرياف ثم انسحبوا⁽⁸⁾.

ومن أجل التعويض عن خسارتهم في طنجة؛ جرَّد البرتغاليون حملة للسيطرة على مدينة أنفا الساحلية، الواقعة إلى الجنوب الغربي من مدينة الرباط، وتصدى للقيام بمهام القيادة ولي عهد البرتغال الضون فرناندو، وبلغ قوام الحملة عشرة آلاف جندي وخمسين سفينة، وقد اختلفت المصادر في تحديد سنة الهجوم؛ فقيل في العام (869هـ - 1465م)⁽⁹⁾ أو (872هـ - 1468م)⁽¹⁰⁾ 1468م⁽¹⁰⁾ أو (874هـ - 1469م)⁽¹⁾ أو (875هـ - 1470م)⁽²⁾، وادعى البرتغاليون في حينه

(1) الوزان، ج1، ص317.

(2) الجمل، المغرب، ص(69-70).

(3) المرجع نفسه، ص47؛ Bishko, III, p. 13.

(4) الوزان، ج1، ص314؛ انظر أيضاً: مارمول، ج2، ص210؛ كريم، ص8.

(5) حركات، ج2، ص62.

(6) الوزان، ج1، ص314؛ انظر أيضاً: مارمول، ج2، ص210.

(7) الجمل، المغرب، ص48؛ حركات، ج2، ص62؛ كريم، ص8.

(8) الوزان، ج1، ص(314-316)؛ مارمول، ج2، ص210؛ كريم، ص8؛ الجمل، المغرب، ص48.

(9) مارمول، ج2، ص128؛ التازي، التاريخ، ج6، ص161.

(10) الوزان، ج1، ص203.

أن أهالي هذه المدينة كانوا يهاجمون شبه جزيرة قادس⁽³⁾ والساحل الغربي، ويحدثون الدمار والخراب في الممتلكات البرتغالية. وما أن رأى أهالي المدينة الأسطول البرتغالي يقترب من مدينتهم حتى أخلوها، وهربوا إلى مدينتي الرباط وسلا، فنزل البرتغاليون إلى البر بكل أمان ويُسّر، ثم دخلوا المدينة ودمروها تدميراً كاملاً⁽⁴⁾.

وفي العام 876هـ/1471م جرد الملك البرتغالي الفونسو الخامس حملة ضد مدينة أصيلا⁽⁵⁾، الواقعة على بعد 30كم إلى الجنوب من مدينة طنجة، بهدف تحويلها إلى قاعدة عسكرية برتغالية، ولتسهيل السيطرة على مدينة طنجة وإدانة السيطرة على مدينتي القصر الصغير وسبتة. وتكونت قوات الحملة من عشرين ألف مقاتل، على متن مائتي سفينة انطلقت من لشبونة، وعانت قوات الأسطول عند قيامها بالنزول على شواطئ أصيلا من مشقة كبيرة بسبب هيجان البحر، الأمر الذي تسبب في تحطم بعض السفن وهلاك أكثر من مائتي شخص، ولكنهم في نهاية الأمر تمكنوا من النزول ونصب معسكرهم قبالة المدينة، دون أن يواجهوا أية مقاومة⁽⁶⁾.

وبدأت القوات البرتغالية بقصف المدينة بالمدفعية لمدة ثلاثة أيام متتالية، حتى تمكنوا من إحداث ثلمات في السور، مما اضطر حماة البرج الرئيسي للاستسلام. وعندما دخلوها المدينة؛ دارت بينهم وبين أهلها معارك دامية، وغصت طرقاتها بجثث القتلى من الطرفين؛ منهم ألفان من الأهالي والمدافعين، واعتقل البرتغاليون ما يقرب من خمسة آلاف من الأهالي، كان من

(1) الناصري، ج4، ص116؛ انظر أيضاً: الجمل، المغرب، ص49.

(2) التازي، الوسيط، ج2، ص271.

(3) قادس: جزيرة بالأندلس عند مالقة من مدن إشبيلية، ويبلغ طولها اثني عشر ميلاً، وعرضها في أوسع المواضع ميل، الحميري، الروض، ص448.

(4) الوزان، ج1، ص203؛ مارمول، ج2، ص128.

(5) Bishko, III, p. 29 .

(6) الوزان، ج1، ص312؛ مارمول، ج2، ص199؛ انظر أيضاً: الجمل، المغرب، ص49؛ كريم، ص8.

بينهم الأمير الطفل أبو عبد الله محمد البرتغالي ، وتمكن البرتغاليون من استعادة خمسين أسيراً، فضلاً عن حصولهم على ثمانمائة ألف مثقال من الغنائم⁽¹⁾.

بعد أن أحكم البرتغاليون سيطرتهم على المدينة تم تحويل جامعها إلى كنيسة أسموها كنيسة السيدة العذراء، وأقيمت فيها صلاة الشكر، وخشي الشريف الوطاسي بعد سقوط المدينة بيد البرتغاليين من وقوع خسائر جديدة؛ فدخل في مفاوضات معهم، وتم خلالها الاتفاق على عقد هدنة بين الطرفين لمدة عشرين سنة⁽²⁾، وأما الأمير الأسير فبقي لدى البرتغاليين لضمان تنفيذ الاتفاق، ولم يُفرج عنه إلا بعد اثنتي عشرة سنة، حيث قام والده بافتدائه بمبلغ من المال، وعند عودته كان يتقن اللغة البرتغالية فأطلق عليه لقب البرتغالي⁽³⁾.

وبعد سقوط أصيلا أخذت أخبارها تنتقل حتى وصلت إلى سكان طنجة، فخاف أهلها من بطش البرتغاليين، وبخاصة بعد أن هالهم ما سمعوه من أخبار حول المجازر التي ارتكبوها هناك، فجنحوا للسلم، وحينها أسرعت القوات البرتغالية إلى مدينتهم فدخلتها⁽⁴⁾. وبعد سقوط مدينتي طنجة وأصيلا؛ هجر أهالي العرائش مدينتهم وتركوها خراباً خشية أن يلحق بهم ما لحق بأخوانهم في أصيلا من ذبح وأسر، فغدت مدينة مهجورة بعدما كانت عامرة بالسكان⁽⁵⁾، فدخلها البرتغاليون في 17 ربيع الآخر 878هـ/19 ايلول 1473م⁽⁶⁾. وبعد هذه الإنجازات التي تحققت للبرتغاليين في عهد الفونسو الخامس؛ قام بإرسال الرسائل والوفود إلى البابا وإلى ملوك الأمم المسيحية، يعلمهم بأنباء انتصاراته، وصار يُلقَّب بملك البرتغال وما وراء البحار، والإفريقي⁽⁷⁾(Africano).

(1) الوزان، ج2، ص 313؛ مارمول، ج1، ص(200-201)؛ انظر أيضاً: الجمل، المغرب، ص49.

(2) مارمول، ج2، ص203.

(3) الوزان، ج1، ص314؛ انظر أيضاً: الجمل، المغرب، ص49.

(4) مارمول، ج2، ص210؛ انظر أيضاً: رضوان، الغزوات، م1، ج6، ص542.

(5) الوزان، ج1، ص302.

(6) كريم، ص8.

(7) مارمول، ج2، ص210؛ انظر أيضاً: رضوان، الغزوات، م1، ج6، ص542.

وفي محاولة منه لاسترداد مدينة طنجة من يد البرتغاليين؛ قام الملك أبو زكريا محمد الشيخ الوطاسي عام 881هـ/1476م بتجريد حملة مشتركة مع القوات الإسبانية ضد البرتغاليين في طنجة، وكان الإسبان حينذاك يخوضون حرباً مع البرتغال، وبالفعل؛ هاجم الإسبان المدينة من البحر وأما الوطاسيون فهاجموها من البر، غير أن القوات البرتغالية تمكنت من الصمود ورد الهجوم⁽¹⁾.

وترتب على كل ما ذكر تمكّن الملك الفونسو الخامس من السيطرة على مدينة أسفي الواقعة على المحيط الأطلسي، بين مدينتي الجديدة والصويرة، عام 886هـ/1481م، وأصبحت المصدر الرئيس للأنسجة الصوفية البرتغالية، ثم ما لبثت مدينة أزموور، الواقعة على بعد خمسة وسبعين ميلاً جنوب شرق الدار البيضاء، أن وقعت تحت السيطرة البرتغالية عام 891هـ/1486م، خلال عهد الملك البرتغالي جواو الثاني (Joao II) (886-900هـ/1481-1495م)، فشكّلت مركزاً حيوياً لجذب التجار البرتغاليين⁽²⁾، وشهدت المدينتان استقراراً سياسياً افتقرت له معظم المدن المغربية⁽³⁾. ويمكن القول: إنّ عجز الحكام في كل من أسفي وأزموور في الحصول على ثقة السكان، والظروف السياسية التي سادت أرجاء المغرب الإسلامي، وحرص الحكام المحليين على الإستفادة سياسياً وتجارياً من الوجود البرتغالي في موانئهم؛ كل ذلك قد دفعهم للدخول تحت حماية الملك البرتغالي، لضمان الحفاظ على مصالحهم⁽⁴⁾.

(1) الجمل، المغرب، ص49؛ كريم، ص9.

(2) بوشرب، ص180، 183.

(3) بوشرب، ص8، (173-176)؛ كريم، ص9.

(4) بوشرب، ص180، 183.

الفصل الثالث

السياسة الصليبية الإسبانية تجاه المغرب والأندلس منذ مطلع القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي حتى قيام الوحدة الإسبانية عام 884هـ/1479م

- أحوال الممالك الإسبانية حتى قيام الوحدة الإسبانية عام 884هـ/1479م
- الأوضاع الداخلية في بلاد المغرب في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر
الميلادي
- الحملات الإسبانية ضد مدن الساحل الجزائري (800هـ-1398م/
867هـ-1462م)
- الهجوم الإسباني على تطوان عام 803هـ/1400م، وقرقنة عام
827هـ/1424م
- الحملة الإسبانية ضد جزيرة جربة عام 835هـ/1432م
- أحوال مملكة غرناطة حتى نهايات القرن التاسع الهجري/الخامس عشر
الميلادي
- السياسة الإسبانية تجاه الأندلسيين خلال عهد الملك خوان الثاني (Juan
II) (809-858هـ/1406-1454م)

الفصل الثالث

السياسة الصليبية الإسبانية تجاه المغرب والأندلس منذ مطلع القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي حتى قيام الوحدة الإسبانية عام 884هـ/1479م

أحوال الممالك الإسبانية حتى قيام الوحدة الإسبانية عام 884هـ/1479م

من المعلوم أن الملك خوان الثاني كان قد وُلِّيَ حكم مملكة قشتالة حينما كان طفلاً في الثانية من عمره، فوُضِعَ تحت وصاية والدته وعمه فرناندو دي أنتقيرة (Fernando de Anteguera) (808-858هـ/1412-1416م)⁽¹⁾، وعُرِفَ عنه ضعف الشخصية وكثرة اللهو؛ فسيطر الأشراف على مقاليد الحكم مما جعله يدخل في صراع معهم بعد أن بلغ سن الشباب، فعمت الثورات والاضطرابات أرجاء البلاد فترة من الزمن. ومن الجدير بالذكر أن الملك خوان قد تزوج من ايزابيل البرتغالية، وأنجبا هنري الرابع (Enrique IV) (858-879هـ/1454-1474م) الذي أصبح ملكاً على قشتالة، وأخته ايزابيل الكاثوليكية (Isabel La Catolica) (879-910هـ/1474-1504م) التي تولت عرش قشتالة بعده⁽²⁾.

وكان هنري الرابع قد ورث عن ابيه ضعف الشخصية، وانحلال الخلال حتى لقب بالعاجز، ودخلت البلاد في عهده عصراً من الفوضى والاضطرابات⁽³⁾. وعلى الرغم من ذلك؛ شهد عهده إحياء التنظيمات الدينية المسلحة التي أطلق عليها لقب الأخويات كمنظمة القديس يعقوب (Santiago)⁽⁴⁾، ومنظمة قلعة رباح (Calatrava)، فكان لهما باع طويلة في محاربة

(1) فرناندو دي أنتقيرة: الملقب بالعدل النزيه، كان ملكاً قوي الخلال ذا مقدرة وفطنة كبيرة، غير أن سنوات حكمه القليلة لم تسمح له باظهار كفاءته الإدارية بشكل كبير، انظر: عنان، دولة، ج4، ص178؛ عاشور، أوروبا، ج1، ص40؛ حتاملة، موسوعة، ج1، ص583.

(2) عنان، دولة، ج4، ص175؛ عاشور، أوروبا، ج1، ص576؛ ارسلان، خلاصة، ص(126-127)؛ الحجي، ص528؛ prescott, p. 105.

(3) عنان، دولة، ج4، ص175؛ عاشور، أوروبا، ج1، ص576؛ انظر أيضاً: Bishko, III, pp. 28-29.

(4) فرسان القديس يعقوب: جماعة مسيحية ظهرت في إسبانيا، عمل منتسبوها في قطع الطرق، والنهب، والسرقة، غير أنهم تحولوا لخدمة الرب والدفاع عن الصليب، فنالوا تأييد البابوية، وأخذوا يشاركون في الحروب ضد المسلمين الأندلس. انظر: البشري، ص213.

مسلمي الأندلس⁽¹⁾. وعلى صعيد آخر؛ حدثت في عهده أزمة حول ولاية العهد، افتعلها رجال الدين والنبلاء، حيث رغب الملك في هذا المنصب لابنته الأميرة خوانا دي أبيس Juana de Avis (1439/861-843-1457م)⁽²⁾، بينما أراد معارضوه تولية أخيه غير الشقيق الأمير الفونسو Alfonso (ت. 868هـ / 1468م) نظراً للشكوك التي تحيط بنسب ابنته⁽³⁾.

وترأس المعارضة كبير المستشارين خوان باشيكو (Juan Pacheco) (-1445/879) و Beltran (1474-849م) بعد أن أعفي من مهامه، وعين بدلاً منه الوزير بلتران دي لا كويبا (de) la Cueva (838-897هـ/1435-1492م) الذي علا شأنه بعد تزعمه منظمة سانتياغو الدينية، فرد خوان بقطع علاقته مع الملك، وجمع مناصريه في سبتمبر 868هـ/1464م في مدينة برغش (Burgos)⁽⁴⁾، وأصدروا مجتمعين بياناً ادعوا فيه أن دي لا كويبا هو الأب الحقيقي للأميرة، وكما شكلوا حلفاً للدفاع عن حقوق الأمير ألفونسو، وعقد النبلاء اجتماعاً في يونيو 869هـ/1465م في مدينة أبيلا (Avila) قرروا فيه خلع الملك وأعلنوا الأمير الفونسو ملكاً على البلاد⁽⁵⁾.

وهكذا دخلت قشتالة في حرب أهلية، حيث زحف المعارضون نحو بعض المدن، وفرضوا حولها حصاراً، إضافة لقيام الفلاحين في العام ذاته بالثورة في مقاطعة جاليسيا (Galicia)، الواقعة في الطرف الشمالي الغربي، مطالبين بإصلاحات اقتصادية واجتماعية، وتمكنوا بفضل الدعم الذي تلقوه من بعض النبلاء ورجال الدين من الاستيلاء على مناطق واسعة من المقاطعة، فواجههم هنري الرابع بقوة، مما أدى لاستنزاف طاقات الدولة الاقتصادية والبشرية، وفي العام 872هـ/1468م توفي الأمير الفونسو بشكل مفاجئ، وحينها توجهت انظار المعارضة صوب الأميرة ايزابيل شقيقة الملك، ولكنها رفضت الوقوف ضد أخيها، وتزامن ذلك مع طلب الأمير الأراغوني فرناندو الأول، وريث عرش أراغون، الزواج منها بناء

(1) القبيج، ص 98.

(2) Elliott, pp. 15,22.

(3) اليوسف، ص 340؛ أرسلان، خلاصة، ص 128؛ انظر أيضاً: Charles ,III, pp. 123-124؛ Howitt, p. 108 .

(4) برغش: مدينة في الأندلس، تقع بالقرب من مدينة ليون، وهي مدينة كبيرة، يشقها نهر، انظر: الحميري، صفة، ص 88.

(5) أرسلان، خلاصة، ص 128؛ Howitt, p. 115.

على رغبة والده ملك أراغون هنري الثاني، الذي رأى في الأمر فرصة لتحقيق الوحدة بين التاجيين، فتم الزواج عام 873هـ/1469م في مدينة بلد الوليد⁽¹⁾، وتعهد الأمير فرناندو باحترام قوانين قشتالة وتقاليدها والأهم من ذلك مواصلة الحرب على المسلمين. وبعد موت الملك القشتالي هنري الرابع عام 879هـ/1474م؛ اعتلت إيزابيل عرش مملكة قشتالة، وفي عام 884هـ/1479م اعتلى زوجها فرناندو عرش أراغون بعد موت والده خوان الثاني، وتمخض عن ذلك اعلان الوحدة بشكل رسمي بين التاجين على أسس دينية كاثوليكية⁽²⁾.

وهنا لا بد من الإشارة أن الملكة إيزابيل كانت قد اضطرت بعد تتويجها إلى مواجهة أطماع الملك البرتغالي الفونسو الخامس في شؤون مملكتها، وذلك عندما زحفت القوات البرتغالية نحو قشتالة عام 881هـ/1476م، والتقى الطرفان في شمال غرب مملكة قشتالة، إلى أن تمكن القشتاليون من تحقيق النصر، فاضطر الملك البرتغالي للانسحاب والاعتراف بحق إيزابيل في العرش⁽³⁾.

ومهما يكن؛ فقد شكل اتحاد التاجين البداية الحقيقية لتاريخ إسبانيا الحديثة، تحت شعار (سلطان واحد ودستور واحد ودين واحد)، وشرع الملكان في إجراء إصلاحات داخلية، ومقارعة النبلاء، وتجنيد الطاقات الشعبية واستثمارها للقضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس، ومن ثم التفرغ للتوسع خارج حدود الجزيرة الإيبيرية. ومن أجل تحقيق ذلك؛ قاما بإنشاء نوع جديد من المحاكم الدينية أطلق عليه (Holy Office)، لمحاربة الهرطقات الدينية، ومحاربة المسلمين واليهود⁽⁴⁾. واهتم الملكان بتقوية الجيش، وتعزيز سلاح المشاة بالمزيد من قطع المدفعية⁽⁵⁾، واسندت مهمة الدفاع عن المدن لمنظمات الفرسان الدينية كفرسان القديس يعقوب، وفرسان قلعة

(1) بلد الوليد: تقع إلى الشمال الشرقي من سمورة، على بعد ثلاثة أيام من جليقية، انظر: حتاملة، موسوعة، ج1، ص296.

(2) عاشور، أوروبا، ج1، ص676؛ عنان، دولة، ج4، ص(182-183)؛ ارسلان، خلاصة، ص129، الحل، ص192؛ القبيج، ص(99-100).

(3) عنان، دولة، ج4، ص184؛ ارسلان، خلاصة، ص130؛ القبيج، ص100؛ Bishko, III, p. 29؛ Howitt, p. 152.

. Elliott, pp. (22-23) 43؛ 156، 157.

(4) اليوسف، ص340؛ عاشور، أوروبا، ج1، ص586.

(5) القبيج، ص108.

رباح⁽¹⁾، وعملا على تنظيم القوانين القشتالية التي صدرت في المملكة إبان عهد الملك الفونسو العاشر (Alfonso X) (650-683هـ/1252-1284م)⁽²⁾، ومن ناحية أخرى؛ اهتم الملكان بالتوزيع العادل للضرائب، وإصلاح العملة، وتشجيع الحركة الاقتصادية التجارية والصناعية والزراعية⁽³⁾.

الأوضاع الداخلية في بلاد المغرب في القرن اتاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي

عاشت بلاد المغرب خلال أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي وأوائل القرن التاسع ظروفاً سيئة أدت إلى إصابتها بالضعف؛ وعلاوة على الأوضاع السياسية المضطربة، عانت البلاد من خطر نقشي وباء الطاعون، ما أدى إلى هلاك الكثير من أعيانها وعلمائها وتدهور أوضاعها الاقتصادية⁽⁴⁾. وأما من الناحية السياسية، وبخاصة الحفصية في بلاد المغرب الأدنى؛ فما أن توفي السلطان أبو العباس أحمد عام 796هـ/1394م حتى بدأت الدولة في عهد ابنه أبي فارس عبدالعزيز تعاني من خطر الاضطرابات الداخلية، وجاءت أولى بوادر الانشقاق من داخل الأسرة المالكة ذاتها على يد أخيه الأمير أبي بكر (ت. 799هـ/1396م) الذي قام بجمع أهالي ولاية قسنطينة، وأعلن نفسه سلطاناً، إلا أن شخصيته الضعيفة، وعدم قدرته على إدارة شؤون الإمارة، جرّت الولايات على البلاد، فعمّتها الفوضى⁽⁵⁾.

وفي العام التالي تمرد والي عنابة محمد بن زكريا، فزحف أبو فارس إليه وتمكن من هزيمته، فاضطر على إثرها إلى الفرار إلى بلاد المغرب الأقصى، وفي الوقت نفسه بادر والي قسنطينة المتمرد إلى إعلان الطاعة، إلا أنه ما لبث أن تراجع عن رأيه، مما دفع السلطان الحفصي إلى محاصرته، وتضييق الخناق عليه، حتى دخل المدينة عنوة، وأما الأمير أبو بكر فقد

(1) البشري، ص213.

(2) الفونسو العاشر: عرف بالحكيم أو العالم نظراً لاهتمامه الكبير بالأدب والفكر، وأبدى اهتماماً كبيراً بالثقافة الأندلسية، استطاع استرداد عدد من المدن من أيدي المسلمين، وعانت قشتالة في عهده العديد من الاضطرابات والحرب الأهلية بعد أن ثار عليه ابنه سانتشو (Sancho) في العام 681هـ/1282م وقام بخلعه، انظر: عنان، دولة، ج4، ص(104-105).

(3) عاشور، أوروبا، ج1، ص568؛ Bishko, III, p. 29؛ Elliott, p. 92.

(4) الناصري، الاستقصا، ج4، ص85.

(5) الزركشي، ص114؛ ابن الفنفذ، ص(189-190)؛ انظر أيضاً: برنشفيك، ج1، ص242؛ المطوي، ص553.

حُبس في تونس حتى وفاته عام 799هـ/1395م⁽¹⁾. إلا أن الاضطرابات لم تتوقف؛ إذ تمردت كلٌّ من صفاقس، وقابس، وجربة على حكم السلطان الحفصي، فجرد الحملات ضدها، وتمكن من إعادة النظام في بعضها، وأخذ يستعد للقضاء على تمرد كل من طرابلس، وبلاد الجريد كقفصة، وتوزر، وبسكرة، تلك المراكز التي دأبت على الثورة والعصيان، فأخذ يعد العدة ويبدل الجهود للقيام بتلك المهمة؛ فوجه الحملة الأولى عام 802هـ/1400م إلى بلاد الجريد التي كانت قد عادت لسلطة بني يملول، ولم يجد عناءً في استعادة توزر وما حولها⁽²⁾، ثم واصل زحفه نحو قفصة، فحاصرها وتمكن من إخضاعها⁽³⁾.

وعاد أبو فارس عام 803هـ/1401م لاستئناف أعماله العسكرية فتمكن من إخضاع طرابلس وإنهاء استبداد بني ثابت، ثم استعاد بسكرة من أبناء بني مزني فدخلت القوات الحكومية المدينة، ووصلت حملات السلطان الحفصي على تخوم الصحراء الطرابلسية، إلا أن الأمور لم تسر وفق ما أراد؛ بسبب مؤامرة كانت تحاك ضده، فعاد إلى تونس⁽⁴⁾. ومن أجل تأمين الحدود الغربية قام السلطان أبو فارس في العام 813هـ/1410م بالاستيلاء على مدينة الجزائر، وبدأ بالتوسع على حساب بني زيان في بلاد المغرب الأوسط، وبني مرين في بلاد المغرب الأقصى، فتم له ذلك، ولكن سلطانه عليهما لم يتوطد كما ينبغي، ثم ما لبثت الوفاة أن عاجلته عام 837هـ/1434م، فبويع أبو عبدالله محمد المنتصر الثاني (839-838هـ/1435-1434م) سلطاناً للدولة الحفصية⁽⁵⁾. واستغلت القوى الداخلية الطامعة غضاضة عهد السلطان الجديد، فقامت بالثورة ضده؛ إذ ثار عليه الأمير أبو يحيى زكريا (ت. 839هـ/1435م)، ولجأ عند أولاد أبي الليل، وأخذ يحثهم على العصيان، فواجهوا قوات الدولة واشتبكوا معها، ثم حاصروا العاصمة تونس، إلى أن تمكن السلطان من دحرهم والقبض على الأمير المتمرّد⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ ابن القنفذ، ص(192-193)؛ ابن حجر، إنباء، ج1، ص533؛ انظر أيضاً: المطوي، ص(554-555).

⁽²⁾ ابن القنفذ، ص197؛ برنشفيك، ج1، ص243.

⁽³⁾ الزركشي، ص120؛ انظر أيضاً: المطوي، ص(562-563)؛ برنشفيك، ج1، ص244.

⁽⁴⁾ الزركشي، ص122؛ ابن القنفذ، ص198؛ انظر أيضاً: برنشفيك، ج1، ص144؛ المطوي، ص566.

⁽⁵⁾ الزركشي، ص126، 132؛ الناصري، الاستقصا، ج4، ص91؛ انظر أيضاً: برنشفيك، ج1، ص246؛ المطوي، ص(602-605)؛ الميلّي، ج2، ص397، 461.

⁽⁶⁾ الزركشي، ص133؛ انظر أيضاً: برنشفيك، ج1، ص271؛ المطوي، ص608.

ولم تتوقف حركات التمرد خلال عهد السلطان أبي عمرو عثمان بن محمد (839-893هـ/1435-1488م)، ومنها الثورة التي قام بها عم أبيه أبو عبد الله محمد الحسين (ت. 839هـ/1435م) الذي تحالف مع الأعراب، إلى أن تمكن السلطان من القبض عليه، ثم توفي في سجنه في ربيع الثاني من العام 839هـ/ تشرين الثاني 1435م، كما اضطر إلى منح الأعراب من بني المهلهل امتيازات خاصة مقابل وقوفهم إلى جانبه ضد أبناء أبي الليل، الذين حاصروا العاصمة في العام المذكور، وقضى السلطان أبو عمر عثمان عهده كله وهو يكابد معاناة الصراع مع أهالي مدينة بجاية والأعراب الذين لم يهتموا سوى بمصالحهم الخاصة، ما أدى إلى إضعاف الجبهة الداخلية في بلاد المغرب الأدنى⁽¹⁾.

وأما بخصوص الدولة الزيانية في بلاد المغرب الأوسط؛ فقد عانت من هيمنة المرينيين على مقاليد الحكم فيها، حتى بدت في نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي كأنها ولاية مرينية، حيث جرت الدعوة والخطبة على المنابر الزيانية لسلطين بني مرين⁽²⁾، فضعفت الدولة وراحت الفتن الداخلية والفوضى السياسية تتفش جسدتها، وتمرد عدد من الأقاليم، واستقلت بعض القبائل بحكم مناطق نفوذها، وعم الفساد البلاط الزياني الذي امتلأ بالبطانة السيئة والرجال الماكرين الذين بذلوا كل الجهود في حبك المؤامرات⁽³⁾.

ولعل من أهم مظاهر الفوضى داخل الدولة الزيانية؛ تعرُّض السلطان عبد الرحمن الثالث ابن خولة (813-814هـ/1411-1412م) لفتنة داخلية على يد عمه السعيد بن أبي حمو موسى الثاني (814-814هـ/1411-1411م)، وتمكن من الإطاحة بابن أخيه وتولي الحكم بدلاً منه⁽⁴⁾، وأرهب السعيد بنفقاته خزينة الدولة، فدخلت البلاد في أزمة مالية حاول التقليل منها باتقال كاهل العامة؛ الأمر الذي أحدث حالة من الفوضى⁽⁵⁾، فاستغل المرينيون هذا الوضع

(1) للاطلاع على التفاصيل؛ انظر: الزركشي، ص(136-138)، (146-147)؛ انظر أيضاً: برنشفيك، ج1، ص(273-274)؛ المطوي، ص615، (623-626).

(2) القلقشندي، ج2، ص202؛ انظر أيضاً: الملي، ج2، ص460؛ الفيلاي، ج1، ص66.

(3) التنسي، ص229؛ الفيلاي، ج1، ص68.

(4) التنسي، ص234؛ انظر أيضاً: الجيلاني، ج2، ص187؛ الفيلاي، ج1، ص69.

(5) الجيلاني، ج2، ص188.

وقاموا بإطلاق سراح الأمير أبي مالك عبد الواحد بن أبي حمو الثاني (814-824هـ/1411-1424م) مجهزاً بالرجال، والمال وأرسلوه إلى تلمسان التي هاجمها في رجب 814هـ/تشرين الأول 1411م وتمكن من دخولها⁽¹⁾.

وعرف السلطان أبو مالك بالشجاعة والحزم والسهر على مصالح الدولة، وبقي نحو أربع عشرة سنة في العرش تمكن خلالها من إعادة هيبة الدولة، وتخليص المناطق الشرقية من الهيمنة الحفصية⁽²⁾، والتوسع غرباً نحو فاس، فتمكن من دخولها، واضعاً بذلك حداً للتدخل المريني في بلاده⁽³⁾، غير أن الأحوال سرعان ما تبدلت؛ فبعد أن تمكن السلطان من سد باب الخطر المريني كان باب الهيمنة الحفصية قد فتح من جديد؛ وذلك بعد قيام السلطان أبي فارس الحفصي بتجريد حملة نحو المغرب الاوسط عام 827هـ/1424م⁽⁴⁾، فتمكن من هزيمة القوات الزيانية المتواجدة خارج العاصمة، والمكلفة في الدفاع عنها، ففر السلطان الزياني أبو مالك إلى فاس⁽⁵⁾، ما مكن السلطان الحفصي من دخول تلمسان، ومكث فيها مدة من الزمن يعمل على ترتيب شؤونها، ومن ثم عين عليها الأمير الزياني محمد بن أبي تاشفين المعروف بابن الحمراء، وهو ابن أخ السلطان الفار⁽⁶⁾.

ولم تدم السيطرة الحفصية على تلمسان طويلاً؛ ففي العام 834هـ/1430م تولى السلطان الزياني أحمد المعتصم بن موسى (أبو حمو) الملقب بالعاقل (834-866هـ/1431-1462م) حكم الدولة، لاثنتين وثلاثين سنة، حكم خلالها الناس بالحسنى، فشهد المغرب الأوسط في عهده نوعاً من الاستقرار والرخاء الاقتصادي، غير أن سيرته الحسنة لم تشفع له عند افراد البيت الزياني الذين اصابتهم حمى السلطة؛ فكثرت في عهده الثورات والانقلابات من

(1) التنسي، ص 235؛ الفيلاي، ج 1، ص 69.

(2) الجيلاني، ج 2، ص 188؛ الفيلاي، ج 1، ص 69.

(3) التنسي، ص 241؛ الجيلاني، ج 2، ص 188.

(4) الميلي، ج 2، ص 461.

(5) الزركشي، ص 126؛ انظر أيضاً: الجيلاني، ج 2، ص 189؛ برنشفيك، ج 1، ص 257؛ الفيلاي، ج 1، ص 70.

(6) الزركشي، ص 126؛ انظر أيضاً: الجيلاني، ج 2، ص 198؛ المطوي، ص (512-513)؛ برنشفيك، ج 1، ص 251؛

الفيلاي، ج 1، ص 70.

قبل الأمراء الزيانيين، وعلى رأسهم أخوه الأمير أبو يحيى (ت. 855هـ/1433م) الذي أخذ البيعة من عدد من شيوخ القبائل، وفرض حصاراً حول العاصمة، وسيطر على وهران، وبقي فيها حتى أخرجها السلطان منها عام 852هـ/1450م، فتوجه إلى تونس، وبقي فيها حتى وفاته عام 855هـ/1433م⁽¹⁾.

وتزعّم الثورة في النواحي الشرقية من بلاد المغرب الأوسط عام 841هـ/1439م أبو زيان محمد المستعين بالله بن أبي ثابت (ت. 843هـ/1441م) بدعم من الحفصيين والأعراب، وتمكن من الاستيلاء على متيجة⁽²⁾، وتنس⁽³⁾، ومليانة⁽⁴⁾، والجزائر، والمدينة⁽⁵⁾، فانتهز الأمير أبو عبد الله محمد المتوكل على الله المستعين بالله (866هـ - 890هـ/1462-1485م) الفرصة وأعلن من مليانة شق عصا الطاعة، وبدأ عام 866هـ/1462م بالاستيلاء على المناطق الزيانية حتى وصل إلى تلمسان، وأجبر سلطانها أحمد العاقل على مغادرتها⁽⁶⁾.

وكان الحفصيون يتابعون ما يجري في المغرب الأوسط عن كثب، وينتظرون الفرصة من أجل توسيع نفوذهم، فجهز السلطان أبو عمرو عثمان جيشاً، وغادر تونس في شوال 866هـ/تموز 1463م قاصداً المغرب الأوسط، وعلى مشارف تلمسان بادر السلطان الزياني محمد المتوكل إلى إرسال وفدٍ ضم عدداً من الفقهاء والعلماء، لعقد الصلح ومبايعة الحفصيين⁽⁷⁾، الحفصيين⁽⁷⁾، غير أن السلطان الزياني ما لبث أن نكث بتعهداته⁽⁸⁾، مما اضطر الحفصيين إلى استغلال الخلافات الداخلية الزيانية، وتنصيب من كانوا يرون فيه القدرة على عرش الدولة

(1) التنسي، ص(248-249)؛ انظر أيضاً: الجيلاني، ج2، ص191؛ الفيلاي، ج1، ص72.

(2) متيجة: مدينة بالقرب من الجزائر، وتقع على نهر كبير، انظر: الحميري، الروض، ص532.

(3) تنس: مدينة تقع على سفح جبل يبعد نصف فرسخ عن البحر المتوسط، في منتصف الطريق بين مدينة وهران والجزائر، حيث تبعد عن كل منهما ثلاثين فرسخاً، انظر: مارمول، ج2، ص354.

(4) مليانة: مدينة في أحواز أشير في المغرب الأوسط، بين تنس والمسيلة بالقرب من نهر شلف، وعلى بعد ثلاثة أميال منها جبل وانشريس، انظر: الحميري، الروض، ص547.

(5) المدينة: مدينة كبيرة تقع على سهل خصيب على بعد خمسين فرسخاً من مدينة الجزائر، وعلى بعد ستين فرسخاً شرقي تلمسان، انظر: مارمول، ج2، ص373.

(6) التنسي، ص(249-251)، 254؛ انظر أيضاً: الفيلاي، ج1، ص72؛ الملي، ج2، ص192.

(7) الزركشي، ص(152-153)؛ انظر أيضاً: الجيلاني، ج2، ص193.

(8) الزركشي، ص175؛ انظر أيضاً: الفيلاي، ج1، ص73.

الزيانية لحكمها باسمهم، وتكررت الحملات الحفصية ضد تلمسان عام 870هـ/1466م، وعندما كان الضغط الحفصي يشند على الدولة الزيانية؛ كانت الأخيرة تتظاهر بإعلان الطاعة كما حدث في العام التالي⁽¹⁾.

وبقيت الأوضاع في المغرب الأوسط على هذه الحالة، وبعد وفاة السلطان الزياني المتوكل في العام 890هـ/1485م؛ خلفه على العرش الزياني أبو ثابت محمد السادس (890-902هـ/1485-1496م)، وكان ضعيف الشخصية، عاجزاً عن القيام مهام السلطان، فانتشرت الفوضى والاضطرابات، ولم يبق من رسوم الدولة في عهده سوى اسمه على النقود التي سكّها⁽²⁾.

ولم تكن أحوال الدولة المرينية في بلاد المغرب الأقصى أحسن حالاً؛ وعلى الرغم من حسن سيرة السلطان المنتصر بالله عبد العزيز بن أحمد بن أبي سالم (796هـ-799هـ/1393م-1396م)، إلا أنه لم يتمكن من السيطرة على مقادير الدولة، فشهدت البلاد في عهده ظهور طبقة الحجاب؛ حيث هيمنت على شؤون الدولة بعد العام 799هـ/1396م⁽³⁾. وعندما تولى أبو سعيد عثمان بن أبي العباس عرش الدولة المرينية، حاول القضاء على نفوذ الحجاب، إلا أنه فشل في ذلك بسبب حالة الضعف التي كانت تعاني منها الدولة، فضلاً عن صغر سن السلطان⁽⁴⁾.

وكان أول حاجب لهذا السلطان هو الفقيه أبو العباس أحمد أبي علي القبائلي (ت. 802هـ/1400م)⁽⁵⁾، وكان ذا مكانة عظيمة ونفوذ واسع، فكثرت بحقه الوشائيات حتى قام السلطان بقتله في شوال 802هـ/حزيران 1400م، ومن الذين تولوا الحجابة للسلطان أبي سعيد

(1) الزركشي، ص 157؛ انظر أيضاً: المطوي، ص (634-635)؛ الجيلاني، ج 2، ص 195؛ الفيلاي، ج 1، ص 73.

(2) الجيلاني، ج 2، ص 195، 462.

(3) المرجع نفسه، ج 2، ص 194.

(4) ابن الأحمر، ص 40؛ الناصري، ج 4، ص 86.

(5) أبو العباس القبائلي: فقيه وكاتب مشهور وحاجب، كان من كبار الأعيان، وبلغ من الجاه والنفوذ مبلغاً عظيماً، ومع ذلك كان يحابي الأقارب والأرحام، مما أدى إلى تألب القلوب عليه وكثرة الوشاية فيه، انظر: الناصري، ج 4، ص 86.

عثمان؛ فارح بن مهدي العليج (ت 806هـ/1404م)، وكان شيخاً عارفاً بالأمر ضالعاً في التدبير وقد أعطى الرئاسة حقها⁽¹⁾. وبعد وفاة أبي سعيد عثمان تولى عرش الدولة من بعده ابنه الأمير عبدالحق بن أبي سعيد (823-869هـ/1420-1465م)، فكان آخر ملوك بني عبد مرين وأطولهم مدة وأعظمهم محنة؛ حيث تحكّم الحجاب والوزراء بالسلطة، وقد تولى منصب الحجابة عددًا من أبناء البيت الوطاسي، وهم فرع من بني مرين الطامعين في الحكم⁽²⁾، ومن هؤلاء الوزير أبو زكريا يحيى بن زيان الوطاسي الذي قتله الأعراب عام 852هـ/1448م، وبعد مقتله تولى الوزارة من بعده اثنان من أبناء البيت الوطاسي، فأخذوا يبدلون مراسم الملك وعوائد الدولة، وأنقصوا في أعداد الجند، وعاملوا الرعية بتعسف وقسوة، مما اضطر السلطان المريني للإيقاع بهم⁽³⁾، ولم ينجُ منهم سوى محمد الشيخ الوطاسي الذي سيكون له الفضل الأكبر في إنشاء الدولة الوطاسية فيما بعد⁽⁴⁾.

ومما أثار المشاعر الغاضبة لدى العامة؛ قيام السلطان عبدالحق بتولية اليهوديين هارون وزيراً وشاويل حاجباً⁽⁵⁾، وزادت الأمور سوءاً بعد قيامهما بمصادرة أموال أهالي فاس⁽⁶⁾، وقمع وقمع الأشراف والفقهاء، فضاقت الأحوال على الرعية، ووصلت الدولة إلى درجة كبيرة من الضعف والانحلال⁽⁷⁾، فهاجت العامة وهاجمت حارة اليهود، وقتلوهم وأخذوا أموالهم، وكان السلطان يتواجد في ذلك الوقت خارج فاس⁽⁸⁾، وما أن عاد حتى قبض الناس عليه وقتلوه في رمضان 869هـ/نيسان 1465م⁽⁹⁾، وبموته طوت الدولة المرينية آخر صفحاتها.

(1) الناصري، ج4، ص(86-93).

(2) عنان، دولة، ج4، ص165.

(3) الناصري، ج4، ص(94-95)، 97.

(4) المصدر نفسه، ج4، ص97؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص165.

(5) الغنيمي، ج6، ص17.

(6) المرجع نفسه، ج6، ص17.

(7) الناصري، ج4، ص98.

(8) الزركشي، ص165؛ الناصري، ج4، ص99.

(9) الناصري، ج4، ص100؛ انظر أيضاً: أبو ضيف، ص178.

الحملة الإسبانية ضد مدن الساحل الجزائري (800هـ/1398م، 867هـ/1462م)

عانت بلاد المغربين الأدنى والأوسط من الهجمات الإسبانية المتكررة ضد مدنها وموانئها، لأسباب كثيرة ذكرت سابقاً، وأتت الحملات ضد مدن تدلس وعنابة انسجاماً مع تلك الأسباب والمبررات، والتي كان من أبرزها السعي نحو التوسع وإقامة الجيوب على السواحل المغربية، وملاحقة المهاجرين الأندلسيين الذين دأبوا على الاشتراك مع الجزائريين في مهاجمة ممتلكاتهم⁽¹⁾، وكذلك بهدف احتكار التجارة البحرية ومنافسة الجنوبيين، وشلّ التجارة الإسلامية في المتوسط⁽²⁾.

ولعل من أهم الأسباب التي جعلت الأراغونيين يهاجمون المدن المذكورة، وبخاصة مدينة تدلس الساحلية الواقعة بين بجاية والجزائر؛ قيام أهالي مدينة بجاية التابعة للحفصيين بمهاجمة سواحل مدينة بلنسية⁽³⁾ وتخريب إحدى الكنائس ونهب محتوياتها، وسبي نحو مائة من السكان في العام المذكور، وكانت الدولة الحفصية في عهد السلطان أبي فارس قد ارتبطت بعلاقات سلمية ومنظمة مع كل من صقلية وأرجون، غير أن الأمور ما لبثت أن انقلبت رأساً على عقب بعد وفاة الملك الأراغوني يوحنا الأول (Juan I) (789-797/1387-1395م)⁽⁴⁾ وتولي الملك الملك مارتن الأكبر (Martin I) (797-813هـ/1395-1410م)⁽⁵⁾، وحينها صبغت العلاقات بصبغة عدائية، وبدأت بوادرها عام 800هـ/1398م، عندما قرر الأراغونيون مهاجمة مدينة

(1) الجمل، المغرب، ص 79؛ المدني، ص 74؛ رضوان، الغزوات، م 1، ج 6، ص 549؛ العقاد، ص 16.

(2) العروي، ص 431.

(3) بلنسية: تقع في شرق الأندلس، وبينها وبين قرطبة ستة عشر يوماً، وبينها وبين البحر ثلاثة أميال، وتقع على نهر جار يستفيد أهلها منه في الزراعة، انظر: الحميري، صفة، ص 97.

(4) يوحنا الأول: تولى عرش أراغون بعد وفاة والده بيدرو الرابع (Pedro IV) (764-789هـ/1363-1387)، وكان ملكاً ضعيف الخلال مغرمًا بالأدب والشعر والصيد، انظر: عنان، دولة، ج 4، ص 178.

(5) مرتين الأول: تولى عرش أراغون خلفاً لأخيه يوحنا الأول (Juan I) (789-797هـ/1387-1395)، وشهدت المملكة في عهده تطوراً كبيراً حتى سمي عصره بالعصر الذهبي، وبعد وفاته لم يترك وريثاً فدخلت البلاد في أزمة وراثية العرش، وظهر عدد من المتنازعين عليه، فتولى الكورتييس الحكم لمدة عامين، انظر: عاشور، أوروبا، ج 1، ص 582.

تدلس بقرار من حكام مدينة بلنسية، وانضم إليهم مقاتلون من مدينتي قطلونية وميورقة، بدعم ومباركة من البابا بونيفاس التاسع (Bonifacius IX) (791-806هـ/1389-1404م)⁽¹⁾.

ويبدو أن الأراغونيين كانوا يرغبون في مهاجمة مدينة بجاية، إلا أنهم غيروا مسار الحملة صوب تدلس، إحدى المدن التابعة إدارياً لبني زيان، وأقرب نقطة جغرافية من بلاد الحفصي، فحاول السلطان الحفصي تجنب مخاطر الحملة الإسبانية من خلال الدخول في مفاوضات مع الملك الأراغوني، فطلب الأخير من الحفصيين إعادة مقتنيات الكنيسة، وإطلاق سراح الأسرى، وتسديد الضريبة المستحقة على المملكة الحفصية، والسماح لصقلية باستعادة جزيرة جربة، وإعفاء تجار أراغون وصقلية من الجمارك، مقابل عقد صداقة مشتركة بينهما، وتقديم إعانة عسكرية للحفصيين ضد أعدائهم الداخليين، إلا أن السلطان الحفصي رفض هذه الشروط⁽²⁾.

على أي حال؛ جرت التحضيرات للحملة تحت إشراف الملك مارتن ومساندته، وكان يرغب بالوقوف على رأسها بنفسه؛ ولكن انشغاله بالأوضاع الداخلية قد حال دون ذلك⁽³⁾، ولم تذكر المصادر التاريخية اسم قائد الحملة أو عدد قواتها، ولكنها أشارت لعدد قطع الأسطول، حيث تكون من سبعين سفينة⁽⁴⁾، وقيل تسعون⁽⁵⁾، وجعلت من جزر البليار مكاناً لتجمعها، استعداداً للإبحار صوب بلاد المغرب⁽⁶⁾. وما أن وصلوا السواحل المغربية في ذي الحجة 800هـ/ آب 1398م حتى قاموا بمهاجمة مرسى القل⁽⁷⁾ ودلس⁽⁸⁾، وتمكنوا من الاستيلاء على

(1) برنشفيك، ج1، ص(251-252).

(2) المرجع نفسه، ج1، ص(251-252).

(3) المرجع نفسه، ج1، ص251.

(4) ابن القنفذ، ص196؛ انظر أيضاً: برنشفيك، ج1، ص251.

(5) الجيلاني، ج2، ص187.

(6) برنشفيك، ج1، ص251.

(7) مرسى القل: مدينة قديمة أقيمت على ساحل البحر المتوسط، كانت في الماضي مدينة كبيرة كثيرة السكان وذات أسوار عالية، تصل بينها وبين قسنطينة جبال شديدة الارتفاع، وبينها وبين جبل سبعون ميلاً، انظر: الحميري، السروض، ص466؛ انظر أيضاً: مارمول، ج2، ص6.

(8) الجيلاني، ج2، ص187.

مدينة تدلس ونهبها وإضرار النار ببيوتها⁽¹⁾، وقتل ثلاثمائة من أهلها، وأسر نحو مائة وخمسين شخصاً⁽²⁾.

وتعرضت مدينة عنابة الواقعة على ساحل البحر، شمال شرق البلاد الجزائرية لثلاث هجمات في فترات متفاوتة، فجاءت الأولى عام 800هـ/1398م، أثناء قيام الأسطول الأراغوني بمهاجمة تدلس، إلا أن أهالي المدينة تمكنوا من صد المهاجمين وإجبارهم على الرحيل⁽³⁾، ولكن هذه النتيجة لم تكن مرضية لحكام بلنسية وميورقة، فأخذوا يعدون العدة لمهاجمة عنابة من جديد، فأضافوا مائة سفينة إلى سفن حملة تدلس، وعندما اكتملت التجهيزات غادر الأسطول ميناء ماهون في ذي الحجة المذكور قاصداً مدينة عنابة⁽⁴⁾.

وبعد إبحار استمر قرابة الأسبوع وصل الأسطول الصليبي إلى ميناء عنابة، فأخذت القوات بالنزول على بر المدينة استعداداً لاقتحامها، لكنهم سرعان ما أدركوا صعوبة الأمر وعدم قدرتهم على الاقتحام لمنعتها والاستعداد الجيد من قبل أهلها⁽⁵⁾، وبخاصة بعد أن علموا بأمر الهجوم من أحد مسلمي بلنسية، فضلاً عن تلقيهم الإمدادات البشرية والعسكرية من الحفصيين، بما في ذلك المدافع، التي نصبت فوق أسوار المدينة، وأخذت تطلق قذائفها دون توقف، إلا أن المهاجمين تمكنوا من الاستيلاء على أحد أبراج المدينة، فدحرهم المدافعون وطردوهم من البرج⁽⁶⁾، واستحوذوا على قسم من سلاحهم وعتادهم⁽⁷⁾.

وعندما أدرك قائدا الأسطوليين البلنسي والميورقي عقم محاولات قواتهما؛ ابتعدا عن بر عنابة للتشاور حول وضع الخطط المناسبة للانسحاب، إلا أنهما لم يتمكنوا من الاتفاق، فانسحب

(1) ابن القنفذ، ص196؛ انظر أيضاً: الجيلاني، ج2، ص187؛ برنشفيك، ج1، ص252.

(2) برنشفيك، ج1، ص252.

(3) الجيلاني، ج2، ص187.

(4) برنشفيك، ج1، ص(252-253).

(5) ابن القنفذ، ص196؛ انظر أيضاً: برنشفيك، ج1، ص253.

(6) برنشفيك، ج1، ص253.

(7) ابن القنفذ، ص196.

الأسطول البننسي صوب ميناء حلق الوادي⁽¹⁾، إلا أنه لم يستطع الوصول بسبب الأوضاع الجوية السيئة⁽²⁾، بينما عاد الأسطول الميورقي إلى بلاده بعد رحلة شاقة، وحاول خلال الطريق الدخول إلى ميناء القل ولكنه فشل⁽³⁾، فعمد الميورقون على إشعال النيران فيه، وفعلوا الأمر ذاته ذاته في ميناء جيجل⁽⁴⁾، أما الهجوم⁽⁵⁾ الثالث ضد عنابة فكان في العام 867هـ/1462م رداً على عمليات الجهاد البحري الإسلامي التي كان يقوم بها أهلها بالتعاون مع مهاجري الأندلس، وتمكنوا في هذا العام من السيطرة عليها⁽⁶⁾.

الهجوم الإسباني على تطوان عام 803هـ/1400م، وقرقنة عام 827هـ/1424م

لم يطمع الإسبان بالاستقرار في أي من المدن أو الجزر التي هاجموا قبل العام 903هـ/1497م؛ فاقترعت هجماتهم على النهب والتخريب ثم الرحيل⁽⁷⁾، وقد ساروا وفق هذا النهج في هجومهم على مدينة تطوان في العام 803هـ/1400م، في عهد الملك القشتالي هنري الثالث الذي جرد ضدها حملة بحرية، فتمكنت من السيطرة عليها، ومن ثم نهبها وتدميرها بشكل كامل، وأسر جميع سكانها بحجة قيامهم بمهاجمة المدن الساحلية الإسبانية⁽⁸⁾.

وبدوره استغل الملك الأراجوني الفونسو الخامس (Alfonso V) (819-862هـ/1416-1458)⁽⁹⁾ انشغال السلطان أبي فارس بالشؤون الداخلية في بلاد المغرب⁽¹⁰⁾، وتواجهه

(1) ميناء حلق الوادي: مدينة وميناء تجاري تونسي، وتوجد في جهة الغربية منه قلعة غير محصنة ومسجد وبرج عالٍ بالإضافة إلى ربضين كبيرين أحدهما في الشمال والآخر في الجهة الجنوبية، وربض ثالث مخصص للتجار المسيحيين خارج باب البحر انظر: مارمول، ج3، ص20.

(2) برنشفيك، ج1، ص254.

(3) ابن القنفذ، ص196؛ انظر أيضاً: برنشفيك، ج1، ص254.

(4) جيجل: مدينة مغربية صغيرة واقعة على ضفة البحر المتوسط، بينها وبين بجاية خمسون ميلاً، تعرف بخصوبة أرضها انظر: الحموي، الروض، ص184.

(5) برنشفيك، ج1، ص254.

(6) الجيلاني، ج2، ص(192-193).

(7) العروي، ص431.

(8) الوزان، ج1، ص320؛ انظر أيضاً: مارمول، ج2، ص222؛ العروي، ص431.

(9) الفونسو الخامس: عرف بالشهم، وكان ذا خبرة سياسية فتمكن من مد نفوذه على صقلية وسردينيا وأرغونة والجزء الجنوبي من مملكة نابولي، انظر: عاشور، أوروبا، ج1، ص583.

(10) الزركشي، ص126.

في بعض المناطق النائية من أجل تبني المشروع الصقلي القائم على فكرة السيطرة على جزيرة جربة، مستغلين قيام بعض المجاهدين المسلمين في العام 817هـ/1424م بمهاجمة إحدى السفن الإسبانية⁽¹⁾، فأخذوا بالتمهيد والاستعداد للهجوم على المدينة، عبر إرسال البعث الاستطلاعية للوقوف على حالتها العامة والإطلاع على عوراتها⁽²⁾، وبعد أن تم لهم ذلك؛ جمع الأراغونيون أسطولاً تراوح عدد سفنه ما بين خمس وعشرين⁽³⁾ وخمسين سفينة، على متنها عشرة آلاف مقاتل⁽⁴⁾، وبعدها رسوا في ميناء سرقوسة الصقلي للتزود بالمؤن اتجهوا إلى بلاد المغرب عن طريق مالطة التي غادورها في 16 شوال 827هـ/10 أيلول 1424م، وكان الهدف من الهجوم في بادئ الأمر السيطرة على جربة؛ إلا أن قائد الحملة عدل عن رأيه بعدما أدرك عدم قدرته على مهاجمتها، فغير وجهة الأسطول وأغار في 22 شوال/19 أيلول على جزيرة قرقنة⁽⁵⁾.

وكانت جزيرة قرقنة - في ذلك الوقت - تفتقر لوسائل الدفاع العسكرية والبشرية، فلم يزد عدد سكانها عن الألفي نسمة، مما مكن الإسبان من السيطرة عليها على الرغم من المقاومة المستميتة التي بذلها الأهالي، الذين استشهد منهم نحو مائتان، وأسر عدد كبير من الرجال والنساء والأطفال، أما خسائر المهاجمين فبلغت أربعمئة قتيل، ومن الغريب أن السلطان أبا فارس قد اجتمع في صفاقس مع وفد مرسل من المهاجمين للاتفاق حول إطلاق سراح الأسرى مقابل فدية؛ فطالبوا بخمسين ألف دينار، فعد السلطان الأمر ابتزازاً ورفض دفع المبلغ⁽⁶⁾، كما رفض الاستماع لأحد مستشاريه الذي طلب منه إلقاء القبض على الوفد ومبادلتهم مع الأسرى، فغادر الأسطول بمن على متنه من أسرى إلى مالطة وصقلية⁽⁷⁾.

(1) برنشفيك، ج1، ص260.

(2) الجيلاني، ج2، ص(197-198).

(3) برنشفيك، ج1، ص260.

(4) المطوي، ص578.

(5) برنشفيك، ج1، ص260.

(6) الزركشي، ص(126-127)؛ انظر أيضاً: المطوي، ص579؛ برنشفيك، ج1، ص261.

(7) الزركشي، ص(126-127)؛ انظر أيضاً: المطوي، ص579.

الحملة الإسبانية ضد جزيرة جربة عام 835هـ/1432م

رداً على الهجوم على قرقنة؛ قام المسلمون بعدد من عمليات الجهاد البحري ضد الأراضي الإسبانية مستغلين انشغال الملك الأراغوني الفونسو الخامس بالشؤون الداخلية، فاشتبك الأسطول الإسلامي بقيادة السلطان المخلوع محمد التاسع الأيسر في عرض البحر مع الأسطول الإسباني⁽¹⁾، بينما تمكن القائد الحفصي رضوان من نهب جزيرة مالطة لعدة أيام⁽²⁾، فكان لا بد من الرد على هذه العمليات، ولهذا أخذ الملك الأراغوني بالتجهيز لحملة عسكرية ضد أحد الشواطئ الإسلامية، واستغرق التجهيز ثلاث سنوات تمكن خلالها من إعداد جيش كبير، ومائة وثلاثين زورقاً من ميورقة وسردينيا وصقلية ومالطة بقيادة الملك نفسه، على الرغم مما تعانيه بلاده من أوضاع داخلية سيئة، وانطلق الأسطول من قطلونية في رمضان 835هـ/أيار 1432م⁽³⁾.

وما أن وصل الأسطول إلى جزيرة جربة في ذي الحجة/منتصف شهر آب⁽⁴⁾؛ حتى بدأ بدأ بأعمال الإنزال في الطريق الواصلة ما بين جزيرة جربة واليابسة من الناحية الجنوبية الشرقية⁽⁵⁾، وكان بانتظارهم الجنود الحفصيون المكفون بالدفاع عن الجزيرة، بينما رابط السلطان أبو فارس، بعدما علم بأمر الهجوم، مع عدد من جنوده وكبار رجال دولته في قفصة وأرسل منها فرقة عسكرية إلى جربة وصلتها بعد عشرة أيام من وصول الإسبان⁽⁶⁾.

ومرت عدة أيام دون أن يقوم أي طرف بأية مبادرة عسكرية، وفي يوم 4 محرم/30 آب شن المسلمون غارة فاشلة على المعسكر المسيحي، فردوا بالهجوم على المعسكر الإسلامي مستغلين معرفتهم بأوقات مغادرة العساكر الحفصية لأماكنهم، وخلو خيمة السلطان أبو فارس من

(1) برنشفيك، ج1، ص261.

(2) الزركشي، ص127؛ انظر أيضاً: برنشفيك، ج1، ص261.

(3) برنشفيك، ج1، ص262.

(4) الزركشي، ص(129-130)؛ ابن الشماع، ص116.

(5) برنشفيك، ج1، ص262.

(6) الزركشي، ص(129-130)؛ ابن الشماع، ص116.

الحراسة، فتمكنوا من السيطرة على الحصون الحفصية المتقدمة، والاستحواذ على عشرين منجنيقاً وعدة ألوية، وبعض أسلحة السلطان الذي تمكن من الفرار بأعجوبة⁽¹⁾.

وبعد هذه الحادثة قرر الملك الأراغوني الفونسو الخامس القيام بتطويق المسلمين والقضاء عليهم، ولكنه أدرك صعوبة المهمة بعدما تمكنت مجموعة من الجنود المسلمين من العبور إلى القسم المحتل عبر إحدى الجهات التي تتحسر عنها المياه، فخشي الفونسو تطويقه من الأمام والخلف، في ظل النقص في المؤن والذخيرة الذي عانى منه الإسبان⁽²⁾، فأثر الرحيل عن الجزيرة في الخامس من محرم 836هـ/ أيلول 1432م⁽³⁾، بعد أن أقام فيها سبعة وعشرين يوماً⁽⁴⁾.

وأخيراً يمكن القول: إنَّ الإسبان لم يتركوا وسيلةً إلا واستخدموها في سبيل تحقيق مصالحهم ومخططاتهم في المغرب، حيث قام الملك القشتالي خوان الثاني عام 851هـ/1449م بمنح دوق مدينة شذونة مبلغاً كبيراً من عملة المرابطية⁽⁵⁾، لتشجيعه على مهاجمة المدن الساحلية الساحلية في بلاد المغرب⁽⁶⁾.

أحوال مملكة غرناطة حتى نهايات القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي

لعبت الأحوال الداخلية المضطربة في مملكة غرناطة، آخر الممالك الإسلامية في الأندلس، دوراً كبيراً في إضعافها وفي تمكين الإسبان من الاستمرار في ممارسة سياسة إعادة الاسترداد بقوة وصولاً نحو القضاء عليها. ولعل من أهم أسباب الضعف الذي ألمّ بها؛ الخلافات الداخلية التي تمحورت حول السلطة والمسؤوليات السياسية. فعندما اعتلى السلطان الغرناطي الغني بالله محمد السابع بن يوسف (795-810هـ/1393-1408م) عرش مملكة غرناطة؛ عمد

(1) الزركشي، ص(129-130)؛ انظر أيضاً: المطوي، ص583.

(2) المطوي، ص583؛ برنشفيك، ج1، ص262.

(3) المقرزي، ج4، ق3، ص882؛ الصيرفي، ج3، ص249.

(4) الزركشي، ص130؛ ابن الشماخ، ص116.

(5) المرابطي: عملة إسبانية نقدية ذهبية ثم فضية كانت تزن 32 جرام. انظر: أبو مصطفى، ص(314-315)، 319.

(6) التازي، الوسيط، ج2، ص272.

الى الإيقاع بأخيه يوسف المرشح للعرش من بعده، فسجنه في قلعة المنكب⁽¹⁾، وظل يوسف هذا في سجنه حتى مات أخوه، فأطلق سراحه واعتلى سدة الحكم باسم يوسف الثالث (810-820هـ / 1408-1417م)، وكان راجح العقل، عادلاً، ذا خبرة في شؤون الحكم، فأحبه الشعب وعلّق الناس عليه آمالاً كبيرة⁽²⁾، غير أن الهزائم التي منيت بها المملكة خلال عهده قد جعلتها تسير نحو الضعف حتى وفاته عام (820هـ / 1417م)، فخلفه على العرش ابنه أبو عبد الله محمد الثامن الملقب بالأيسر (831-820هـ / 1428-1417م)⁽³⁾.

واتسم عهد الأيسر بالفوضى والفتن والثورات الداخلية، بدعم من البلاط القشتالي، وكذلك بسبب بعده عن الرعية، وعدم اهتمامه بالمصالح العامة، معتمداً في الحكم على أبناء بني سراج⁽⁴⁾، الذين كانوا قد ساعدوه في الوصول للحكم، وحاول وزيره يوسف بن سراج (ت. 839هـ-1436م) تلطيف الجو بين السلطان وشعبه⁽⁵⁾، إلا أن كل هذه المحاولات لم تساعد في تخفيف السخط الشعبي، الذي ازداد بعد قيام الإسبان بمهاجمة بسائط وادي آش، وعجز السلطان يوسف عن مواجهتهم، فاندلعت ضده ثورة عام 830هـ/1427م، عزل على إثرها، ونصّب مكانه ابن اخته محمد بن محمد بن يوسف الثالث (830-832هـ / 1427-1429م) الملقب بالزغير، وهي كلمة عامية أصلها الصغير، وفرّ الأيسر على إثر ذلك إلى تونس عند السلطان أبي فارس الحفصي⁽⁶⁾. وقد حاول السلطان الجديد القضاء على الفتن، والحد من نفوذ بني سراج سراج ألد خصومه، فخاف يوسف بن السراج من بطشه، وغادر إلى إشبيلية عند الملك القشتالي خوان الثاني، وطلب منه المساعدة في إعادة السلطان المخلوع محمد الأيسر الذي ما لبث أن

(1) فرحات، ص41؛ حتاملة، الأندلس، ص590.

(2) حتاملة، الأندلس، ص(591-592)؛ انظر أيضاً: Conde, p. 624.

(3) ابن عاصم، ج1، ص13 من مقدمة المحقق؛ عنان، دولة، ج4، ص154؛

Conde, p. 627.

(4) بنو السراج: أسرة عربية يعود نسبها إلى منجج وطيء وفدوا إلى الأندلس مع الفاتحين الأوائل، لم يظهروا على الساحة السياسية إلا في أواخر عهد سلاطين مملكة غرناطة، انظر: هوتسما، م ت ت وأرنولد، ج11، ص333.

(5) عنان، دولة، ج4، ص(154-155)؛ فرحات، ص44؛ سالم، بنو السراج، ص20.

(6) ابن حجر، انباء، ج3، ص511؛ السخاوي، الضوء، ج10، ص68؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص155؛ فرحات، ص44.

عاد، ونزل في المرية بمن معه من فرسان مغاربة وهدايا لملك قشتالة، فاستقبل بحفاوة من الشعب، وأنضم إليه معظم الجنود الذين أرسلهم خصمه لمحاربته، فزحف بهم إلى غرناطة، وتمكن من إلقاء القبض على الصغير وقتله⁽¹⁾.

وبذلك عاد الأيسر إلى عرش للمرة الثانية، وعاد معه الوزير يوسف بن سراج إلى منصبه، وأخذ يهتم بمملكته ويعمل على المحافظة على استقرارها، ولكن هذا الاستقرار قد عكره طلب الملك القشتالي خوان الثاني دفع أتاوة كبيرة، والإفراج عن الأسرى الإسبان، والالتزام بالطاعة لقاء المساعدة التي قُدمت له، فقابل السلطان ذلك بالرفض⁽²⁾، وحينها أرسلت قشتالة السفراء المحملين بالهدايا للحفصيين والمرينيين تطلب منهم عدم التدخل في شؤون الأندلس؛ حتى يسهل على القشتاليين محاربة أهلها⁽³⁾.

وخلال هذه الفترة ظهر أحد دعاة الإصلاح من المتصوفة، وهو يوسف بن المدجن (ت. 834هـ/1431م)، فثار في وجه الدولة عام 834هـ/1431م، وهاجم بعض أرباض غرناطة، وأخذ يدعو الناس إلى مبايعته، فانضم إليه بعض الغوغاء، إلا أن السلطان تمكن من القضاء على ثورته⁽⁴⁾. وما أن ارتاح الأيسر من فتنة ابن المدجن؛ حتى اندلعت فتنة أخرى تزعمها أحد أقاربه، وهو أبو الحجاج يوسف بن محمد بن إسماعيل بن المول (ت. 835هـ/1431م)، وكان أميراً قوياً الشخصية، وافر الثراء، حيث قام بالتحالف مع الملك القشتالي خوان الثاني، وأثار كثيراً من الفتن والقتال⁽⁵⁾، وبسبب القوة التي كان يتمتع بها ابن المول؛ فقد تمكن في أوائل عام 835هـ/1431م من السيطرة على كل من رندة، ولوشة، وحصن اللوز وغيرها من المناطق⁽⁶⁾، ومن ثم توجه قاصداً غرناطة، فالتقى على أبوابها بمناصري السلطان الأيسر وفي

(1) عنان، دولة، ج4، ص156؛ فرحات، ص44.

(2) عنان، دولة، ج4، ص158؛ سالم، بنو السراج، ص21.

(3) عنان، دولة، ج4، ص158.

(4) ابن عاصم، ج1، ص(186-188)؛ انظر أيضاً: حتاملة، الأندلس، ص594.

(5) ابن حجر، انباء، ج3، ص511؛ السخاوي، الضوء، ج10، ص68؛ انظر أيضاً: فرحات، ص45؛ عنان، دولة، ج4، ص158.

(6) عنان، دولة، ج4، ص160؛ سالم، بنو السراج، ص22.

مقدمتهم وزيره؛ ف وقعت بين الطرفين معركة انتهت بهزيمة المناصرين ومقتل الوزير بن السراج⁽¹⁾، ثم نصب ابن المول نفسه سلطاناً على المملكة⁽²⁾. وأما الأيسر ففر بمن معه من القادة والفرسان والأجناد الى مالقة التي أخذ منها قاعدة لاستعادة عرشه المسلوب⁽³⁾، فانقسمت البلاد على إثر ذلك ما بين مؤيد للايسر ومعارض له، إلى أن تمكن من استعادة عرشه للمرة الثالثة (844-839هـ/1436-1441م)⁽⁴⁾، بفضل المساعدة التي قدمها له السلطان الحفصي أبو فارس والفونسو الخامس ملك أراغون⁽⁵⁾.

واستمر الأيسر بعد عودته للعرش على نهجه السابق في القسوة والتعالي على شعبه، فنار عليه عام 848هـ/1445م ابن عمه والي مدينة المرية الأمير محمد بن عثمان الأحنف، أو الأعرج، وتمكن من الاستيلاء على قصر الحمراء بالإضافة إلى عدد من الحصون، ونصب نفسه سلطاناً، ومن الجدير بالذكر أن فترات حكم الأيسر قد بلغت ما يقرب من خمسة عهود مختلفة، مما يدل على حجم الفوضى التي عانت منها بلاد الأندلس في هذه الحقبة من تاريخ مملكة غرناطة، وعلى الرغم من كثرة الفتن التي واجهت عهد الأيسر؛ فإن فتنة ابن أخيه أبي الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر (849-851هـ/1445-1447م) تعد الأسوأ، حيث استطاع السيطرة على مقاليد الحكم وتلقب بالمؤيد بالله⁽⁶⁾.

ولعل من أهم الآثار السلبية التي ترتبت على هذه الأوضاع المضطربة؛ استمرار لجوء الحكام الأندلسيين في الاستجداد بالملوك الإسبان من أجل مساعدتهم على الصعود إلى سدة الحكم، وتثبيت سلطتهم؛ فبعد أربعة أشهر من تنصيب أبي الحجاج اندلعت ضده ثورة قادها الرئيس أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر (ت. 854هـ/1450م) بدعم من بلاط قشتالة، فهاجم الثائرون حصون شمال غرناطة، إلا أنهم لم يتمكنوا من تحقيق أهدافهم بعد أن تمكن من أبو

(1) عنان، دولة، ج4، ص160؛ فرحات، ص45؛ سالم، بنو السراج، ص20.

(2) ابن عاصم، ج1، ص(289-300)؛ انظر أيضاً: فرحات، ص594؛ سالم، بنو السراج، ص22؛ فرحات، ص45.

(3) ابن حجر، انباء، ج3، ص511؛ السخاوي، الضوء، ج10، ص68.

(4) ابن عاصم، ج1، ص17 من مقدمة المحقق.

(5) ابن عاصم، ج1، ص(302-303)؛ انظر أيضاً: حتاملة، الاندلس، ص596.

(6) ابن عاصم، ج1، ص(21-24)، مقدمة المحقق؛ حتاملة، الأندلس، ص599؛ Conde, p. 635.

الحجاج من مواجعتهم بنجاح، فعاد الرئيس إلى قشتالة يائساً، وبعد موت أبي الحجاج عاد السلطان محمد الأيسر إلى عرشه للمرة الخامسة. وعلى الرغم من ذلك؛ لم تتوقف الثورات والفتن؛ ففي أواخر عام 854هـ/1449م أعلن الرئيس أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر الثورة مجدداً في وادي آش، وسيطر على قسبة مالقة، فاضطر السلطان لتوقيع معاهدة صلح مع القشتاليين لمدة عامين من أجل التفرغ لمقارعتة، إلى أن تمكن من وأد الفتنة، فاستتزفت الطاقات المادية والبشرية، وأهدرت الإمكانيات التي كان من الواجب أن تُسخَّر في مواجهة العدو المتربص بالأراضي الأندلسية⁽¹⁾.

ودخل محمد الأيسر خلال سنوات حكمه الأخيرة في صراع داخلي مرير ضد الأمير سعد بن علي بن اسماعيل بن الأحمر (858-868هـ/1454-1464م) المدعوم من بلاط قشتالة كرد على تحالف الأيسر مع أراغون، حيث ثار سعد في مالقة وأرجذونة، فأرسل ملك قشتالة جيشاً لمساندة الأمير سعد، واحتدم القتال بين قوات الأخير المدعومة من قشتالة وبين الأيسر، مما أجبر الأخير على الفرار مع عدد من أنصاره وفرسانه إلى جبل البشرات، فأعلن سعد نفسه سلطاناً على غرناطة عام 858هـ/1454م، والتف الشعب حوله؛ نظراً لحالة العنف التي طغت على سياسة السلطان الأيسر تجاه بني السراج، وإقدامه على قتل عدد من قادته⁽²⁾.

ولم يستسلم الأيسر لمصيره؛ فبذل من جبال البشرات⁽³⁾ عدة محاولات من أجل استرداد عرشه، إلا أنها باءت بالفشل، إلى أن قُتل عام 858هـ/1454م⁽⁴⁾، ما مهد الطريق لسعد لاعتلاء سدة الحكم والبلاد تضطرم بالثورات والفوضى، ومن أجل التفرغ لفرض الأمن وإعمار البلاد؛ أثر مسالمة الملك القشتالي خوان الثاني، فساد الاستقرار وعمَّ السلم بين الطرفين⁽⁵⁾. بيد أن سياسة السلطان الجديد ما لبثت أن اصطدمت بمعارضة الأسر الأندلسية المتنفذة مثل: بني السراج وبني أضحي وبني الثغري، فعقد العزم على وضع حد لنفوذها، وبخاصة أسرة بني

(1) ابن عاصم، ج1، ص(25-26)، 29، مقدمة المحقق؛ حتاملة، الأندلس، ص598، 600. Bishko, III, p. 28.

(2) فرحات، ص45؛ حتاملة، الأندلس، ص692.

(3) البشرات: سلسلة جبال تقع إلى الجنوب الشرقي من غرناطة، انظر: حتاملة، موسوعة، ج1، ص255.

(4) ابن عاصم، ج1، ص31 مقدمة المحقق؛ حتاملة، الأندلس، ص602.

(5) عنان، دولة، ج4، ص164؛ فرحات، ص46؛ حتاملة، الأندلس، ص602.

سراج صاحبة النفوذ الكبير في البلاط الغرناطي، فأقدم على قتل عدد من زعمائهم، وكان من بينهم وزيره مفرج (ت. 868هـ/1462م)، وفر الباقون لاجئين لدى الأمير أبي الحسن علي بن سعد (868-887هـ/1464-1482م)، واقنعوه بضرورة الثورة على والده، فثار ضده وخلعه، وبقي السلطان المخلوع في المرية حتى وفاته أواخر عام 868هـ/1464م⁽¹⁾.

وتولى السلطان أبو الحسن علي بن سعد الحكم خلفاً لوالده في الوقت الذي كانت فيه البلاد تغلي بالفتن، وبكثرة الطامعين في العرش، وفي الوقت نفسه كان الإسبان يواصلون سياستهم التوسعية، فبدأ بتحسين البلاد، وتنظيم شؤونها، وإصلاح شؤون الجيش مما أدى إلى استقرار الأوضاع⁽²⁾، بيد أن أجواء الاستقرار ما لبثت أن تبددت بسبب جهود المنافسين ومحاولاتهم السيطرة على الحكم، ووقف على رأس هؤلاء أخوه أبو عبد الله بن سعد، المدعو بالزغل (888-895هـ/1483-1489م)، أي الشجاع، الذي كان مقيماً في بلاد الإسبان⁽³⁾.

في العام 882هـ/1469م أعلن الزغل العصيان ضد أخيه، وطالب بالعرش مدعوماً من الملك القشتالي هنري الرابع⁽⁴⁾، فأتخذ من مالقة قاعدة له بعد أن حظي بتأييد زعمائها، فانقسمت المملكة الصغيرة إلى قسمين: شمالي وجنوبي بعد أن غدت تحت سلطة ملكين متنازعين، ما أجبر السلطان أبا الحسن على الرضوخ للأمر الواقع، فأقر الزغل على مالقة ونواحيها واختص هو بغرناطة وما يليها. ومن أجل تغطية نفقات الحرب، قام السلطان أبو الحسن بفرض ضرائب على العامة بشكل فاق قدراتهم، فلجأ عدد من الفرسان والجند لبيع ثيابهم وخيلهم وآلات الحرب لإطعام أبنائهم وانعدم الأمن في المملكة مما أدى إلى سقوط مدينة الحامة بيد الإسبان عام 887هـ/1482م، فنفرت منه العامة⁽⁵⁾.

(1) عنان، دولة، ج4، ص(166-167)؛ فرحات، ص46؛ حتاملة، الأندلس، ص 603.

(2) المقرري، نفتح، ج4، ص511؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص191.

(3) سالم، بنو السراج، ص64؛ الشطاط، ص64.

(4) مجهول، نبذة، ص2؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص193.

(5) مجهول، نبذة، ص(5-6)؛ الناصري، ج4، ص102؛ عنان، دولة، ج4، ص(193-194). انظر أيضاً: Conde, pp. (643-644).

وكان الانقسام الداخلي قد بدأ يظهر بوضوح عندما أخذ السلطان يفضل زوجته الإسبانية ثريا على زوجته الأولى وابنة عمه عائشة ابنة السلطان محمد الأيسر وأبنائها، ما أثار غضب العامة وكبار الشخصيات، فانقسم الزعماء والقادة ما بين مؤيد لعائشة الحرة، وما بين مؤيد للسلطان ومحظيته، وأخذت كل من الزوجتين تتنافسان في الاستئثار بولاية العهد لولدها، حتى تمكنت ثريا من إقناع أبي الحسن بعزل عائشة الحرة وأبنائها في برج قمارش⁽¹⁾، فاستغلت الأميرة عائشة النفاق الناس حولها، وتمكنت بمساعدة بني السراج من الهرب في جمادى الثانية من العام 1482/هـ 887م، ومعها الأميران أبو عبد الله محمد بن علي (887-897هـ/1492-1482م) الملقب بالصغير، وأخوه أبو الحجاج يوسف(ت. 890هـ/1485م)، وتوجهوا إلى مدينة وادي آش⁽²⁾، وعقاباً لبني السراج على فعلتهم؛ ارتكب السلطان أبو الحسن بحقهم مذبة كبرى في باحات قصور الحمراء⁽³⁾.

وبعد أن استقرت الحرة وأبنائها في وادي آش؛ أعلن أبو عبد الله الصغير العصيان على والده والدعوة لنفسه، مستغلاً خروج والده للدفاع عن لوشة ضد الهجوم الإسباني، فدخل غرناطة وأعلن نفسه سلطاناً على البلاد في أواخر عام 887هـ/1482م، فبايعته بسطة والمريّة ووادي آش وغرناطة، وأما والده فتوجه إلى مالقة عند أخيه الزغل، حيث كانت بعض المناطق الجنوبية الغربية تحت طاعته، وحينها دخل الأب وابنه في صراع مرير في منطقة عرفت باسم الدب، فالتقى أبو الحسن بمن معه من جند الجهة الشرقية مع ولده في معركة انتهت بانتصار أبي الحسن عام 888هـ/1483م، ومن ثم هاجم الأخير أسوار العاصمة وتمكن من دخول الحمراء⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ برج قمارش: أحد أهم مرافق قصور الحمراء، يحتوي على عدة مرافق أهمها صالة السفراء، انظر: سالم، في تاريخ، ص(204-205).

⁽²⁾ Prescott, VI. p. 248. Elliott, p. 48.

⁽³⁾ مجهول، نبذة، ص(9-10)؛ المقرئ، نفح، ج4، ص(512-513)؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص(200-202).

⁽⁴⁾ المقرئ، نفح، ج4، ص515؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص202؛ الحجبي، ص551؛ ايرفنغ، ص(97-98)؛ Prescott, VI. p. 248.

وبعد وقوع أبي عبد الله الصغير بالأسر عام 888هـ/1483م، وفشل الجهود التي بذلها أبو الحسن والأميرة عائشة الحرة من أجل إطلاق سراحه؛ توجهت كوكبة من علماء غرناطة وأعيانها إلى مالقة، وطالبوا أبا الحسن بالقدوم إلى العاصمة وتولي الحكم، غير أنه تعذر عليه الأمر بسبب المرض الذي أدى إلى وفاته عام 890هـ/1485م، واستقل الزغل، وقام بالقضاء على بعض أبناء بني السراج المناوئين له⁽¹⁾.

ومن ناحية أخرى خشي الملك فرناندو من عواقب بقاء الأمير أبي عبد الله في الأسر، حيث سيؤدي بقاءه إلى اتحاد المملكة الإسلامية بقيادة الزغل، فقرر إطلاق سراحه مقابل مساعدته على انتزاع العرش، وعقد معه اتفاقاً نصَّ على: دخول أبي عبد الله في طاعة فرناندو وإيزابيل، ودفع جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف قطعة من الذهب، والإفراج عن الأسرى الإسبان في سجون غرناطة⁽²⁾، وتقديم المساعدة العسكرية للإسبان وقت الحاجة، وحضور مجلس الأعيان القشتالي في كل مرة يدعى فيها⁽³⁾، وجعل المدن التي تخضع لسيطرته تحت طاعة قشتالة، وتقديم ابنه وعدد من أبناء الأمراء وأكابر المملكة رهائن لضمان تنفيذ المعاهدة، مقابل الوقوف إلى جانبه لاسترداد عرشه، وبعد أن وافق على كل هذه البنود أطلقه الإسبان في أواخر عام 890هـ/1485م، وأرسلوه مع سرية الفرسان لقتال عمه الزغل، الذي كان يقاتل الإسبان دفاعاً عن حصن مقلين⁽⁴⁾.

وما أن وصل الصغير حصن بلش مالقة الواقع شرقي بسطة؛ حتى أخذ يخاطب زعماء البلاد ويغريهم بالصلح، ويعلمهم أن كل من دخل في طاعته فهو آمن، فلم يستجب له أحد باستثناء أهالي البيازين⁽⁵⁾، مما أشعل الفتنة بينهم وبين باقي أهالي أرباض غرناطة، حيث تراشق

(1) مجهول، نبذة، ص 13؛ المقرئ، نفح، ج 4، ص 515؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج 4، ص 204؛ العبادي، ص 466؛ فرحات، ص 50؛ إيرفنج، ص (173-174)؛ Elliott, p 48.

(2) المقرئ، نفح، ج 4، ص 516؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج 4، ص 204؛ حتاملة، الأندلس، ص 611؛ إيرفنج، ص 170؛ Prescott, VI, p. 248؛ Elliott, p. 48؛ Conde, p. 648؛ Bishko, III, p. 31.

(3) ارسلان، خلاصة، ص 138؛ Prescott. p. 248؛ Conde, p. 648.

(4) عنان، دولة، ج 4، ص 205-248. Conde.

(5) حي البيازين: من الأحياء الخارجية لمدينة غرناطة، ويشرف على وادي حدرية مقابل قصور الحمراء، انظر: سالم، في تاريخ، ص 140.

الطرفان بالحجارة والأنفاط، واستمرت الفتنة من ربيع الأول 891هـ/ نيسان 1486م حتى منتصف جمادى الأولى/أيار من العام المذكور، عندما اتفق الزغل صاحب قلعة غرناطة، وابن اخيه أبو عبد الله الصغير، على أن يبقى العم في الملك، مقابل بقاء ابن اخيه تحت سلطته في لوشة، أو في غيرها من المواقع، والأهم من ذلك أن الصغير قد تنصل من التزاماته تجاه الإسبان، وتعاهد الطرفان على قتالهم⁽¹⁾.

بيد أن أبا عبد الله الصغير ما لبث أن نقض اتفاقه مع عمه الزغل ووجد ارتباطه بالإسبان، وبخاصة بعد سقوط مدينة لوشة بأيديهم في جمادى الأولى 891هـ/مايو 1486م، ويبدو أنه كان له دور في ذلك مقابل قيام الإسبان بإطلاق سراح أحد أبنائه⁽²⁾، وعقد معهم معاهدة جديدة عرفت باسم "معاهدة لوشة"، تنازل بموجبها عن التسمية بملك غرناطة؛ بل: دوق وماركيز وادي آش (Dugue y Margues de Guadix)، واستئناف قتال عمه الزغل، وبعد توقيع الاتفاقية أقام الصغير عند أنصاره بني السراج، وحقق بعض الانتصارات على عمه⁽³⁾.

وأخذ الصغير يرسل أهالي المملكة ويدعوهم إلى التصالح مع الإسبان، غير أن طلبه قوبل بالرفض، باستثناء أهالي حي البيازين، الذين راسلوه يطلبون منه القدوم إليهم، ويعلنون قبولهم صلحه مع الإسبان ودخولهم في طاعته، وما لبثت الحصون الشرقية أن حذت حذو البيازين، وأما الزغل فأخذ يرسل الكتب إلى ما تبقى من مدن المملكة لتوضيح خطورة الصلح، وعادت الحرب الأهلية لتشتعل في غرناطة من جديد، فاستغل الإسبان الأمر وزادوا من دعمهم للصغير، فأموده بالرجال والمال والسلاح والبارود والمواد التموينية، فعظم الخطب ونقشى القتل والنهب بين الناس، وفي محرم 892هـ/كانون الثاني 1487م قرر الزغل الدخول إلى البيازين عنوة بعدما استشار الفقهاء، فأطلقوا دماءهم؛ لاستعانتهم بأعداء الدين على إخوانهم⁽⁴⁾، وحينها

(1) مجهول، نبذة، ص16؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص215؛ Conde, p. 649.

(2) مجهول، نبذة، ص9، 17؛ المقرئ، نفح، ج4، ص517؛ الناصري، ج4، ص102. انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص219.

(3) حتاملة، الأندلس، ص614؛ Elliott, p. 89.

(4) مجهول، نبذة، ص(20-21)؛ المقرئ، نفح، ج4، ص(518-519)؛ أزهار، ج1، ص68؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص213.

خشي الصغير سوء العاقبة، فخرج إلى بلش التي رفض أهلها الدخول في طاعته⁽¹⁾، ولكن الزغل لم ينجح في دخول البيازين بسبب مقاومتهم الشرسة، وانشغال جيشه في الدفاع عن حصن بلش مالقة الذي كان يتعرض للهجوم الإسباني، وحينها أسرع الصغير ودخل مدينة غرناطة، ونزل في القسبة القديمة، ونصب نفسه سلطاناً في جمادى الأولى 892هـ/نيسان 1487م، فارتد الزغل وأنصاره إلى وادي آش واستقروا فيه⁽²⁾. وهكذا أصبح الزغل يحكم وادي آش والأجزاء الجنوبية الغربية، وأما غرناطة وأعمالها فلأبي عبدالله الصغير، يحكمها بحماية الإسبان⁽³⁾.

السياسة الإسبانية تجاه الأندلسيين خلال عهد الملك خوان الثاني (Juan II) (809-858هـ/1406-1454م)

من المعلوم أن السلطان الغني بالله محمد الخامس كان يمثل آخر حكام مملكة غرناطة الأقوياء، إذ عاشت البلاد خلال عهده، أي في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، حالة من الاستقرار النسبي، وما أن انتهى ذلك العهد حتى أخذت أحوال البلاد تتحدر نحو السقوط؛ بسبب ضعف خلفائه، وكثرة الطامعين في الحكم. ولم يتورع الكثيرون عن الاستعانة بالإسبان ضد بعضهم، ما مكن أعداءهم من الاستمرار في العمل على السيطرة على مزيد من القلاع والمدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى، مما أدى إلى انحسار مملكة غرناطة في أقاصي الجزء الجنوبي من بلاد الأندلس. وعلى الرغم من أن مملكة قشتالة لم تكن أحسن حظاً من حيث الاستقرار الداخلي، إلا أن ذلك لم يؤثر على الموقف الإسباني العام تجاه الأندلسيين⁽⁴⁾.

ففي عهد الملك القشتالي خوان الثاني استمر الإسبان في تنفيذ سياستهم تجاه مسلمي الأندلس بدعم رجال الدين والإقطاعيين الذين دأبوا على تقديم المعونات المالية والمعنوية⁽⁵⁾، وفي

(1) المقرئ، نفح، ج4، ص519.

(2) مجهول، نبذة، ص(22-23)؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص214.

(3) عنان، دولة، ج4، ص215؛ العبادي، ص466.

(4) عبد القهار، ص377.

(5) مصطفى، ص133.

المقابل استمر المغاربة في تقديم العون والمساعدة لآخوانهم الأندلسيين، فتمخضت عن ذلك وقائع عدة، لعل أهمها؛ تلك المعركة الأندلسية المغربية المشتركة التي قادها السلطان أبو سعيد عثمان المريني على رأس أربعة آلاف فارس وعشرين سفينة، بينما شارك الغرناطيون بأسطولهم، وألتقى الطرفان في مياه جبل طارق عام 800هـ/1406م، إلا أن الإسبان ألحقوا بالمغاربة والأندلسيين هزيمة قوية، فاشتد ساعد الإسبان، ما شجعهم على الاستمرار في محاربة الأندلسيين خلال الأعوام اللاحقة؛ ومن ذلك قيامهم عام 810هـ/1408م بمهاجمة بسائط مدينة غرناطة، وقتل عدد كبير من سكانها، كان من بينهم العالم أبو يحيى بن عاصم (ت. 810هـ/1408م)⁽¹⁾.

وفي العام المذكور نجح فرسان القديس يعقوب في السيطرة على حصن الصخرة القريب من رندة، كما عاثت الجيوش القشتالية فساداً في حصن باغه، وتمكنت من استرداد حصن أياموني⁽²⁾ من المسلمين، فرد عليها المسلمون بالإغارة على ولاية جيان، واستمرت الأمور على هذا النحو حتى العام 811هـ/1409م، حيث عقدت هدنة هشة بين الطرفين⁽³⁾، ما لبث أن نقضت من جانب الإسبان بعد عامين من توقيعها، وأخذوا في مهاجمة الأراضي الأندلسية، وبخاصة مدينة أنتقيرة الواقعة في شمال غرب غرناطة عام 813هـ/1411م، فدافع عنها المسلمون بقيادة السلطان يوسف الرابع دفاعاً مستميتاً، إلا أنهم هزموا، واضطرت المدينة للتسليم وإطلاق سراح مئات من الأسرى المسيحيين دون فدية، والخضوع لشروط القشتاليين؛ حقناً للدماء، وتجنباً لوقوع مزيد من القتلى، فحاز الأمير فرناندو بفضل هذا النصر على لقب صاحب انتقيرا (Fernando de Antequera)⁽⁴⁾.

(1) ابن إياس، ج 1، ق 1، ص (737-738)، ج 1، ق 2، ص 810؛ انظر أيضاً: Charles, III, P. 27.

ابن عاصم، محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم القرشي الغرناطي: أبو يحيى وقيل أبو بكر، ولد في العام 760هـ/1359م، قاضي الجماعة في غرناطة وله العديد من المؤلفات منها: أرجوزة تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام، وجنة الرضا في تسليم لما قدر الله وقضى، انظر: كحالة، مج 6، ص 290.

(2) أياموني: مدينة صغيرة على المحيط الاطلسي، وهي بلدة حدودية بين إسبانيا والبرتغال، انظر: عنان، دولة، ج 4، ص 151.

(3) فرحات، ص 43؛ حتاملة، الأندلس، ص 591؛ عنان، دولة، ج 4، ص 151.

(4) ابن شاهين الظاهري، ج 3، ص 209؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج 4، ص 153، 155؛ ابن عاصم، ج 1، ص 12، مقدمة المحقق؛ فرحات، ص 43؛ حتاملة، الأندلس، ص (591-592)؛ شكيب، خلاصة، ص 23؛ Bishko, III, p. 27.

ولم يزل الأندلسيون يقدمون خلافاتهم وصراعاتهم الداخلية للإسبان على طبق من ذهب، ليستغلها هؤلاء في الضغط على مدن المملكة وحصونها؛ ففي عام 817هـ/1417م استغلوا النزاع بين السلطان أبي الحجاج يوسف الثالث وبني السراج، فهاجموا بلد الزهراء المجاورة لحدود لمملكة قشتالة وتمكنوا من الاستيلاء عليها⁽¹⁾، وبعد أحد عشر عاماً من سقوط بلد الزهراء هاجموا بسائط وادي آش، وعاثوا بها فساداً، فعم السخط والغضب العامة بسبب عجز السلطان أبي عبد الله محمد الملقب بالأيسر عن ردهم⁽²⁾.

واستغل الإسبان الحالة الأندلسية المضطربة من أجل مواصلة سياستهم، لا بل حرصوا على تأجيج الصراع الداخلي وإذكاء نار الفتنة، فساند الملك القشتالي خوان الثاني السلطان المخلوع محمد الأيسر، ومدّه بألف وخمسمائة فارس تمكن بواسطتهم من العودة إلى عرشه عام 831هـ/1428م⁽³⁾. وكان الملك الإسباني يهدف من وراء ذلك أيضاً جر السلطان الغرناطي للموافقة على شروطه، وأهمها: إعلان التبعية لقشتالة، ودفع جزية سنوية، ودفع تكاليف المعونة العسكرية القشتالية، فرفض الأيسر هذه المطالب؛ الأمر الذي تسبب في تعرض المملكة لهجمات مسيحية جديدة، فأغاروا بأعداد كبيرة قُدّرت بمائة وثمانين ألف فارس على كل من جيان وأحواز رنذة، وزحفوا صوب حصن اللوز وأرشدونة، وتمكنوا من السيطرة على أوربولة⁽⁴⁾، فبلغت خسائر المسلمين ستين ألف قتيل واثنى عشر ألف أسير⁽⁵⁾.

واتّبع الملك القشتالي خوان الثاني السياسة التي اعتاد عليها أسلافه من قبله منذ أواخر القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وتمثلت بدعم أحد الأمراء النصرين الطامعين في العرش، وهو أبو الحجاج يوسف الرابع بن المول للقيام بثورة ضد السلطان الأيسر واستلام الحكم، فعندما ثار في غرناطة دفع إليه الملك القشتالي بسرية من الفرسان لمساعدته، وانضمت

(1) مؤنس، معالم، ص 453.

(2) فرحات، ص 43؛ عنان، دولة، ج 4، ص 155؛ حتاملة، الأندلس، ص (592-593).

(3) شكيب، خلاصة، ص 172؛ عنان، دولة، ج 4، ص 156؛ حتاملة، الأندلس، ص 593.

(4) أوربولة: حصن في جنوب شرق الأندلس وبينه وبين الش خمسة عشر ميلاً وقيل عشرون ميلاً، وبينه وبين مرسية اثنا عشر ميلاً، انظر: الحميري، صفة، ص 67.

(5) ابن اياس، ج 2، ص 138؛ انظر أيضاً: حتاملة، الأندلس، ص 593.

إليها أيضاً جماعة فرسان قلعة رباح، فتمكن ابن المول بفضل هذا الدعم من دخول غرناطة والجلوس على عرشها، وأتبع ذلك بعقد اتفاق مع الملك القشتالي في مدينة برغوس في 9 محرم 835هـ/16 أيلول 1431م، حيث تعهد بالدخول في طاعته، والحكم باسمه، وتحرير الأسرى المسيحيين، ودفع جزية سنوية مقدارها ألف دينار ذهبي⁽¹⁾، وتقديم ألف وخمسمائة فارس يحاربون إلى جانبه في أية معركة يخوضها، وحضور مجلس الكورتيس (Cortes) (البرلمان القشتالي) في طليطلة بشكل شخصي أو بالإنابة، وتسهيل الأعمال التجارية بين الفريقين، ويستمر هذا الاتفاق طوال عهد الملك خوان الثاني وأبنائه من بعده⁽²⁾.

هذه الاتفاقية الذليلة أعادت للأذهان المعاهدة الأولى التي عقدها مؤسس مملكة غرناطة أبو عبد الله محمد الأول بن الأحمر مع الملك فرناندو الثالث (Fernando III) (614-627هـ/1217-1230م)⁽³⁾، والتي نصت على بنود مشابهة، وإن كانت اتفاقية ابن المول أكثر خطورة، لأنها جاءت في وقتٍ كانت مملكة غرناطة تعيش فيه أسوأ مراحلها، وتتحو نحو الاضمحلال والضمور. وبقيت الحرب سجلاً بين المسيحيين والمسلمين على الرغم من اتخاذ الجانب الإسلامي موقفاً دفاعياً، وفي هذا السياق تمكن المسلمون عام 838هـ/1434م من صد العديد من الهجمات المسيحية ضد مدينتي غرناطة ووادي آش، غير أن المسيحيين تمكنوا في العام التالي من السيطرة على بعض الحصون القريبة⁽⁴⁾.

وشهدت الأعوام الممتدة من 839-841هـ/1436-1438م نشاطاً قشتالياً ملحوظاً، فتمكنوا من السيطرة على عدد من الحصون والقرى الأندلسية، كحصن بلش، وغيلره،

(1) الدينار الذهبي: العملة الغرناطية المتداولة في عصر بني الأحمر، وهي امتداد للعملة الموحدية، وكان يزن ما يقرب من الغرامين، انظر: وناس، ص(215-217).

(2) عنان، وثيقة، م2، ص39؛ انظر أيضاً: شكيب، خلاصة، ص(120-121)؛ البشري، ص206؛ عنان، دولة، ج4، ص158، 161، 164؛ حتاملة، الأندلس، ص(594-595).

(3) فرناندو الثالث: أعظم ملوك قشتالة، تولى العرش بعد وفاة جده لأمه الملك الفونسو الثامن (Alfonso VIII) (550-611هـ/1155-1214) بناء على وصيته، وقد تمكن فرناندو من ضم أراضي مملكتي جليقية وليون، وبذلك أصبحت مملكة قشتالة من أكبر الممالك الإسبانية، انظر: عنان، دولة، ج4، ص(87-88).

(4) عنان، دولة، ج4، ص164؛ حتاملة، الأندلس، ص596.

وقسطنطينية⁽¹⁾، وأعلنت كل من وادي آش وبسطه ولاءهما للبلاط القشتالي⁽²⁾، فضلاً عن محاولة الإسبان عام 840هـ/1436م السيطرة على جبل طارق الذي كان له دور كبير في صمود الأندلسيين، إلا أن أهله تمكنوا من ردهم⁽³⁾.

وفي عام 852هـ/1448م اعترض صاحب انتقيرة ثلاثين من تجار المسلمين، وهاجم أحواز مدينة تاجرة، وأسر كل من وجد في طريقة من الفلاحين، فهاجم المسلمون اليسانة⁽⁴⁾، وأقارل بهدف السيطرة عليهما وتحرير الأسرى المسلمين، ومن ثم هاجموا مدينة انتقيرة، وأعدوا كميناً للإسبان في موضع يقال له حجر العشاق فأسروا وقتلوا حوالي ستمائة منهم⁽⁵⁾، وبعد ذلك بقليل هاجم الإسبان مدينة مالقة فتصدى لهم المسلمون، فقتلوا وأسروا مائة وستين فارساً، وفي العام نفسه قام قائد قسطنطينية خوان سافيدره (Juan Saavedra) بجمع خيرة فرسانه، وقدر عددهم ستمائة فارس من أهالي شريش⁽⁶⁾ والقلعة ومدينة ابن السليم، وسار بهم قاصداً مدينة مربلة⁽⁷⁾ الواقعة على ساحل البحر المتوسط على بعد ستين كيلو غرب مالقة⁽⁸⁾؛ إلا أن المسلمين المسلمين تمكنوا من دحرهم، ولم يكتفوا بهذا النصر، بل تمكنوا من قتل وأسر ستمائة فارس من الأعيان في موضع يقال له الخزائن بظاهر مربلة، واستولوا على مدينة شريش في ذات العام، هذه المدينة التي كانت قد سقطت قبل تسعة عشر عاماً⁽⁹⁾.

ومن أجل الاستمرار في مواجهة الأطماع الإسبانية أرسل السلطان الأيسر خلال عامي 840-844هـ/1437-1440م عدداً من الرسائل إلى السلطان المملوكي جقمق الظاهري

(1) قسطنطينية: من كور البيرة، متدفقة الأنهار، تشبه دمشق، انظر: حتاملة، موسوعة، ج2، ص840

(2) ابن عاصم، ج1، ص19.

(3) عنان، دولة، ج4، ص161؛ Conde, p. 634.

(4) اللسانة: بلدة صغيرة حصينة تقع جنوب شرق مدينة قرطبة، انظر: عنان، دولة، ج4، ص204.

(5) ابن عاصم، ج1، ص(25-26) مقدمة المحقق.

(6) شريش: من كور شذونة بالأندلس، بينها وبين قلشانة خمسة وعشرون ميلاً، وبينها وبين حصن روطبة الواقع على شاطئ البحر ستة أميال، انظر: الحميري، الروض، ص340.

(7) مربلة: مدينة بالأندلس بالقرب من مرسى مالقة، وهي عبارة عن مدينة صغيرة مسورة، انظر: الحميري، الروض، ص534.

(8) ابن عاصم، ج1، ص(25-26) من مقدمة المحقق؛ حتاملة، الأندلس، ص(599-600).

(9) ابن عاصم، ج1، ص26؛ انظر أيضاً: حتاملة، الأندلس، ص599.

(825-841هـ/1438-1453م)⁽¹⁾ يشرح فيها ما يلقاه أهل الأندلس من ظلم وعذاب، ويطلب المساعدة، فوعد جقمق الوفد الغرناطي بطلب نجدة عسكرية مستعجلة من السلطان العثماني مراد الثاني (824-855هـ/1421-1451م)⁽²⁾، باعتباره أقوى السلاطين المسلمين في ذلك الوقت⁽³⁾.
الوقت⁽³⁾.

وعلى الرغم من قوة المماليك؛ فإنهم لم يكونوا قادرين على إرسال العساكر لبعده المسافة، وانعدام عنايتهم بالمراكب والأساطيل، كون حروبهم كانت في معظمها برية، فاهتمامهم الأول قد صب على الخيل⁽⁴⁾، وعلى ما يبدو فقد اقتصرت مساعدتهم على الدعم المالي، فساهمت فساهمت بشكل بسيط تعزيز صمود الأندلسيين، ولم تقتصر رسائل الاستغاثة الأندلسية في هذا العهد على المماليك؛ بل خرج عدد منها إلى حكام السلطنة الحفصية، فلاقت استجابة من السلطان أبي فارس الحفصي، الذي دأب على إرسال المساعدات المالية والعينية إلى مسلمي الأندلس، وخصص لهم في كل عام ألف قفيز⁽⁵⁾ من الطعام⁽⁶⁾. وفي بعض الأحيان كانت البعثة تخرج قاصدة المغرب والمشرق معاً، حيث أرسل في إحدى المرات قاضي الجماعة في غرناطة ابن

(1) سيف الدين أبي سعيد محمد جقمق الظاهري: السلطان الرابع والثلاثون من ملوك الترك في مصر والعاشر من ملوك الجراكسة، جلبه الخواجا كزل وأشتراه منه العلي الاتابكي، وصار من جملة المماليك السلطانية حتى تمكن من الوصول لسدة الحكم، فتعصب له كثير من الظاهرية والناصرية والمؤيدية وبعض الأشرفية، انظر: ابن اياس، ج2، ص(198-200).
(2) مراد الثاني بن محمد بن بايزيد بن مراد الأول بن أورخان بن عثمان: سادس السلاطين العثمانيين، تولى العرش وعمره لا يزيد على ثماني عشرة سنة، تميزت فترة حكمه بحروب طويلة مع البلقان والإمارات التركية في الأناضول، وهو أول من استخدم المدافع في الدولة العثمانية، فقد عرشه في الفترة الممتدة من (848-850هـ/1444-1446م) بعد أن ثار عليه ابنه محمد الثاني، انظر: المحامي، ص153، 156، 158.
(3) المقرزي، ج4، ق3، ص1219؛ السخاوي، وجيز، ج5، ص27؛ انظر أيضاً: سالم، بحوث، ص215؛ دراج، ص72.
(4) السخاوي، وجيز، ج5، ص(67-68)؛ دراج، ص72.
(5) القفيز: مكيال إسلامي، استخدم استخدم في الكيل والوزن، ويقدر ب 24.48 كيلو غرام، انظر: جمعة، ص98.
(6) ابن الشماخ، ص(114، 120)؛ الزركشي، ص116.

ت. 896هـ/1491م) إلى البلاط الحفصي والبلاط المملوكي معاً⁽²⁾.

ومن ناحية أخرى؛ استمر الملك القشتالي خوان الثاني في دعم الثورات الداخلية الأندلسية وتغذية الخلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة، بهدف إضعاف مملكة غرناطة والسيطرة على المزيد من الأراضي الإسلامية، فقام عام 849هـ/1445م بدعم الأمير يوسف بن أحمد بن أبي الوليد بن إسماعيل (ت. 851هـ/1447م) الذي كان لاجئاً في بلاد قشتالة، فأمدّه بالجند، واستطاع بمساعدتهم السيطرة على غرناطة، وعرفاناً بالجميل أعلن طاعته وولائه للملك القشتالي⁽³⁾، ومن ذلك أيضاً دعمه لثورة الرئيس إسماعيل، التي اندلعت عام 854هـ/1450م، حيث أمدّه بالجيش الذي تمكن بواسطته من دخول غرناطة، وإجبار الأيسر على الفرار إلى جبال البشيرات⁽⁴⁾.

(1) محمد بن علي بن محمد بن علي بن قاسم بن مسعود، أبو عبد الله الأصبحي الغرناطي، ولد بمالقة وترعرع فيها، وتلقى علوم القرآن واللغة العربية والفقهاء والحساب على أيدي أبرز شيوخ عصره في غرناطة وتلمسان وتونس، وتولى القضاء في عهد بني النصر في كل من مالقة ووادي آش في غرناطة، انظر: السخاوي، وجيز ج9، ص(20-21).

(2) السخاوي، وجيز، ج9، ص21.

(3) شكيب، خلاصة، ص172؛ عنان، دولة، ج4، ص164؛ حتاملة، الأندلس، ص600.

(4) ابن عاصم، ج1، ص(191-193) من مقدمة المحقق.

الفصل الرابع

السياسة الصليبية الإسبانية تجاه مملكة

غرناطة الأندلسية (850-897هـ/

1454-1492م)

- أثر الفتح العثماني لمدينة القسطنطينية عام 857هـ/1453م على بلاد الأندلس
- سياسة الإسبان تجاه مسلمي الأندلس خلال عهد الملك هنري الرابع (Enrique IV) (858-879هـ/1454-1474م)
- السيطرة الأندلسية على بلدة الصخرة عام 886هـ/1481م
- سقوط مدينة الحامة عام 887هـ/1482م
- حرب الاستنزاف الإسبانية، والسيطرة على بلدة الصخرة عام 888هـ/1483م
- سقوط الحصون الغربية والجنوبية الغربية، ومدينة رندة عام 890هـ/1485م
- سقوط مدينة لوشة، وحصون إلبيرة ومكلين وقلنبيرة عام 891هـ/1486م
- سقوط مدينة مالقة عام 892هـ/1487م
- سقوط مدينة بسطة عام 895هـ/1489م
- حرب الاستنزاف الإسبانية، وسقوط مدينة غرناطة (895هـ-897هـ/1489م-1492م)

الفصل الرابع

السياسة الصليبية الإسبانية تجاه مملكة غرناطة الأندلسية

(850-897هـ/1454-1492م)

أثر الفتح العثماني لمدينة القسطنطينية عام 857هـ/1453م على بلاد الأندلس

أدى فتح مدينة القسطنطينية على يد الخليفة العثماني محمد الثاني الفاتح (848-886هـ/1451-1481م)⁽¹⁾، عام 857هـ/1453م، وما تبعه من انهيارٍ للإمبراطورية البيزنطية إلى تمكّن العثمانيين من وضع أقدامهم في الجزء الشرقي من أوروبا، وإلى تمركز قواتهم في البلقان، بهدف اختراق البلاد الأوروبية من شرقها وجنوبها الغربي⁽²⁾، ومهاجمة المعاقل المسيحية في شبه الجزيرة المقدونية وجزيرة رودس⁽³⁾، مما سيتيح لهم المجال للوصول إلى إيطاليا وألمانيا بسهولة ويسر⁽⁴⁾، فضلاً عن التهديد الذي شكله العثمانيون على المدن التجارية الإيطالية كجنوة والبندقية وناپولي التي لم تكن مستعدة لمواجهة خطرهم⁽⁵⁾، والقضاء على الحلم الإسباني والبرتغالي القائم على تأسيس إمبراطوريات لهم في الشرق⁽⁶⁾، فعمّ الفرغ الأوساط الشعبية الأوروبية، وعدّوا سقوط المدينة عقاباً لهم من الرب نتيجة بعدهم عن الدين وانفصالهم عن كنيسة روما، التي أصبحت متحمسة أكثر من السابق لمحاربة المسلمين⁽⁷⁾.

(1) السلطان محمد الفاتح: سابع سلاطين الدولة العثمانية ولد في رجب 833هـ/1429م تلقب بأبي الفتوح، شهدت الدولة في عهده توسعاً كبيراً حيث تمكن من فتح القسطنطينية وضم البلقان، امتد حكمه ما يقارب الثلاثين عاماً، انظر: المحامي، ص160، 162، 164، 179.

(2) الشناوي، الدولة، ج1، ص10؛ عوض، ص(409-410)؛ رضوان، جهود، ص31.

(3) رودس: جزيرة يونانية في بحر إيجه، تقع على مسافة 19 كم إلى الجنوب الغربي من آسيا الصغرى، وتنتشر فيها المزارع والبساتين والسهول الخضراء. انظر: مجموعة مؤلفين، الموسوعة العربية، مج 4، ص1860.

(4) الرشيد، ص160.

(5) طقوش، ص114.

(6) قلججي، ص347.

(7) القبيج، ص102.

وبناء عليه؛ أخذت البابوية تدعو الأوروبيين للاتحاد ونبذ الخلافات، ودعت الكنائس ورجال الدين إلى عقد الاجتماعات والمؤتمرات لإثارة الحماسة في نفوس الناس⁽¹⁾، وجاب الرهبان كلاً من إسبانيا وألمانيا وفرنسا وبولندا، يلهبون مشاعر الناس ويدعونهم لشن الحملات الصليبية ضد المسلمين⁽²⁾. واعتبرت البابوية أن الانتصار المسيحي المنشود على المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية من شأنه أن يعوضها عن الخسارة التي لحقت بها وبالعالم المسيحي أجمع نتيجة الفتح العثماني للقسطنطينية⁽³⁾، فدعت البابوية جميع مسيحيي أوروبا إلى وضع إمكاناتهم البشرية والمالية، تحت تصرف الملوك الإسبان⁽⁴⁾. وفرضت عليهم ما عرف بضريبة الصليبية (Cruzada)، وأمرت الكنائس ببيع ذخائرها من أجل مد الجيوش الإسبانية بالمال والعتاد فشكل كل ذلك إعلاناً لاستئناف الحروب الصليبية التي دعمتها البابوية واشتركت فيها معنوياً ومادياً وعسكرياً⁽⁵⁾.

وانسجاماً مع هذه الأجواء؛ أصدر البابا نيقولا الخامس مرسوماً في رمضان 857هـ/أيلول 1453م، يدعو فيه الأوروبيين إلى مواجهة الخطر العثماني، والعمل على إنشاء حلف صليبي ضد المسلمين⁽⁶⁾، وادراكاً منه لأهمية استئناف العمليات العسكرية ضدهم؛ أصدر مرسوماً جديداً في صفر 858هـ/شباط 1454م منح فيه الإسبان والبرتغاليين الحق في القيام بحملات صليبية ضد مسلمي الأندلس والمغرب الإسلامي، كما منح الغفران لكل الملوك والقادة الذين سيلبون دعوته، وشمل هذا الغفران أيضاً كل من يشارك بتجهيز المقاتلين⁽⁷⁾.

وأما البابا كالستو الثالث Callisto III (859-862هـ/1455-1458م) الذي عرف عنه تعصبه تعصباً شديداً تجاه المسلمين؛ فأخذ يحث المسيحيين على القيام بالصلوات لتحقيق

(1) حسون، ص(110-111)؛ Elliott, p. 46.

(2) الرشدي، ص161؛ Bishko, III, p. 28؛ Elliott, p. 46.

(3) رضوان، جهود، ص20.

(4) المرجع نفسه، ص 21.

(5) القبح، ص103.

(6) طقوش، ص113.

(7) قاسم، ماهية، ص28.

النصر⁽¹⁾، ودعا حكام جنوب أوروبا لعقد حلف صليبي مهمته دعم الإسبان بالأموال والفرسان، ومن ثم الانتقال إلى بلاد المغرب للسيطرة عليها وتحويل سكانها إلى المسيحية، وأمر بزيادة ضريبة الصليبية، فاستجاب لدعوته عدد كبير من القساوسة والرهبان، وجمعوا أموالاً كثيرة وبخاصة بعد بيعهم ذخائر الكنيسة وكنوزها لدعم الجيوش الصليبية⁽²⁾، وفي الوقت ذاته وصلوا دعمهم للجماعات الصليبية وعلى رأسها منظمة فرسان القديس يعقوب⁽³⁾.

وكان البابا سيكستوس الرابع⁽⁴⁾ (Siso IV) (875-889هـ/1471-1484م) يعتقد أن أي نصر على الإسلام في غرب أوروبا سيعوض المسيحيين عن خسارة القسطنطينية في شرقها، ولذا أخذ منذ تسلمه منصبه البابوي في البحث عن أي انتصار يرفع معنويات أتباعه الكاثوليك، وفي الوقت نفسه دأب على دعم الملوك الإسبان لما عُرفَ عنه من حماسة وتشجيع تجاه حركة الاسترداد في الأندلس، وبخاصة بعد تلقيه رسالة من الملكة إيزابيل طلبت فيها الدعم المالي. وحرصاً منه على الاستمرار في محاربة المسلمين؛ دعا البابا أنوسنت الثامن (Innocent VIII) (889-897هـ/1484-1492م)⁽⁵⁾ ملوك أوروبا وشعوبها إلى تمويل الحرب ضد مسلمي الأندلس⁽⁶⁾.

سياسة الإسبان تجاه مسلمي الأندلس خلال عهد الملك هنري الرابع (Enrique IV) (858-879هـ/1454-1474م)

اعتلى هنري الرابع عرش مملكة قشتالة في خضم هذه الأجواء المفعمة بالحماس الديني والنزعة الصليبية، فقام بإحياء حركة الاسترداد التي توقفت طوال فترة الاضطرابات الأهلية

(1) الرشيد، ص 161.

(2) رضوان، جهود، ص 45؛ المدني، ص 80.

(3) البشري، ص 206.

(4) سيكستوس الرابع: ولد عام 817هـ/1414م، تعلم ودرس الفلسفة واللاهوت في مدينة بولونيا، وكان قبل توليه المنصب البابوي قد نذر نفسه للفقراء. منح الفنانين والعلماء حرية كبيرة، وأمر ببناء الجسور، وأسس مكتبة الفاتيكان، وفي عصره ابتدأ العصر الذهبي للباباوات، انظر: مجموعة مؤلفين، البابوات، ص (155-156)، (161-162).

(5) أنوسنت الثامن: ولد في إسبانيا عام 834هـ/1431م، وانتخب لرئاسة المذهب الكاثوليكي في العام 896هـ/1491م، وارثك العديد من الآثام والحرمان، انظر: المحامي، ص 181.

(6) بشتاوي، الأمة، ص (104-116).

خلال النصف الأول من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وجمع الأموال من الناس، الذين سارعوا إلى التبرع والانضمام إلى الحملات الموجهة ضد المسلمين، واستغل الملك القشتالي رفض السلطان سعد بن إسماعيل النصرى الخضوع له، فأستأنف الحرب ضده، وقام بالضغط على غرناطة طوال الأعوام الممتدة من 860-862هـ/1455-1457م، حيث جردت حملات ضدها؛ إلا أنها جميعها لم تأتِ بنتائج ذات قيمة⁽¹⁾.

وفي محاولة من السلطان الغرناطي سعد بن إسماعيل لكبح جماح هذا التوجه ودرء الخطر عن الأراضي الإسلامية؛ نشط في تجريد الحملات ضد الأراضي القشتالية، فرد المسيحيون على ذلك بالقيام بهجمات مضادة قتلاً وأسراً وتخريباً، غير أن المسلمين تمكنوا من ردهم ومهاجمة مدينة جيان، ثم هاجم القشتاليون عام 860هـ/1456م أراضي غرناطة، فاستولوا على عدة حصون، ثم أقدموا على إحراق أشجار سهول مالقة ومزروعاتها، وفي السنة التالية أعادوا الكرة وهاجموا أراضيها، الأمر الذي أجبر السلطان سعد على الاعتراف بالطاعة للملك القشتالي، وتأدية الجزية له، حيث دفع اثني عشر ألفاً من الفضة، وتعهد بإطلاق سراح ستمائة أسير إسباني⁽²⁾.

ويتضح مما ذكر أن سياسة هنري الرابع تجاه مسلمي الأندلس في هذه المرحلة قد ارتكزت على عدم إتاحة الفرصة لهم لالتقاط الأنفاس وتنظيم الصفوف؛ فدأب على ممارسة حرب استنزاف متواصلة ضدهم، فبالإضافة إلى الهجمات السابقة؛ جردت قواته عام 862هـ/1458م حملة ضد ريف مدينة غرناطة وسهول مالقة، وأعملت فيها الخراب والدمار⁽³⁾. غير أن الحدث الأهم، والذي كان له الأثر الأخطر على الوجود الإسلامي في الأندلس؛ سقوط جبل طارق بيد القوات القشتالية في 22 رجب 866هـ/11 نيسان 1462م، وبذلك فقد المسلمون هذا الموقع الإستراتيجي الهام الذي كان جل الإعتماد الغرناطي عليه في حركة المد والدعم القادمة من العدو المغربية، وبذلك تكون غرناطة قد طوقت من الشمال

(1) رضوان، الغزوات، م1، ص553، جهود، ص(41-44)؛ Elliott، pp. (45-46)؛ Bishko، III، p. 28.

(2) فرحات، ص 46؛ حتاملة، الأندلس، ص613؛ عنان، دولة، ج4، ص(164-165).

(3) رضوان، الغزوات، ك1، ص553؛ دراج، ص96.

والجنوب، وقطعت عنها الإمدادات من الشمال الأفريقي، فغدا الغرناطيون وحدهم في مواجهة الخطر الإسباني⁽¹⁾.

ولاقى ذلك استحساناً كبيراً لدى الملك هنري الرابع، وعده بمثابة فتح عظيم، فأضاف لقب ملك جبل طارق إلى ألقابه⁽²⁾، كما أثار هذا الانتصار الحماس في نفوس الجنود القشتاليين، وبخاصة فرسان منظمة قلعة رباح، فأخذتهم الحمية الصليبية، وقاموا بمهاجمة عدد من القلاع والحصون الأندلسية، فتمكنوا من انتزاع حصن اللقوق وحصن أرشدونة⁽³⁾. وباركت البابوية هذا الإنجاز الإسباني، واستمرت في الدعم والمساندة، ما مكن الإسبان من تكثيف حملاتهم ضد المدن الغرناطية⁽⁴⁾، مما اضطر السلطان الغرناطي لطلب النجدة من السلطان المملوكي الظاهر خشقدم (865-872هـ/1460-1467م)⁽⁵⁾، فاستجاب لطلبه وبادر بتقديم الدعم المادي⁽⁶⁾.

السيطرة الأندلسية على بلدة الصخرة عام 886هـ/1481م

ما أن وطد الملكان فرناندو وإيزابيل أركان حكمهما على عرش المملكة الإسبانية الموحدة؛ حتى استأنفا السير على سنة أسلافهما، بالاستمرار في ممارسة سياسة الاسترداد ضد المدن الغرناطية، في ظل أجواء دينية متقدمة ودعم بابوي معنوي ومادي سخي، مستفيدين من الأوضاع الداخلية الغرناطية التي أنهكتها صراعات الملوك والأمراء على السلطة. وخلال هذه المرحلة وضع الملكان نصب أعينهما السيطرة على المدن الأندلسية، الواحدة تلو الأخرى،

(1) المقرّي، أزهار، ج1، ص66؛ انظر أيضاً: فرحات، ص46؛ عنان، دولة، ج4، ص158؛ مصطفى، ص134؛ دراج، ص96؛ Conde, p. 639.

(2) أرسلان، خلاصة، ص174.

(3) المقرّي، أزهار، ج1، ص66؛ انظر أيضاً: دراج، ص97؛ مصطفى، ص134؛ سالم، بنو السراج، ص218؛ البشري، ص206.

(4) بشتاوي، الأمة، ص93.

(5) الظاهر خشقدم: أبو سعيد سيف الدين خشقدم بن عبد الله الناصري، السلطان الثامن والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، يعد من أكبر سلاطين الدولة البرجية، تميز عهده بالهدوء النسبي، لكنه واجه مشاكل من قبل الشركس، وعانت دولته من هجوم العربان على القرى المصرية وقوافل الحجاج، ومن تمرد المماليك الظاهرية، انظر: ابن تغري بردي، ج16، ص(253-263).

(6) دراج، ص97؛ البشري، ص206؛ سالم، بنو السراج، ص218.

وتجنب تشتيت الجهود العسكرية على أكثر من جبهة، وذلك من خلال فرض الحصار حول المدينة، والتضييق على سكانها وتجويعهم حتى تضعف هممهم ويعلنوا الاستسلام، ومن ثم الانتقال إلى مدينة أخرى⁽¹⁾، وكان الملكان قد قسمًا الأدوار بينهما، فتولى الملك قيادة الجيوش، بينما تولت الملكة تجنيد الفرسان وتأمين المؤن والذخيرة وبناء المستشفيات⁽²⁾.

وفي هذه المرحلة من تاريخ الصراع الدامي بين الإسبان والأندلسيين؛ قرر السلطان ابو الحسن علي بن سعد السيطرة على بلدة الصخرة، ذات الحصن المنيع، على بعد خمسين ميلاً إلى الشمال الغربي من مدينة رنדה، وتمكن أهميتها بالإضافة إلى ما جاورها من حصون؛ أنها تمثل خط الدفاع الأول عن مملكة غرناطة من الناحية الشمالية الغربية⁽³⁾، وكانت هذه البلدة قد سقطت بيد الإسبان في وقت سابق، واشتملت قواتهم حينذاك على أعداد كبيرة من فرسان القديس يعقوب⁽⁴⁾.

وما شجع السلطان الغرناطي على ذلك رغبته في تعزيز موقفه الداخلي وتقويته، مستغلاً الهدنة الهشة التي كان قد عقدها في العام نفسه مع الإسبان، وكذلك الأحوال الجوية العاصفة، ومستفيداً من الأخبار التي أفادت أن حامية البلدة كانت تعاني من الضعف، وما أن اكتملت الاستعدادات حتى انطلقت القوات الإسلامية من رنדה في 24 شوال 886هـ/كانون أول 1481م صوبَ البلدة وقلعتها⁽⁵⁾، وعندما وصلوا؛ نصبوا السلاالم وتمكنوا من السيطرة على الأبراج، مستغلين غياب الحراس بسبب الأحوال الجوية، ثم سيطروا على القلعة⁽⁶⁾، وبعد معركة قصيرة تمكن الأندلسيون من السيطرة على البلدة، وخلال ذلك قُتل عددٌ من المدافعين، وجمع الأندلسيون السكان في الساحة العامة، ثم أسروهم وغادروا إلى مدينة غرناطة بعد أن تركوا فيها حامية

(1) Elliott, p. 46

(2) الحايك، ص 82.

(3) عنان، دولة، ج 4، ص 195.

(4) بشري، ص 213.

(5) عنان، دولة، ج 4، ص 195؛ الحايك، ص 84؛ ارسلان، خلاصة، ص 160؛ انظر أيضاً: Conde, p. 642

(6) إيرفنج، ص (75-76)؛ Prescott, VI. p. 232؛ Conde, p. 642.

قوية، وما أن وصل السلطان مصحوباً بالغنائم والأسرى حتى تراحم الأعيان والفقهاء في قصر الحمراء لاستقباله⁽¹⁾.

سقوط مدينة الحامة عام 887هـ/1482م

نظر الإسبان بخطورة بالغة تجاه تمكن الأندلسيين من استعادة بلدة الصخرة وقلعتها، ما مهدّ لقيامهم بالبدء بسلسلة من العمليات العسكرية المنظمة منذ عام 887هـ/1482م، واستمرت عشر سنوات؛ فعرفت بحرب السنوات العشر، تمكنوا خلالها من السيطرة على ما تبقى من المدن الغرناطية، وفي مقدمتها مدينة غرناطة، آخر المدن الأندلسية في شبه الجزيرة الأيبيرية.

وما أن وصلت أنباء سقوط الصخرة إلى أسماع الملكين فرناندو وإيزابيل حتى بدأ بجمع الجيوش لقتال المسلمين، وانضم إليها مقاتلة الثغور والرهبان وفرسان قلعة رباح، الذين نذروا أنفسهم خدمة لهذا المشروع⁽²⁾، وكان الإسبان قد دأبوا على إرسال الحملات الاستطلاعية إلى المناطق الأندلسية؛ للاطلاع على عوراتها ومواطن ضعفها، فعلموا أن حامية بلدة الحامة أو الحمة، الواقعة جنوب غرب مدينة غرناطة، تعاني من الضعف، وأن من السهل السيطرة عليها والاستفادة من اتساع أرباضها، ومن موقعها الاستراتيجي كونها تقع على مرتفع صخري⁽³⁾، فقرر السيطرة عليها، ومن أجل تحقيق هذا الهدف؛ أرسلوا إليها مجدداً أحد رجالهم فتمكن سراً من تسلق الأسوار والطواف حولها ومعرفة عدد الحراس ومدى قربهم أو بعدهم عن الأسوار⁽⁴⁾.

وفي ذي الحجة 887هـ/شباط 1482م جرد الإسبان صوب مدينة الحامة قوة عسكرية تألفت من ثلاثمائة مقاتل، طرقتها ليلاً على حين غفلة من أهلها الذين كانوا في أغلبهم تجاراً وصناعاً، فدخلوا قصبته، وكانت خالية من الجند، ثم شرعوا بالهبوط من القصبه إلى البلد، وملؤوا الطرقات بالخيل والرجال، وأخذوا يقتلون كل من يظهر لهم، ومن لم يتمكن من الفرار

(1) عنان، دولة، ج4، ص195؛ إيرفنج، ص76؛ Conde, p. 642 .Prescott, VI. p. 232.

(2) بشري، ص207؛ ارسلان، خلاصة، ص161.

(3) إيرفنج، ص79؛ Bishko, III, p. 30.

(4) ارسلان، خلاصة، ص162؛ إيرفنج، ص79؛ Conde, p. 643.

وقع في الأسر، واستولى الإسبان على المدينة وعلى كل ما فيها من أموال ومواد تموينية، وأتلفوا كل ما عجزوا عن حمله، وأحرقوا المتاع والكتب، وأخرجوا أسراهم من السجن، كما قاموا بقتل أحد العيون الإسبان، ممن كانوا يعملون لصالح الأندلسيين⁽¹⁾.

وعندما علم أهل غرناطة بذلك انتابهم شعور بالغضب، وطالبوا أبا الحسن بالخروج لاسترداد المدينة، فأرسل على عجل ألف فارس، وما أن وصلوها حتى خرج منها فرسانهم، وتمكنوا من دحر القوات الإسلامية، التي عادت أدراجها إلى غرناطة⁽²⁾، ويبدو أن سيل الضغط الشعبي قد توالى على بلاط أبي الحسن من أجل استرداد المدينة⁽³⁾، فخرج على رأس عشرة آلاف مقاتل⁽⁴⁾، وما أن وصل حتى اشتبك مع القوات المسيحية عند الأسوار، وتمكن من دخول بعض الأبواب، إلا أن ضراوة المقاومة المسيحية لم تمكن المسلمين من التقدم أكثر، فطلب السلطان من المقاتلة التراجع بعد حلول الليل⁽⁵⁾.

وحاول السلطان تدبير خطة أخرى؛ فأمر جيشه بحفر خندق حول السور، غير أن ذلك لم يجد نفعاً، فقتل وجرح أثناء ذلك ألفان من المسلمين⁽⁶⁾، وعندما أدرك فشل هذه الطريقة؛ لجأ إلى حيلة أخرى، وذلك بقطع المياه الواردة إلى المدينة من نهر قريب، فاشتد الخناق على الإسبان، واستماتوا في الدفاع عن المدينة⁽⁷⁾، حيث قاموا بتقسيم فرسانهم إلى قسمين: قسم يقاتل المسلمين، وآخر يزود المدافعين بالماء من القناة الصغيرة الوحيدة التي بقيت لهم، وعلى الرغم من ذلك؛ عانوا من نقص حاد في مياه الشرب، فهلك كثيرون من شدة العطش⁽⁸⁾.

(1) مجهول، نبذة، ص 6؛ المقرئ، نفتح، ج 4، ص 512؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج 4، ص (201-202)؛ أرسلان، خلاصة، ص 162؛ إيرفنج، ص (82-83)؛ حاملة، الأندلس، ص 609؛ بشري، ص 207؛ العبادي، ص 464؛ Prescott, VI. pp. (234-235), 237.

(2) إيرفنج، ص 84؛ Prescott, VI. p. 237؛ Conde, p. 643.

(3) مجهول، نبذة، ص 7؛ انظر أيضاً: Conde, p. 643.

(4) المقرئ، نفتح، ج 4، ص 512؛ انظر أيضاً: Conde, p. 643.

(5) مجهول، نبذة، ص 7؛ انظر أيضاً: Conde, p. 643.

(6) أرسلان، خلاصة، ص 163؛ Prescott, VI. p. 239.

(7) مجهول، نبذة، ص 8؛ المقرئ، نفتح، ج 4، ص 512؛ انظر أيضاً: Prescott, VI. p. 239.

(8) إيرفنج، ص 87؛ Prescott, VI. p. 239.

ومن أجل تدارك هذا الخطر الدايم وتجنبه؛ استغاثت القوات المتواجدة داخل المدينة بإشبيلية، فقدم خمسة آلاف فارس وخمسون ألف ماش يتقدمهم رئيس قلعة رباح، وقدم الملك فرناندو بجيوش وافرة العدد، وعندما علم السلطان المرابط أمام أسوار المدينة بهذا النبأ؛ أراد القيام بحركة أخيرة، فأمر مجموعة من خيرة رجاله بنصب السلاالم وتسلق الأسوار، بهدف الوصول إلى داخل المدينة، غير أن المدافعين أدركوا الأمر وتمكنوا من إفشال هذه المهمة، فأصاب السلطان اليأس، وأمر برفع الحصار والعودة إلى غرناطة، تاركاً خلفه مدينة الحامة وقد انتظمت تحت الحكم الإسباني⁽¹⁾. ويبدو أن الجيش الغرناطي كان قد توجه لحصار المدينة دون اصطحاب أدوات الحصار والقتال الثقيلة كالمدفعية، وكان مكشوفاً للعدو، فأصبح كل جندي أندلسي معرضاً للسهم، ما أدى إلى مقتل عدد كبير منهم⁽²⁾.

حرب الاستنزاف الإسبانية، والسيطرة على بلدة الصخرة عام 888هـ/1483م

عقد الإسبان في صفر 888هـ/آذار 1483م اجتماعاً في مدينة انتقيرة، ضم عدداً من القادة والنبلاء، وقرروا التوجه في جمع بلغ ثمانية آلاف من الفرسان والمشاة صوب قرى شرقي مالقة، وبخاصة قرية بلش⁽³⁾، لسبي أهلها وإفساد زرعها، ولما وصلوا أخذوا يحرقون الزرع ويدمرون المنازل⁽⁴⁾، وعلى ما يبدو فإن الأهالي كانوا يعلمون بالنوايا والتحركات الإسبانية، فصعدوا إلى الجبال المحيطة للاعتصام بها⁽⁵⁾، ثم بدأوا بإقامة الكمائن في الشعاب الجبلية⁽⁶⁾، وأخذوا منها يمطرون الجيش الإسباني بالحجارة والنبيل، فتمكنوا من الإيقاع بهم وإجبارهم على الفرار، وحينها قرر قائد فرسان القديس يعقوب، المكلف بقيادة ساقية الجيش، إعادة تجميع القوات في مكان واحد استعداداً للقتال مرة أخرى، واختار مكاناً مليئاً بالهوات والأخايد، مما سهل على

(1) المقرّي، نفح، ج4، ص512.

(2) ارسلان، خلاصة، ص162؛ Prescott, VI. p. 238.

(3) بلش: من أعمال مالقة، على بعد أربعة وثلاثين كيلو مترات إلى الشرق منها، انظر: حتاملة، موسوعة، ج1، ص317.

(4) مجهول، نبذة، ص11؛ المقرّي، نفح، ج4، ص514؛ انظر أيضاً: بشري، ص213؛ Perscott, VI. p. 251.

(5) بشري، ص214.

(6) مجهول، نبذة، ص11؛ انظر أيضاً: بشري، ص214.

المسلمين الاستمرار في استهدافهم⁽¹⁾. وإزاء هذه التطورات؛ هرع الأمير أبو عبدالله الزغل محمد بن سعد من مدينة مالقة، على رأس قواته لقتال المسيحيين، فتمكن من قتل وأسر ما يزيد على ألفين منهم⁽²⁾، ومن بينهم خال الملك فرندو وحاكم مدينة إشبيلية وكذلك حاكم أنتقيرة⁽³⁾، وأجبر الباقون على الفرار تاركين وراءهم خيامهم ودوابهم وأمتعتهم، فحملها المسلمون إلى مالقة⁽⁴⁾.

وعلى غرار الهجمات الناجحة التي شنّها الزغل ضد الإشبان؛ قام أبو عبد الله الصغير بمهاجمة المواقع المسيحية شمال العاصمة، وحقق بعض الانتصارات، وفي طريق العودة تمكن الإشبان من إيقاع الهزيمة بجيشه في نواحي حصن اللسانة في صفر 888هـ/ شباط 1483م، ما أدى إلى مقتل العديد من أفرادهم كان من بينهم القائد علي العطار^(ت. 888هـ/ 1483م)⁽⁵⁾، وأسر وأسر السلطان أبو عبد الله، ثم نُقل إلى قرطبة حيث الملك فرناندو الذي عدّه بمثابة ورقة ثمينة لصالح مشروعه القاضي بالقضاء على مملكة غرناطة، فاستقبل استقبال الأمراء، وعومل بإكرام وحفاوة⁽⁶⁾، وشكلت هذه الواقعة مقدمةً للتنازلات التي قدمها الصغير للإشبان، وتسببت في القضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس.

ومن ناحية أخرى، اتّجه الإشبان للسيطرة على بلدة الصخرة وقلعتها، فزحفوا نحوها يوم 27 رمضان 888هـ/ 28 تشرين الأول 1483م بستمائة فارس وألف وخمسمائة راجل⁽⁷⁾، ووصلوها ليلاً بصمت وهدوء، لدرجة أن القوات الإسلامية المشرفة على حماية الأسوار لم تسمع أية حركة، ونظراً لطبيعة البلدة الجغرافية؛ لجأت القوات المسيحية لخطة عسكرية بهدف اقتحامها، حيث طلبوا من عشرة رجال التسلق والاختباء خلف الصخور القريبة من الأسوار، مع

(1) بشري، ص 214؛ انظر أيضاً: Bishko, III, p. 30.

(2) مجهول، نبذة، ص 11؛ المقرّي، نفح، ج 4، ص 514؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج 4، ص 203.

(3) المقرّي، نفح، ج 4، ص 514.

(4) مجهول، نبذة، ص 11؛ انظر أيضاً: Bishko, III, p. 30.

(5) علي العطار: من أشجع وأمهر فرسان غرناطة على الرغم من شيخوخته، انظر: عنان، دولة، ج 4، ص 204.

(6) مجهول، نبذة، ص 12؛ المقرّي، نفح، ج 4، ص 515؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج 4، ص (203-204)؛ فرحات،

ص 50؛ Prescott, VI. P. 263؛ Conde, pp. (646-647).

(7) ارسلان، خلاصة، ص 174.

مرابطة سبعين آخرين بالقرب منهم لتسلقها حينما تتاح الفرصة، وبقاء باقي القوات بالقرب من باب الحصن الذي ضم عدداً من العيون، واقتضت الخطة أيضاً قيام سبعين فارساً بالمرور من أمام حامية البلدة التي بادرت بملاحقتهم بهدف التصدي لهم، فاستغل الأسبان ذلك وقام المكلفون بتسليق الأسوار بالسيطرة على الأبراج، فخاض المسلمون معهم صراعاً مريراً مستخدمين الرماح، والبنادق الطويلة الثقيلة، وانتهى بسقوط السور والبوابة، وتراجع المدافعون الذين بلغوا خمسين مقاتلاً، فعرض المسيحيون على المحاصرين الخروج بكل ما يقدرون على حمله، باستثناء السلاح، والتوجه إلى بلاد المغرب، وهكذا خسر المسلمون هذه البلدة بعد أن كانوا قد استعادوها في وقت سابق⁽¹⁾.

سقوط الحصون الغربية والجنوبية الغربية، ومدينة رنדה عام 890هـ/1485م

يبدو أن الطابع الذي غلب على سياسة الإسبان تجاه الحصون الأندلسية؛ قد تمثل باعتماد أسلوب المفاجأة والسيطرة والنهب خلال فصلي الربيع والصيف، وتُخلى في الشتاء، بيد أن هذا الطابع ما لبث أن تغير منذ مطلع عام 889هـ/1484م بعد دخول البارود على خط الصراع ضد الأندلسيين، بهدف تدمير حصونهم والسيطرة عليها، واستعان الإسبان في ذلك بخبراء من فرنسا وألمانيا، واستكثر فرناندو من المجانيق التي اعتمدت على البارود⁽²⁾، فضلاً عن الزيادة التي طرأت على نشاط الإسبان في إنشاء مصانع السلاح في العديد من المدن، وبخاصة في إشبيلية وقرطبة⁽³⁾.

ولما كانت الحصون تمثل مواقع متقدمة للدفاع عن المدن؛ فقد حرص الإسبان على تسخير قوتهم كلها من أجل السيطرة عليها، ومن أجل ذلك خرجوا في ربيع الآخر 890هـ/نيسان 1485م قاصدين غرب الأندلس، ففرضوا حصاراً حول حصن قرطمة من أعمال كورة رية، جنوب غرب مملكة غرناطة، كما فرضوا حصاراً مماثلاً حول حصن

(1) إيرفنج، ص 163.

(2) المرجع نفسه، ص 171، 237.

(3) الحايك، ص 163.

ذكوين⁽¹⁾، أو دكوين، الواقع إلى الغرب من مدينة مالقة، والمشهور بوفرة مياهه وكثرة بساتينه وغنى أراضيه بالمحاصيل الزراعية⁽²⁾، وفي الوقت نفسه؛ رابط الملك فرناندو مع مجموعة من جيشه بين الحصنين؛ لتقديم المساعدة لأي طرف وقت الحاجة، وعمدت المدفعية الإسبانية إلى ضرب أسوارهما بالقذائف الحجرية والمعدنية، وبذل المسلمون جهوداً كبيرةً في الدفاع⁽³⁾، إلا أن المسيحيين تمكنوا من دخول الحصنين بعد أن هدمت أسوارهما⁽⁴⁾، وبسقوطهما تم قطع الطريق بين مدينتي رندة ومالقة⁽⁵⁾، ومُهدت الطريق للهجوم على الأخيرة، المرفأً الإسلامي الهام، الذي كان الأندلسيون يعتمدون عليه في وصول الإمدادات الخارجية، فزاد واليها الأمير أبو عبد الله الزغل في تحصينها وتقوية دفاعاتها، وأرسل يطلب النجدة من القرى المجاورة، كما خاض إلى جانب ألف فارس معركة طاحنة مع الإسبان في سهلها، فعدلوا عن الاستمرار في الزحف إليها، وتوجهوا صوب مدينة رندة⁽⁶⁾.

واستغل الإسبان خلو مدينة رندة من قائدها حامد الثغري⁽⁷⁾ وحاميتها، بسبب خروجهم للدفاع عن مدينة مالقة⁽⁸⁾، فقاموا بمحاصرتها في جمادى الأولى 890هـ/أيار 1485م، لمدة أربعة أيام، دافع خلالها الأهالي عنها بشراسة، إلا أن أسوارها ما لبثت أن تهشمت بفعل القذائف⁽⁹⁾، كما هُدمت أبراجها الثلاثة، وتصدت القوات الإسبانية للثغري ومن معه من فرسان، ومنعتهم من الوصول إلى المدينة⁽¹⁰⁾، ولجأ المحاصرون إلى قطع الماء عنها، والتي كانت تأتي من أحد الينابيع القريبة⁽¹¹⁾. ولم يكتفوا برمي المدينة بقذائف المدافع الحديدية الضخمة، بل رموها

(1) مجهول، نبذة، ص 13؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج 4، ص 206. انظر أيضاً: Bishko, III, p. 31.

(2) حتاملة، موسوعة، ج 1، ص 444.

(3) ايرفنج، ص 175.

(4) المقرّي، نفح، ج 4، ص 515؛ انظر أيضاً: Conde, p. 652.

(5) عنان، دولة، ج 4، ص 206.

(6) ايرفنج، ص (175-177).

(7) حامد الثغري: زعيم قبيلة غمارة وأحد الفرسان المسلمين المشهود لهم بالشجاعة، انظر: المقرّي، نفح، ج 4، ص 516.

(8) ايرفنج، ص 177.

(9) مجهول، نبذة، ص (13-14)؛ المقرّي، نفح، ج 4، ص 516. انظر أيضاً: Bishko, III, p. 31 Conde, p. 652.

(10) ايرفنج، ص (180-181).

(11) ارسلان، خلاصة، ص 177.

بكرات الزيت المشتعل التي لا يمكن إطفائها، فأحترقت البيوت وفزع الناس الذين لم يعودوا يدركون إلى أين يتوجهون⁽¹⁾، فطلبوا الأمان⁽²⁾، وسُمح لهم الخروج بكامل أمتعتهم إلى بلاد المغرب، كما سمح لمن لم يرغب بالخروج البقاء فيها تحت الحكم الإسباني⁽³⁾ مما مهد للسيطرة على مدينة مالقة⁽⁴⁾.

وابتهاجاً بسقوط مدينة رندة عمّت الاحتفالات الدينية أرجاء إسبانيا، ووُزعت الصدقات، وأمرت الملكة ايزابيل بتحويل مساجد المدينة إلى كنائس، وبخاصة المسجد الأكبر الذي تحول إلى كنيسة باسم السيدة العذراء، وقام الملك فرناندو بتعمير المدينة، فنقل إليها سكاناً من إشبيلية وقرطبة ليستوطنوها⁽⁵⁾.

وفي صيف عام 890هـ/1485م حاول القشتاليون بعد سيطرتهم على مدينة رندة السيطرة على حصن مكّين، الواقع في الشمال الغربي من غرناطة، في الوقت الذي كان فيه أبو عبدالله الزغل يقوم على رأس قوة غرناطية بالعمل على تحصين أسواره⁽⁶⁾، وأثناء ذلك وصلت أخبار تفيد بخروج القوات الإسبانية بما معها من عدة وأنفاطوبارود، قاصدين الحصن، غير أن الأمير لم يُلق بالآلهة الأخبار⁽⁷⁾، ولكن سرعان ما وصل الإسبان وهاجموا الحصن، فاختلفت مصاف المسلمين بادئ الأمر كونهم لم يكونوا مستعدين للمواجهة، وتمكن المهاجمون من الوصول إلى مضارب الزغل، فاشتد القتال وتمكن المسلمون من هزيمتهم شر هزيمة، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، واستولوا على كثير من الغنائم والآلات⁽⁸⁾.

(1) ايرفنغ، ص 181.

(2) مجهول، نبذة، ص 14؛ المقرئ، نفح، ج 4، ص 516.

(3) ايرفنغ، ص 181.

(4) مجهول، نبذة، ص 14؛ المقرئ، نفح، ج 4، ص 516.

(5) الحايك، ص 161.

(6) مجهول، نبذة، ص 14؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج 4، ص 207.

(7) مجهول، نبذة، ص 14.

(8) المصدر نفسه، ص 14؛ المقرئ، نفح، ج 4، ص 516؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج 4، ص 206.

وأما حصن قنبييل المتمركز على الجبال العالية، والمدعوم من الأبراج المرتفعة، والقريب من العاصمة، فقد دأبت حاميته على مهاجمة أبرشية مدينة جيان، ولهذا وضع الإسبان نصب أعينهم السيطرة عليه، وكان الأندلسيون قد حرصوا على تحصينه وشحنه بحامية قوية قادرة على التصدي لأي هجوم، وتكون معظم عناصر هذه الحامية من فرسان بني السراج، ومن أجل السيطرة على الحصن تم توجيه قوة عسكرية تألفت من ألف مقاتل، أوكل إليهم مهمة محاصرته، بانتظار وصول الملك مع بقية الجيش بالاضافة إلى المدفعية، وتخلل ذلك هجمات يومية متبادلة، وفي الوقت نفسه أرسل قائد الحصن من يطلب المدد من أهالي مدينة غرناطة⁽¹⁾.

وأخذت القوات الإسبانية بقطع الأشجار، وتكسير الصخور وإلقائها في الوادي، ومن أجل تسهيل عملية تحريك المدفعية من مكان إلى آخر⁽²⁾. ثم تمكنت من تهشيم الأسوار وهدم أجزاء منها وسط دفاع إسلامي عنيف⁽³⁾، إلا أن قوة المدفعية الإسبانية ومقتل العديد من الفرسان المسلمين لم تمكن المدافعين من الصمود طويلاً⁽⁴⁾، بعد أن أدركوا أنه لا طاقة لهم في الإستمرار، وأن المهاجمين سيتمكنون من الدخول عنوة، فطلبوا الخروج بأمان، وذلك في رمضان 890هـ/أيلول 1485م، وترتب على ذلك أيضاً قيام المسلمين بإخلاء الحصون القريبة كأرنبية، ومشافر، واللوز⁽⁵⁾.

سقوط مدينة لوشة، وحصون البيرة ومكّين وقنبييرة عام 891هـ/1486م

استغل الملك فرناندو الأوضاع الداخلية الغرناطية المضطربة، وقام في جمادى الأولى 891هـ/أيار 1486م بمهاجمة مدينة لوشة الواقعة إلى الغرب من مدينة غرناطة، وكانت تابعة لأبي عبد الله الصغير، الذي ما أن علم بأمر الهجوم حتى هب لنجدها بصحبة مجموعة من

(1) إيرفنج، ص (192 - 193).

(2) المرجع نفسه، ص 194.

(3) مجهول، نبذة، ص 15؛ المقرئ، نفح، ج 4، ص 516.

(4) إيرفنج، ص 196.

(5) مجهول، نبذة، ص 15؛ المقرئ، نفح، ج 4، ص 516.

جنوده وعدد من أهالي حي البيازين⁽¹⁾، ولم يقدم لنجدتها أحد من أهالي غرناطة التابعة لسلطة عمه الزغل خشيةً من أن يكون هذا الأمر حيلة من الصغير بهدف افراغ العاصمة من المقاتلين ومهاجمتها بشكل مفاجيء⁽²⁾، وخاض الصغير معارك طاحنة مع الإسبان لمنعهم من السيطرة على الجبل المطل على المدينة، حتى يحرمهم من الاستفادة منها في قصفها وفرض الحصار حولها⁽³⁾، إلا أنه فشل في ذلك، وتمكن الإسبان من السيطرة على المكان، وشرعوا في فرض الحصار حول المدينة وقصفها بالقذائف الحديدية والحجارة حتى تمكنوا من هدم أسوارها وأبراجها، فأخذت بيوتها تنهار، في الوقت الذي حاول فيه المسلمون التصدي لهذه الهجمات بوسائل بدائية مستخدمين العصي والفؤوس والسيوف، إلا أنها جميعها لم تكن قادرة على الوقوف بوجه المدفعية⁽⁴⁾، وكان بإمكان أهالي غرناطة استخدام المدافع التي اغتتموها من الإسبان بعد إحدى المعارك، في الدفاع عن مدينة لوشة، إلا أنهم لم يفعلوا، لا بل تقاعسوا عن نجدتها⁽⁵⁾.

وعندما أدرك أهالي لوشة عقم الاستمرار في المقاومة؛ اتفقوا على إرسال وفد للتفاوض مع الإسبان حول تسليم المدينة، واشتروطوا خروج المحاصرين آمنين بأموالهم وأولادهم وخيولهم وسلاحهم، وكل ما يقدر على حمله، والتوجه إلى غرناطة، وتسليم الأسرى الموجدين في المدينة⁽⁶⁾. أما أبو عبد الله الصغير فقد أخذت منه العهود على تسليم مملكة غرناطة كاملة خالية من سيطرة الزغل خلال ستة أشهر⁽⁷⁾، وكان يحظى بدعم الملك فرناندو خدمة لأطماع الأخير في الإجهاز على أشلاء مملكة غرناطة⁽⁸⁾، فلم يكن من المستبعد إذن أن تكون السيطرة الإسبانية الإسبانية على مدينة لوشة قد تمت بالتواطؤ مع أبي عبد الله الصغير⁽⁹⁾.

(1) مجهول، نبذة، ص 17؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج 4، ص 209؛ Prescott, VI. pp. (261-262).

(2) المقرئ، نفتح، ج 4، ص 514؛ انظر أيضاً: Prescott, VI. pp. (261-262).

(3) ايرفنج، ص 217؛ انظر أيضاً: Prescott, VI. pp. (261-262).

(4) مجهول، نبذة، ص 17؛ انظر أيضاً: Prescott, VI. pp. (261-262).

(5) المقرئ، نفتح، ج 4، ص 514؛ انظر أيضاً: Prescott, VI. pp. (261-262).

(6) مجهول، نبذة، ص 17؛ المقرئ، نفتح، ج 4، ص 527؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج 4، ص 209؛ ايرفنج، ص 217.

(7) ايرفنج، ص 217.

(8) عنان، دولة، ج 4، ص 210.

(9) المقرئ، نفتح، ج 4، ص 517؛ انظر أيضاً: حتاملة، الأندلس، ص 613.

وأدى سقوط لوشة إلى سقوط عدد من الحصون القريبة؛ ومنها حصن إلبيرة الواقع في الشمال الغربي من غرناطة، وكان الملك فرناندو قد خرج على رأس جيشه، وفرض حوله حصاراً، وأخذ بضربه بالأنفاط والعدة، مما أدى إلى استسلام حاميته واللجوء إلى مدينة غرناطة⁽¹⁾، ومن ثم سار فرناندو بستة آلاف فارس، واثنى عشر ألف راجل، واجتاح أراضي مالقة، فأحرق بيوتها وزرعها، ثم زحف صوب أريولة فخاف أهلها واستسلموا⁽²⁾.

ومن أريولة توجه فرناندو إلى حصن مكليين الواقع في الشمال الغربي من غرناطة، فتصدى له أفراد حاميتها، واستخدم المهاجمون الأنفاط والمدفعية، مما أدى إلى احتراق الحصن وتحطم أسواره، فاستسلم هو الآخر، وخرجت حاميته واتجهت نحو مدينة غرناطة. وخوفاً منهم على حياتهم بادر المدافعون عن حصن قلنبيرة، الواقع إلى الشرق من مكليين، إلى تسليمه دون قتال مقابل المغادرة إلى غرناطة بأمان⁽³⁾، وكذلك فعل أفراد حامية حصن منتقريد، الذين سلموه للإسبان مقابل الشروط التي طلبتها الحصون الأخرى⁽⁴⁾، وما لبث الإسبان أن شرعوا بإعادة بنائها وتحصنيها وشحنها بالرجال والمؤن والخيول، تمهيداً لحصار غرناطة⁽⁵⁾، وعلى الرغم من علم الزغل بسقوط تلك الحصون؛ فإنه لم يخرج من غرناطة للدفاع عنها، خوفاً على عرشه من الضياع⁽⁶⁾.

سقوط مدينة مالقة عام 892هـ/1487م

قرر الإسبان إغلاق كافة الثغور والمنافذ البحرية التابعة لمملكة غرناطة، وكانت مدينة مالقة على البحر المتوسط من أعظمها، وبها أهم موانئ الأندلس، فضلاً عن كونها مركزاً تجارياً مهماً اعتمد عليه الأندلسيون في استقبال المتطوعة والأسلحة والخيول من بلاد المغرب، فكان لا

(1) مجهول، نبذة، ص 17؛ المقرئ، نفح، ج 4، ص 518؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج 4، ص 211.

(2) ارسلان، خلاصة، ص 175.

(3) مجهول، نبذة، ص 17؛ المقرئ، نفح، ج 4، ص 518؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج 4، ص 211؛ Conde, p. 654.

(4) مجهول، نبذة، ص 18.

(5) المصدر نفسه، ص 18.

(6) ارسلان، خلاصة، ص 181.

بد للإسبان من الإستيلاء عليها، ولا يأتي ذلك إلا بالسيطرة أولاً على حصن بلش، خطها الدفاعي الأول، والذي أقيم فوق مكان مرتفع شمالي المدينة، وتشرف أبراجه على كل الجهات، ويحيط به وبالمدينة خندق مائي⁽¹⁾.

ومن أجل السيطرة على هذا الحصن المهم؛ زحف الملك فرناندو في ربيع الثاني 892هـ/نيسان 1487م على رأس جيش تألف من عشرين ألف فارس وخمسين ألف ماش، قُسم إلى قسمين: الأول بقيادة الملك فرناندو الذي اتخذ من المناطق الجبلية طريقاً له، وكلف هذا القسم بتمهيد الطريق⁽²⁾، والثاني كان قد اعتمد على فرسان القنطرة وسلك طريق الوادي⁽³⁾، ومعهم المدفعية، إضافة لفريق من المهندسين الألمان الموكل لهم ببناء الجسور فوق معابر الجبال، وإلقاء الصخور في الوادي وفوق الجداول الوعرة، وما أن وصل فرناندو بمحاذاة الحصن حتى نصب خيامه على سفح إحدى المرتفعات⁽⁴⁾، ثم ما لبثت الفرقة الثانية أن وصلت، وشرعت القوات بنصب آلات الحصار بعد قيامها بفرض طوق حول الحصن، وعندما علم الزغل بذلك؛ هرع للدفاع عنه مع من أطاعه من أهالي غرناطة والبشرات ووادي آش، وحرص على ترك قسم من جيشه ليقاتل أهالي البيازين، وعندما وصل؛ اشتبكت قواته مع الإسبان في معركة غير متكافئة، فدارت الدائرة على القوات الغرناطية، ومنيت بهزيمة كبيرة، وعلى إثر ذلك استسلمت حامية الحصن، ومن ثم سارت منطقة شرقي مالقة على خطاه بعدما رأى أهلها تكالب الإسبان عليهم، والهزيمة التي مني بها الغرناطيون⁽⁵⁾.

وكان سقوط مدينة رندة عام 890هـ/1485م ضربةً قويةً لمالقة، باعتبارها إحدى أهم الحصون المدافعة عن المدينة من جهة البحر، وبعد سقوط حصن بلش ازداد الطين بلة، ولهذا

(1) إيرفنج، ص (238-241)؛ Prescott, VI. p. 290.

(2) ارسلان، خلاصة، ص 183؛ إيرفنج، ص 238؛ Prescott, VI. p. 289.

(3) بشري، ص 200؛ إيرفنج، ص 238.

(4) إيرفنج، ص (238-241).

(5) مجهول، نبذة، ص 22؛ المقرئ، نفح، ج 4، ص 591؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج 4، ص 213؛ Prescott, VI. p.

أخذ الملك فرناندو يستعد للسيطرة على مدينة مالقة⁽¹⁾، ومن المعلوم أن المدينة كانت قد بنيت في واد خصيب، مفتوح من جهة البحر، وتقع قصبته على طرف إحدى روايبها، وتحيط بها الجبال من جهة البر حيث وُجدت بيوتها⁽²⁾ المسكونة بخمسين ألف نسمة⁽³⁾ وأحيطت المدينة بالأسوار المدعمة بثمانين من الأبراج، ولها أربع قلاع تتصل فيما بينها بسراديب سرية، وأما حاميتها عشية الغزو الإسباني فتكونت من ثمانين ألف مقاتل⁽⁴⁾، بقيادة حامد الثغري⁽⁵⁾.

وأعد الإسبان للسيطرة على المدينة جيشاً قُدِّرَ بتسعين ألف مقاتل بري وبحري، فوصل إليها في 14 جمادى الأولى 892هـ/7 أيار 1487م⁽⁶⁾، وأما السفن فرابطت في البحر، لمنع وصول أية إمدادات بحرية⁽⁷⁾، وشرع الإسبان في إقامة الأسوار الخشبية وحفر الخنادق حول المدينة لمنع الدخول والخروج منها عن طريق البر⁽⁸⁾، إلا أن ذلك لم يمنع المدافعين عنها من الخروج ومهاجمة محاصريهم⁽⁹⁾، لا بل تمكن الأندلسيون من تكبيدهم خسائر فادحة، مستخدمين كل ما لديهم من سلاح وأنفاط⁽¹⁰⁾، وانفرد صاحب "نبذة العصر" بالقول: أنهم تمكنوا خلال يوم واحد من قتل اثني عشر ألفاً وسبعمائة جندي إسباني⁽¹¹⁾.

وأمام هذه المقاومة الكبيرة من أهالي مالقة، أمر الملك فرناندو المدفعية البرية والبحرية بضرب المدينة، فهُشِّمَت الأسوار، وتمكن الجيش الإسباني من السيطرة على أحد الأبراج، إلا أنهم لم يجروا على اقتحامها خوفاً من المسلمين الذين استماتوا في الدفاع، وأمر قائد حاميتها

(1) مجهول، نبذة، ص 23؛ المقرئ، نفح، ج 4، ص 520.

(2) إيرفنج، ص 185؛ Prescott, VI. p. 290.

(3) إيرفنج، ص 300.

(4) حومد، ص (138-139)؛ Prescott, VI. p. 290.

(5) إيرفنج، ص (185-188).

(6) حومد، ص (138-139)؛ Prescott, VI. p. 292.

(7) إيرفنج، ص 186؛ Prescott, VI. p. 292.

(8) مجهول، نبذة، ص 22؛ المقرئ، نفح، ج 4، ص 520؛ انظر أيضاً: Prescott, VI. p. 297.

(9) إيرفنج، ص 186.

(10) مجهول، نبذة، ص 24؛ المقرئ، نفح، ج 4، ص 520؛ انظر أيضاً: Prescott, VI. pp. 294. 298.

(11) مجهول، نبذة، ص 24.

حامد الثغري بضرب عنق كل من يستسلم أو يطالب بالتسليم⁽¹⁾. وفي ظل هذا الوضع الحرج؛ أرسل القائد الثغري من يطلع الأمير أبا عبد الله الزغل على ما تلاقيه مالقة، فبادر بإرسال جيش لمساعدة المدينة، إلا أنه لم يتمكن من الوصول بسبب قيام جيش الأمير أبي عبد الله الصغير بقطع الطريق عليه، بناءً على الاتفاق السابق الذي يربطه بالبلط الملكي الإسباني⁽²⁾.

ودأب الأمير أبو عبد الله الزغل طوال فترة الحصار على إرسال الكتب إلى بلاد المغرب وبخاصة مدينة تونس⁽³⁾، كما أرسل رسالة استغاثة إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني (886هـ-918هـ/1481-1512م)⁽⁴⁾، فأرسل أسطولاً إلى السواحل الأندلسية، غير أنه لم يتمكن من استرجاع أي من المدن، فغدت مدينة غرناطة وحيدة في مواجهة الإسبان، بعد أن تم تجريدها من قلاعها وحصونها كافة⁽⁵⁾، أما مصر فتسلم ملكها المملوكي قايتباي (872-901هـ/901هـ/1467-1496م)⁽⁶⁾ رسالة مماثلة، فاستجاب لها بإيفاد قس كنيسة القيامة إلى ملك نابولي فرديناندو الأول (Ferdinando I) (862-899هـ/1458-1494م)، الذي كانت تربطه علاقة حسنة مع السلطان المملوكي، وإبلاغه أنّ عدم توقف الإسبان عن مهاجمة الأندلسيين سيدفع المسلمين إلى اضطهاد مسيحي المشرق، وإغلاق كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس والأديرة في فلسطين. كما أرسل قايتباي مع القس المذكور رسالة مماثلة إلى كل من البابا أنوسنت الثامن والملكين فرناندو وإيزابيل، وما أن انتهى من أداء سفارته حتى كانت مالقة قد سقطت بيد الإسبان، وبدأت قواتهم بالمرابطة أمام مدينة بسطة، فذهبت جهوده هباءً، ولم يحقق

(1) إيرفنج، ص188.

(2) المرجع نفسه، ص(190-191)، 271.

(3) المقرئ، نفتح، ج4، ص250.

(4) بايزيد الثاني: أكبر أبناء السلطان محمد الفاتح، بُويع بعد وفاة والده، وعرف عنه ميوله للسلم والتعلق بالآداب والعلوم، فأطلق عليه "الصوفي"، وعلى الرغم من ذلك؛ نشط في صد الهجمات على التخوم العثمانية، انظر: المحامي، ص(179-180)، 182.

(5) غنيمات، ص88.

(6) أبو النصر، سيف الدين قايتباي المحمودي الأشرفي، الملك الحادي والأربعون من ملوك الترك وأولادهم في السديار المصرية والخامس عشر من ملوك الجراكسة، وهو جركسي النسب جلبه إلى مصر الخواجا محمود واشتراه الملك الأشرف برسباي، ومن أشهر أعماله العمرانية؛ المدرسة الأشرفية بالقدس، وقلعة قايتباي في مدينة رشيد، انظر: ابن اياس، ج3، ص209.

هذا النشاط الدبلوماسي أي نتائج، في ظل الإصرار الإسباني على مواصلة عمليات السيطرة على ما تبقى من القواعد الأندلسية، في وقت كانت المملكة الأندلسية تعيش أضعف مراحل تاريخها⁽¹⁾.

واستمر حصار مدينة مالقة ثلاثة أشهر، فاضطر أهلها -الذين نهشهم الجوع والمرض- لأكل لحم الخيل والحمير والجلود وأوراق الشجر⁽²⁾، ومات كثيرٌ من الفرسان جوعاً⁽³⁾، فاستصرخوا قائد المدينة حامد الثغري وطلبوا منه تسليم المدينة⁽⁴⁾، فقبل طلبهم، وانسحب إلى قلعة جبل فارو⁽⁵⁾ مع عدد من فرسانه⁽⁶⁾، فسارع عدد من الأهالي إلى الملك فرناندو، وعرضوا تسليم المدينة بشرط الحفاظ على أموالهم، وحياتهم، وبقائهم في مدينتهم آمنين، فقبل طلبهم بالرفض، وأصر الملك فرناندو على تسليم المدينة دون شروط⁽⁷⁾، فأعلن أهلها الاستسلام في شعبان 892هـ/آب 1487م⁽⁸⁾، واسترقوا جميعاً⁽⁹⁾، ثم قُسموا إلى ثلاثة أقسام: الأول قدم لخدمة الرب من خلال خدمة أبناء الإسبان، أما الثاني فأعطي للعناصر الأوروبية التي شاركت في الحملة، وأما القسم الثالث فبيع بالأسواق، وأعطى ريعهم إلى البابا إينوسنت الثامن⁽¹⁰⁾. وبعد يومين من سقوط المدينة وقع القائد الثغري في الأسر⁽¹¹⁾. وفي العام

(1) ابن إياس، ج1، ص(244-245).

(2) مجهول، نبذة، ص24؛ المقرئ، نفح، ج4، ص520؛ انظر أيضاً: Prescott, VI. p. 299؛ Bishko, III, p. 31.

(3) مجهول، نبذة، ص24؛ انظر أيضاً: Prescott, VI. p. 299.

(4) أيرفنغ، ص192.

(5) حصن يقوم على جبل مرتفع يقع شرقي مالقة، يحتوي على برج هائل للاشراف على مدينة مالقة وخليجها، ويبلغ ارتفاعه 17 متراً، انظر: سالم، في تاريخ، ص238.

(6) حومد، ص، 140؛ Prescott, VI. p. 299.

(7) أيرفنغ، ص(291-293)؛ Prescott, VI. p. 299.

(8) مجهول، نبذة، ص24؛ المقرئ، نفح، ج4، ص520؛ المقرئ، أزهار، ج1، ص66؛ انظر أيضاً: حتاملة، ص615؛ فرحات، ص51؛ حومد، ص140؛ Prescott, VI. p. 299 Conde, p. 656.

(9) حومد، ص 140؛ Prescott, VI. p. 299.

(10) أيرفنغ، ص(298-299)؛ Prescott, VI. p. 303.

(11) حتاملة، الاندلس، ص615؛ حومد، ص140؛ أيرفنغ، ص296.

التالي لسقوط مالقة؛ توجه الإسبان صوب الحصون الشرقية، التي كانت ترتبط معهم بصلح، فاستولوا عليها غدرًا، واسترقوا أهلها⁽¹⁾.

سقوط مدينة بسطة عام 895هـ/1489م

قرر الملك فرناندو الاستيلاء على الأنحاء الشرقية من غرناطة، فقرر مهاجمة مدينة بسطة، التي تعد من أهم القواعد الشرقية التابعة للأمير أبي عبد الله الزغل، المتواجد في مركز حكمه في وادي آش، ولم يستطع مغادرتها للدفاع عن ممتلكاته، خشيةً من قيام ابن أخيه الأمير أبي عبد الله الصغير بالغدر به ومهاجمته من الخلف⁽²⁾.

فانتهاز الإسبان الفرصة وبدأوا بالهجوم، ففرضوا في رجب 894هـ/حزيران 1489م الحصار حول حصن موجر⁽³⁾، فأبدت حاميته خلال الحصار مقاومة شديدة لعدة أيام، انتهت بسقوطه، ومن ثم ساروا إلى مدينة بسطة، وأقاموا معسكرهم بالقرب منها⁽⁴⁾، وكانت المدينة تشتمل على عشرين ألف فارس من المدافعين⁽⁵⁾، بقيادة يحيى النيار، وهرعت للدفاع عنها مجموعات من الفرسان من أهالي وادي آش والمريّة والمنكب والبشرات، بناءً على أوامر الأمير أبي عبد الله الزغل⁽⁶⁾، وكان قائد المدينة يحيى النيار قد علم بنوايا الإسبان قبل وصولهم، فأمر الأهالي بحصد الزرع، وتخزين المؤن واللحوم والأسلحة، حتى أن أهالي مدينة بسطة قاموا بحصد حقول القمح قبل نضوجها، لحرمان الإسبان من الإستفادة منها⁽⁷⁾.

وما لبث الملك فرناندو أن أصدر أوامره بفرض الحصار حول المدينة، فأحاط الجند الإسباني بها من الجهات كافة، ومنعوا الدخول إليها والخروج منها، وفي الوقت نفسه اعتلى

(1) مجهول، نبذة، ص 24؛ المقرئ، نفتح، ج 4، ص 520.

(2) عنان، دولة، ج 4، ص 225؛ إيرفنج، ص (311-312)؛ Prescott, VI. pp. (306-307).

(3) حصن موجر أو مندوجر: يبعد عن ألمرية مرحلة، انظر: الحميري، صفة، ص 186.

(4) مجهول، نبذة، ص (25-26).

(5) ارسلان، خلاصة، ص 196.

(6) مجهول، نبذة، ص 26؛ المقرئ، نفتح، ج 4، ص 521؛ انظر أيضاً: ارسلان، خلاصة، ص 196؛ عنان، دولة، ج 4،

225؛ إيرفنج، ص (312-313)؛ حتاملة، الاندلس، ص 620. Prescott, VI. p. 308.

(7) إيرفنج، ص 314؛ Prescott, VI. p. 309.

المدافعون الأسوار، وبدأوا بنصب آلات الدفاع وتجهيز الأنفاط⁽¹⁾، وحينها قام الملك فرناندو بمراسلة المدينة من يطلب من أهلها الاستسلام، إلا أن المسلمين المصممين على القتال رفضوا طلبه⁽²⁾، فرد الإسبان على ذلك بتشديد الحصار، فأحاطوا المدينة بسورٍ من الخشب، وحفروا حولها الخنادق. واستمر الحصار أربعة أشهر، فقل الطعام ولم يعد يكفي سوى عدة أيام، ما جعل قائد المدينة وأعيانها يجنحون للسلم، وأرسلوا للملك فرناندو من يعلمه بذلك، فدخلها الأخير في 10 محرم 895هـ/3 كانون الأول 1489م⁽³⁾.

وأما المقاتلون والفرسان فخرجوا من المدينة بأسلحتهم وخيلهم وأمتعتهم إلى وادي آش⁽⁴⁾، ومنح الملك فرناندو الأهالي الأمان على أنفسهم وأموالهم، وخيروا ما بين الرحيل عن المدينة أو البقاء فيها، واشترط على من رغبوا بالبقاء الإقامة في ربض من أرباض المدينة، خصه الإسبان لهم⁽⁵⁾. وقبل رحيله عنها قاصداً مدينة المرية؛ قام الملك فرناندو بتعيين قائد للمدينة، بعد أن شحنها بكل ما تحتاجه من آلات الحرب والمواد التموينية⁽⁶⁾.

وعلى الرغم مما أداه القائد يحيى النيار من براعة في تنظيم الدفاع عن مدينة بسطة؛ فإنه ختم حياته بأسوأ ما يمكن أن يفعل قائد مثله، حيث تعمّد سراً واعتنق المسيحية، وأعطى عهداً أن يبقى الأمر طي الكتمان، وضمن الإسبان له ولعائلته حياة كريمة، والحق بالاحتفاظ باملاكه التي ورثها عن والده، كما سمح له باصطحاب عشرين فارساً مسلحاً يتنقلون معه، وخمسمائة وخمسين ألف مرابطية (مرافيدي) مقابل العمل على اقناع الأمير أبي عبد الله الزغل بالتنازل عما بقي بحوزته من مناطق⁽⁷⁾.

حرب الاستنزاف الإسبانية، وسقوط مدينة غرناطة (895-897هـ/1489م-1492م)

(1) مجهول، نبذة، ص (25-26).

(2) ارسلان، خلاصة، ص 196؛ Prescott, VI. p. 313.

(3) مجهول، نبذة، ص 26؛ انظر أيضاً: Prescott, VI. pp. 313. 317.

(4) مجهول، نبذة، ص 27.

(5) المقرئ، نفتح، ج 4، ص 521.

(6) مجهول، نبذة، ص 27.

(7) عنان، دولة، ج 4، ص 225؛ Prescott, VI. p. 317 Conde, pp. (660. 667).

بعد أن تراجعت قوة الأمير أبي عبد الله الزغل؛ لم يبقَ بحوزته سوى مدينتين هما: المرية ووادي آش، الواقعتين على ساحل المتوسط، جنوب غرب المملكة وجنوبيها على التوالي، فتوجه صهره وابن عمه يحيى النيار صوبه من أجل إقناعه بتسليم آخر مناطق نفوذه، مستغلاً ما وصل إليه المسلمون من حالة سيئة، وعدم قدرتهم على الوقوف في وجه الإسبان، وأن الحرب لن تجلب سوى الدمار، وأن التسليم هو الأفضل كون الإسبان سيتمكنون في نهاية المطاف من إخضاع البلاد بالقوة، فقبل الأمير المغلوب على أمره، وفوض النيار بالتفاوض مع الإسبان بالنيابة عنه⁽¹⁾. وتمخضت المفاوضات عن موافقة الطرف الإسلامي على التسليم، مقابل حصول الزغل على طائفة من الإمتيازات والأموال⁽²⁾، وسُمح له بالاستقرار في أندرش من أعمال المرية، برفقة ألف من أتباعه، وأن يحصل على راتب سنوي، ونصف دخل ملاحات بلدة الملاح⁽³⁾، وهكذا تمكن الإسبان من دخول المدينتين، آخر معاقل الزغل، بكل سهولة ويسر في صفر 895هـ/كانون الثاني 1489م⁽⁴⁾، وعلى الرغم من تلك الامتيازات؛ فإنَّ الزغل ما لبث أن قرّر الرحيل عن بلاد الأندلس⁽⁵⁾، فباع أملاكه وجاز البحر إلى وهران، ومنها إلى تلمسان بصحبة عدد من أتباعه⁽⁶⁾.

وبعد هذه الإنجازات التي حققها الملك فرناندو بفضل تواطؤ الزغل؛ أرسل الملك الأسباني رسالة لأبي عبد الله الصغير، يطلب منه تنفيذ شروط اتفاقية لوشة، فبرر الصغير موقفه الراض، بخوفه من انقلاب الغرناطيين ضده، ما سيعرض حياته ومملكه للخطر⁽⁷⁾. وحينها قرّر الملك تركيز جهوده في الضغط على مدينة غرناطة لدفعها للاستسلام، وتقع المدينة في بقعة

(1) ارسلان، خلاصة، ص213؛ ايرفنج، ص(351-352)؛ Prescott, VI. p. 319 Charles, III, p. 31.

(2) الناصري، ج4، ص102؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص228؛ فرحات، ص52؛ Conde, p. 660.

(3) عنان، دولة، ج4، ص227. الملاح: قرية من قرى غرناطة تقع إلى الجنوب الغربي منها، انظر: حتاملة، موسوعة، ج2، ص1054.

(4) المقرّي، نفح، ج4، ص542؛ الناصري، ج4، ص102؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص228؛ فرحات، ص52؛ Conde, p. 661.

(5) المقرّي، نفح، ج4، ص542؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص228؛ Conde, p. 661.

(6) مجهول، نبذة، ص35؛ المقرّي، نفح، ج4، ص542؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص228؛ Conde, p. 661.

(7) حومد، ص143؛ ايرفنج، ص355؛ Charles, III, p. 32. Conde, p. 660.

جغرافية متميزة؛ فمن الشرق يحيط بها جبل شلير⁽¹⁾، فضلاً عن قوة تحصيناتها ومنعة أسوارها وأبراجها، وفي بادئ الأمر عرض الملك على الصغير تسليم قصور الحمراء وما حولها، وأن يترك له بقية البلاد مقابل أن يدخل في طاعته كسائر بلاد الأندلس⁽²⁾، أو إقطاعه أية مدينة أخرى يختارها بنفسه للإقامة بها⁽³⁾، كما أرسل رسالة أخرى إلى قادة المدينة وأعيانها وسكانها، عارضاً عليهم الصلح والتسليم مقابل امتيازات خاصة⁽⁴⁾، وكان أهلها وأعيانها حينذاك يعولون على حاميتها القوية التي ضمت عدداً كبيراً من الفرسان، وعلى رأسهم موسى بن أبي الغسان (ت. 896هـ/1491م)⁽⁵⁾، الذي أسندت له مهمة قيادتهم، والدفاع عن أبواب المدينة وأسوارها وأبراجها، والخروج لملاقاة العدو ومبارزته، ومن بين هؤلاء أيضاً؛ فرسان آل الثغري وغيرهم ممن كان لهم الباع الطويل في محاربة الإسبان ومقارعة جيوشهم⁽⁶⁾.

وبناء على ما ذكر؛ لم يكن مستهجناً أن تكون الإجابة على طلب فرناندو برفض التسليم، فكان ذلك كافياً لقيامه باستئناف الحرب، فأعدَّ لها بعناية، وتم تزويد المقاتلة بكافة أنواع الأسلحة المستخدمة في ذلك العهد، بهدف تضيق الخناق على مدينة غرناطة⁽⁷⁾، ففي الأول من رجب 895هـ/20 أيار 1490م تمكن الإسبان من السيطرة على برج ملاحه، وبرج قرية همدان، القريبين من المدينة، وعملوا على شحنهما بالرجال والطعام وآلات الحرب، وأقدموا على هدم برج عويو القريب، ومن ثم تمكنوا من النزول في مرج غرناطة، وأخذوا في قطع الطرق وإفساد الزرع وتخريب القرى والضياع، حتى وصل الخراب إلى أسوار العاصمة، ثم أدرك

(1) جبل شلير: جبل الثلج المشهور بالأندلس، يكسوه الثلج شتاءً ومنه يرى أكثر بلاد الأندلس، ويرى من بلاد المغرب، انظر: الحميري، صفة، ص 112.

(2) مجهول، نبذة، ص (29-30)؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج 4، ص 229.

(3) عنان، دولة، ج 4، ص 230.

(4) حومد، ص 143.

(5) موسى بن أبي الغسان: أحد أبناء الأسر الغرناطية العريقة، فارس عربي عرف عنه حماسه لقتال المسيحيين، تولى طوال فترة حصار غرناطة قيادة السرايا التي كانت تخرج إلى أراضي العدو وتعود مظفرة، وكان من أبرز الوجوه الراضية لتسليم الحمراء، وبذل جهوداً كبيرة في حث الشعب على القتال، وعندما فقد الأمل خرج إلى نهر شنيل واشتبك مع سرية من فرسان الإسبان وقتلهم حتى قتل، انظر: عنان، دولة، ج 4، ص (238-241)، ص 257.

(6) عنان، دولة، ج 4، ص 239؛ إيرفنج، ص (356)، (379-381)؛ Prescott, VI. p. 329.

(7) عنان، دولة، ج 4، ص 236؛ Prescott, VI. p. 327.

الملك فرناندو أنه لا طاقة له بالاستمرار في القتال أو أخذ غرناطة بسبب بسالة الفرسان والرجال، فقرر مغادرتها إلى مكان آخر لوضع الخطط الكفيلة بإنجاح مهمته⁽¹⁾.

وفي منتصف رجب 895هـ/حزيران 1490م استغل المسلمون ابتعاد الجيش الإسباني عن غرناطة، فخرجوا بقيادة أبي عبد الله الصغير إلى قرية البذول، وقاتلوا من كان فيها وتمكنوا من دخولها عنوة⁽²⁾، وسار الصغير منها بجماعة من فرسانه قاصداً بلدة لانجرون⁽³⁾، ومن ثم قصد حصن أندراش ودخلت بذلك الجهات كافة في طاعته، وعاد بجيشه إلى غرناطة. وفي رمضان/تموز من العام المذكور خرج إلى قرية همدان بالعدة وآلات الحرب، وكانت هذه القرية مسورة وذات برج منيع، ومشحونة بالفرسان الإسبان المزودين بالسلاح وبكميات كافية من المواد التموينية، وتمكن المسلمون بعد معارك طاحنة من إحداث ثقب كبير في البرج، فخشيت حاميته من انهدامه على رؤوسهم، فسلموه للمسلمين بكل ما فيه من عدة وطعام، ومائة وثمانين شخصاً سيقوا أسرى إلى غرناطة⁽⁴⁾.

وفي أحد أيام الجمعة من الشهر نفسه؛ خرج السلطان الصغير على رأس جيشه قاصداً مدينة المنكب، وفي الطريق قام بهدم برج قرية البذول، ثم سار صوب الساحل وفرض حصاراً على حصن شلوبانية⁽⁵⁾؛ طمعاً في السيطرة عليه، إلا أنه اضطر لرفع الحصار والارتداد نحو غرناطة بعدما قدمت الأخبار بمنازلة الجيوش الإسبانية مرج المدينة، وأسهمت جهود الصغير وجيشه في منع الإسبان من إفساد مزارع المرج⁽⁶⁾. ثم توجه المسلمون صوب حصن

(1) مجهول، نبذة، ص(28-30)؛ المقرئ، نفح، ج4، ص532؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص331.

(2) مجهول، نبذة، ص30.

(3) لانجرون: من قرى البشيرات القريبة من غرناطة، انظر: مجهول، نبذة، ص31.

(4) مجهول، نبذة، ص33؛ المقرئ، نفح، ج4، ص523.

(5) شلوبانية: من قرى الأندلس تقع على ضفة البحر المتوسط، بينها وبين المنكب عشرة أميال، وتقابل من جهة العدو

المغربية مرسى مليلة، انظر: الحميري، صفة، ص111.

(6) مجهول، نبذة، ص34؛ المقرئ، نفح، ج4، ص524.

مرشانة⁽¹⁾، وضربوا حوله حصاراً، وقاتلوا من كان فيه حتى أجبروهم على الاستسلام وأخذوهم أسرى، وبذلك يكون الأندلسيون قد استعادوا العديد من الجهات⁽²⁾.

وأدت تلك الإنجازات في هذه المرحلة إلى ارتفاع الروح المعنوية لدى الأندلسيين؛ فنار أهالي قرية فنيانة⁽³⁾ على الحامية الإسبانية المتواجدة بالقصبة، وقاتلوا أفرادها بضراوة، إلا أن الإسبان تمكنوا من إخماد هذه الثورة بعد أن قتلوا عدداً كبيراً من المسلمين، ثم سبى الإسبان أهالي القرية وأستولوا على أموالهم⁽⁴⁾. وخاف سكان قرى وادي آش أن يحل بهم ما حل بإخوانهم في قرية فنيانة؛ فأثروا الرحيل إلى مدينة غرناطة، وأرسل لهم أبو عبد الله الصغير في 13 ذي القعدة 895هـ/27 أيلول 1490م من يعينهم على نقل ممتلكاتهم، ومن ثم أمر بإخلاء القرى من السكان، غير أن أهلها ما لبثوا أن عادوا إليها ودخلوا في ذمة الإسبان⁽⁵⁾.

ونظراً لحرصهم الشديد في الدفاع عن مدينة غرناطة؛ أخرج معاقلمهم، فقد اعتمد الأندلسيون في قتالهم على أسلوب الهجمات الخاطفة، وفق نمط الكر والفر، والاشتباك المباشر لفترات محدودة، ولم يغفلوا الهجمات الليلية أيضاً، وأظهروا خلالها بسالة منقطعة النظير، وتمكنوا من إيقاع أمدح الخسائر في صفوف الإسبان، وبالمقابل فإن الحرب المتواصلة منذ سبعة شهور أدت إلى مقتل أعداد كبيرة من خيرة مقاتلي الأندلس وفرسانها، وفنيت خيولهم وأقواتهم⁽⁶⁾، ولم يبق لهم خارج الحيز الجغرافي لمدينة غرناطة سوى قرية الفخار⁽⁷⁾.

وفي هذه المرحلة؛ قرر الملك فرناندو التحرك لحصار مدينة غرناطة على رأس جيش كبير ضم العديد من قادة الجماعات الدينية المحاربة ومقاتليها، وفي مقدمتهم فرسان القديس

(1) مرشانة: حصن في مقاطعة المرية يبعد عنها ثمانية عشر ميلاً، انظر: حتاملة، موسوعة، ج2، ص1043.

(2) مجهول، نبذة، ص35؛ المقرئ، نفتح، ج4، ص525.

(3) فنيانة: قرية تقع على بعد ثلاثين كيلو متراً إلى الجنوب الشرقي من وادي آش، وتعد من أعمال المرية، انظر: حتاملة، موسوعة، ج1، ص759.

(4) مجهول، نبذة، ص(35-36).

(5) المصدر نفسه، ص(36-37)؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص235.

(6) مجهول، نبذة، ص(38-39)؛ المقرئ، نفتح، ج4، ص524؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص239.

(7) مجهول، نبذة، ص38.

يعقوب، وفي 12 جمادى الآخرة 896هـ/5 أيار 1491م اجتاح الجيش الإسباني سهول المدينة وقرائها وحقولها، وبدأوا بإفساد زروعها وأشجارها بهدف حرمانها من مصادر غذائها لتجويع أهلها⁽¹⁾. وحتى يتجنب الإسبان خطر احتراق خيامهم على يد المسلمين خلال الحصار والحرب؛ قاموا بهدم قرى المسلمين واستخدموا حجارتها في بناء معسكر لهم جنوب غرب غرناطة، أسموه شنتفي⁽²⁾ (Santa Fe)، أي "الإيمان المقدس"⁽³⁾.

وبالتزامن مع الجهود التي بذلت لبناء مدينة شنتفي؛ استمرت القوات الإسبانية في تشديد حصارها لمدينة غرناطة، التي أصاب سكانها الوهن، نتيجة قلة الطعام والتناقص المتسارع في أعداد الرجال، وازدادت الأوضاع سوءاً في شهر محرم 897هـ/تشرين الثاني 1491م، عندما غطى الثلج الجبال، مما أدى إلى صعوبة الوصول إلى جبال البشرات، التي كان الغرناطيون يستمدون منها الغذاء والمدد، فشحَّ الطعام، وعضَّ الناسَ الجوع⁽⁴⁾، وحينها أُجتمعت الأهالي وعلى رأسهم الفقهاء مع الأمير أبي عبد الله الصغير لتدارس مصيرهم، وكانوا يميلون لإبرام الصلح مع الإسبان⁽⁵⁾، باستثناء الأمير موسى الذي قرر الدفاع وأخذ يبث روح الحماسة في نفوس القادة والقادة والجنود إلا أن جهوده لم تثمر عن أية نتيجة بعد أن وصل الجميع إلى حالة من اليأس، فعزم على مغادرة غرناطة لقتال الإسبان فالتقى على نهر شنيل بمجموعة من فرسانهم واشتبك معهم وأنخن فيهم طعنا وكانت ضرباته قاتله حتى أصيب، وسقط عن جواده إلى الأرض، وأخذ يدافع عن نفسه ورغبةً منه بعدم الوقوع في الأسر ألقى بنفسه في مياه النهر⁽⁶⁾.

وترك الأمير أبو عبد الله للفقهاء والأعيان والفرسان أمر اتخاذ القرار المناسب، فاجتمعوا ثانية واتخذوا قراراً بإرسال من يفاوض الإسبان على الاستسلام⁽⁷⁾، وبناء على ذلك

(1) مجهول، نبذة، ص 38؛ المقرئ، نفتح، ج 4، ص 524؛ الناصري، ج 4، ص 102؛ انظر أيضاً: بوحسون، ص 73؛ عنان، دولة، ج 4، ص 236؛ حومد، ص 143؛ إيرفنج، ص 359، 381؛ Prescott, VI. p. 330.

(2) مجهول، نبذة، ص 38؛ انظر أيضاً: Charles, III, p. 33؛ Elliott, p. 49؛ Prescott, VI. p. 330.

(3) عنان، دولة، ج 4، ص 236؛ حومد، ص 146؛ بوحسون، ص 73.

(4) مجهول، نبذة، ص 40؛ المقرئ، نفتح، ج 4، ص 525؛ الناصري، ج 4، ص 103.

(5) مجهول، نبذة، ص 40.

(6) عنان، دولة، ج 4، ص (238-240)، (255-625). انظر أيضاً: Conde, p. 665.

(7) عنان، دولة، ج 4، ص 41؛ Conde, p. 664.

توجه الوزير أبو القاسم عبد الملك بن بنيغيش⁽¹⁾ في ذي الحجة 896هـ/كانون الأول 1491م إلى المعسكر الإسباني، حيث الملك فرناندو⁽²⁾، ودارت المفاوضات بين الطرفين تحت إشرافه، ومثل الجانب الإسباني سكرتير البلاط الملكي فرناندو دي ثافرا (Fernando de Zafra) (864-913هـ /1460-1507م)⁽³⁾، وتمخضت المفاوضات عن وقف القتال بين الطرفين تمهيداً لإتمام شروط تسليم المدينة، وتعبيراً منه عن حسن النوايا تجاه الإسبان؛ أرسل أبو عبد الله الصغير للملكين فرناندو وإيزابيل خمسمائة رهينة من أعيان المدينة⁽⁴⁾، وهدية قيمة اشتملت على سيف ملكي وجواوين عربيين⁽⁵⁾.

وفي 23 محرم 897هـ/25 كانون الأول 1491م وقّع الطرفان معاهدة تسليم غرناطة⁽⁶⁾، واشتملت على ثلاثة وعشرين بنداً، أهمها إخلاء مدينة غرناطة مقابل تأمين الناس على أنفسهم وممتلكاتهم وضمان حرية الاستمرار في ممارسة الشعائر الدينية الإسلامية، وعدم المساس بالمساجد ودور العبادة والممتلكات الوقفية⁽⁷⁾، وألحق بهذه المعاهدة تعهدات إسبانية ضمنت لأبي عبد الله الصغير وأفراد أسرته الحصول على أموال وضياع في قرى برجة ودلاية⁽⁸⁾ ومرشانة، ومُنح الحق في ممتلكات والده في غرناطة والبشرات⁽⁹⁾، وعندما سمع

(1) أبو القاسم بنيغيش: يعود أصله إلى أسرة بنيغش القشتالية التي شغلت حيزاً كبيراً في التاريخ القشتالي، وقد عاد بعض أفرادها بعد سقوط غرناطة إلى النصرانية، انظر: عنان، دولة، ج4، ص192.

(2) عنان، دولة، ج4، ص241؛ حومد، ص146؛ Conde, p. 663.

(3) يحيوي، ص(37-38)؛ ايرفنج، ص397؛ Conde, p. 664 Prescott, VI. p. 331.

(4) مجهول، نبذة، ص41؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص257؛ Conde, p. 664.

(5) عنان، دولة، ج4، ص257.

(6) المقرئ، نفتح، ج4، ص525، أزهار، ج1، ص66؛ الناصري، ج4، ص103؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج4، ص250؛ بشري، ص216؛ حتاملة، التصير، ص662؛ حومد، ص146؛ Bishko, III, p. 30؛ Elliott, p. 49. Conde, p. 664. Prescott, VI. p. 332.

(7) المقرئ، نفتح، ج4، ص526؛ الناصري، ج4، ص(104-105)؛ انظر أيضاً: حومد، ص(150-153)؛ حتاملة، ص25؛ Elliott, p. 49. Conde, p. 664؛ Bishko, III, p. 32. Prescott, VI. p. 332.

(8) دلاية: من قرى ولاية المريية وبينهما مرحلة كبيرة، تقع على بعد تسعة كيلو مترات إلى الجنوب الشرقي من برجة، وهي من أقاليم بشرة بني حسان أحد أقاليم غرناطة، انظر: حتاملة، موسوعة، ج1، ص441.

(9) عنان، دولة، ج4، ص251.

سمع أهالي البشترات بذلك؛ سارعوا إلى الدخول في طاعة الإسبان، وكذلك فعل أهالي باقي المناطق⁽¹⁾.

ولم يرغب الملك فرناندو بدخول مدينة غرناطة قبل أن يستتب بها الأمن، وحتى يضمن سلامته⁽²⁾، فأرسل إليها سرية من الفرسان وثلاثة آلاف جندي يتقدمهم رئيس منظمة القديس يعقوب، واتخذوا الإجراءات المناسبة التي ستسبق عملية التسليم ودخول الملكين⁽³⁾. وفي تلك الأثناء جرت عملية تسليم القصور والأبراج، ثم نصب على برج قمارش صليب فضي كبير، ورفُع إلى جانبه علم قشتالة والقديس يعقوب، وأعلن منادٍ من فوق البرج أن غرناطة قد أصبحت ملكاً للملكيين فرناندو وإيزابيلا، وأخذت فرقة الرهبان الملكية بإقامة صلوات الشكر وأداء الأناشيد الإنجيلية⁽⁴⁾. وما أن استلم الملكان مفاتيح غرناطة من أبي عبدالله الصغير يوم 2 ربيع الأول 897هـ/2 كانون الثاني 1492م؛ حتى دخلها من باب الشريعة⁽⁵⁾، وأخذوا يتجولان في قصورها، وأمرًا بإصلاح الأضرار التي لحقت بقصور الحمراء والقلاع⁽⁶⁾، وأما الزيارة الرسمية للملكين فكانت في 6 ربيع الأول 897هـ/6 يناير 1492م، حيث دخلوا المدينة من باب البيرة في موكب كبير من الأمراء والأشراف وكبار الشخصيات، فساروا إلى الحمراء وجلسوا في بهو برج قمارش⁽⁷⁾. وأما الأمير أبو عبدالله فرحل قاصداً منطقة البشترات، وأقام فترة من

(1) مجهول، نبذة، ص 41.

(2) مجهول، نبذة، ص 41؛ انظر أيضاً: عنان، دولة، ج 4، ص 257.

(3) عنان، دولة، ج 4، ص 257.

(4) المرجع نفسه، ج 4، ص (259-260)؛ 265؛ Conde, p. 648؛ Bishko, III, p. 30.

(5) باب الشريعة: أحد الأبواب الرئيسية لقصر الحمراء، أسسه السلطان أبو الحجاج يوسف الأول، وسمي بهذا الاسم نسبة إلى المصلى الذي كانت تقام فيه صلاة العيدين والابتهالات الدينية وقت الشدة والقحط، انظر: سالم، في تاريخ، ص 204.

(6) مجهول، نبذة، ص 41؛ الناصري، ج 4، ص (104-105)؛ Prescott, VI. P. 333.

(7) عنان، دولة، ج 4، ص 262.

الزمن في بلدة أندرش⁽¹⁾، ثم غادرها إلى بلاد المغرب، فنزل في مدينة مليلة⁽²⁾، ثم رحل إلى مدينة فاس⁽³⁾. فشكل كل ذلك إيذاناً بانتهاء الوجود العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية.

(1) المرجع نفسه، ج4، ص(262-265)؛ Conde, p. 666

(2) مليلة: مدينة قديمة مسورة، شمال بلاد المغرب الأقصى على البحر المتوسط، قريبة من نهر ملوية، وبدخلها قسبة منيعة، انظر: الحميري، الروض، ص545.

(3) مجهول، نبذة، ص43؛ Conde, p. 667

الخاتمة

تبلورت فكرة الحروب الصليبية بالتزامن مع فكرة الحج المسيحي إلى بيت المقدس، وتطور شكلها حتى غدا عسكرياً، وأخذ الصليبيون من الدين ستاراً برعاية المؤسسة البابوية، ومع أن المحرك الرئيسي هو الدوافع والأطماع السياسية والاقتصادية.

على الرغم من فشل المشروع الصليبي في إفريقيا والذي انتهى بطرد الصليبيين من آخر معاقلهم، وبخاصة من مدينة المهديّة في العام 555هـ/1160م إلا أن ذلك لم يمهّد الحلم الصليبي، حيث عادت القوى الصليبية منذ مطلع القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي فرادى أحياناً ومجتمعاً أحياناً أخرى، لممارسة أطماعها التوسعية من جديد، مستغلة حالة الضعف التي سادت دويلات بلاد المغرب، فهاجم الجنوبيون مدينة طرابلس عام 755هـ/1453م وانتهت حملتهم بالانسحاب بعد إقامتهم في المدينة مدة أربعة أو خمسة أشهر، ثم حملة جنوة المشتركة من بيزا وصفقيا على جزيرة جربة عام 790هـ/1388م.

شهدت الجزيرة الأيبيرية بعد العام 631هـ/1234م قيام ثلاث ممالك مسيحية وهي: مملكتي قشتالة وأراغون الإسبانيتين، ومملكة البرتغال، وعانت مملكة قشتالة أكبر الممالك مساحة منذ أوائل القرن الرابع عشر الميلادي من أوضاع داخلية مضطربة، فشهدت حروباً داخلية وفساداً داخل البلاط والقضاء القشتالي، وتراجعاً في الموارد الاقتصادية، وترافق ذلك مع اضطرارها لمواجهة الأطماع البرتغالية في أراضيها، وأما أراغون التي تألفت من ثلاثة أقاليم وهي: أرغونة وقطالونيا وبلنسية فتمتع فيها النبلاء بسلطة كبيرة.

حظيت البرتغال بحدود ثابتة وكيان مستقل منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، وشهدت في عهد الملك جون الأول (787-836هـ/1385-1433م) عهداً جديداً تمثل في التوسعات الخارجية والاكتشافات الجغرافية، حيث سعت البرتغال للسيطرة على السواحل الأفريقية والمنافذ البحرية والطرق التجارية، وجاءت الإشارات الأولى في العام 741هـ/1341م بدعوة من البابا بندكت الثاني عشر (734-743هـ/1334-1342م)، ووجهت

الحملة البرتغالية الأولى ضد مدينة سبتة في العام 818هـ/1415م والتي انتهت بالسيطرة على المدينة، وفي الوقت الذي أدى هذا الحدث الكبير إلى شيوع حالة من السخط والغضب في أرجاء بلاد المغرب، فقد أعطى دافعاً للبرتغاليين للسيطرة على مزيد من الثغور والمدن المغربية للاستفادة منها كقواعد بحرية، وتمكنوا خلال الفترة الممتدة من 862-891هـ/1458-1486م من السيطرة على عددٍ من المدن: القصر الصغير وطنجة وأنفا وأسفي وأزمور على التوالي.

عرفت المملكتان الإسبانيتان خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي سيطرة الأشراف على مقاليد الحكم وانتشار الثورات والاضطرابات وإعادة أحياء التنظيمات الدينية المسلحة كمنظمة القديس يعقوب، ودخلت مملكة قشتالة في عهد الملك هنري الرابع (858-879هـ/1454-1474م) أزمة ولاية العهد، فاندلعت في العام 868هـ/1464م حرب أهلية انتهت بوفاة الملك هنري في العام 873هـ/1469م واعتلاء أخته الأميرة إيزبيلا العرش، وقد تزوجت هذه الأميرة من الأمير فرناندو ولي عرش أراغون. ولكن الحدث الأهم كان في العام 884هـ/1479م باعتلاء فرناندو عرش أراغون، وبالتالي تحقيق الوحدة بين التاجين مشكلين بداية حقيقية لتاريخ إسبانيا الحديثة، واستغلالاً لطاقتهم المشتركة من أجل إجراء القضاء على الوجود الإسلامي، والتفرغ للتوسع خارج الجزيرة الأيبيرية.

عانت بلاد المغربين الأدنى والأوسط من الهجمات الإسبانية سعياً وراء إقامة جيوب لها على السواحل المغربية وملاحقة المهاجرين الأندلسيين، واحتكار التجارة البحرية، إلا أنهم لم يستقروا في أية منطقة قبل العام 903هـ/1497م واعتمدوا في هجماتهم على أسلوب النهب والتخريب ثم الرحيل، فهاجموا خلال الفترة الممتدة من (800-867هـ/1398-1462م) كلاً من تدلس الساحلية، ومرسى القل، ودلس، وتطوان، وقرقنة، فضلاً عن حملاتهم المتكررة على مدينة عنابة وغيرها من المدن المغربية.

عاشت مملكة غرناطة خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ظروفًا داخليةً مضطربة ونزاعات بين أفراد الأسرة الحاكمة حول السلطة، ودأب الحكام والأمراء

الأندلسيون خلال تلك الفترة على الاستتجاد بالملوك الاسبان لتثبيت سلطتهم أو من أجل الصعود إلى الحكم، مما سهل على المسيحيين الاسبان الاستمرار في سياسة الاسترداد بشكل أكثر قوة.

شكل فتح العثمانيين لمدينة القسطنطينية عام 857هـ/1453م صفة قوية للمؤسسة البابوية التي أخذت تدعو لتسخير كافة الإمكانيات لشن الحملات ضد مسلمي الأندلس، ولذا أصدرت عدداً من القرارات وحاولت إنشاء حلف صليبي، فدخلت الجزيرة الأيبيرية مرحلة من الصراع الدامي بين الأندلسيين والإسبان لمدة عشر سنوات (887هـ—896هـ /1482-1491م)، تمكنت خلالها الجيوش المسيحية من السيطرة على المدن الأندلسية واحدة تلو الأخرى، عبر فرض الحصار والتضييق على السكان حتى إجبارهم على الاستسلام، بينما اتبعوا مع الحصون الأندلسية أسلوب المفاجأة والسيطرة والنهب، وتغير الوضع بشكل كبير بدخول البارود عام 889هـ/1484م على خط الصراع حيث استخدمه الإسبان في تدمير الحصون والأسوار.

بعد تنازل أبي عبدالله الزغل عام 895هـ/1489م عن مدينتي ألمرية ووادي آش لم يبق سوى العاصمة غرناطة، التي شرع الإسبان بفرض حصار حولها في 12 جمادى الآخرة 896هـ/5 أيار 1491م، وحرصوا خلاله على إفساد زرعها وأشجارها، واستمر الأمر حتى ذي الحجة/كانون الأول من نفس العام، فدافع الغرناطيون عن آخر مدنهم حتى انتشر الجوع بينهم، واضطروا للدخول في مفاوضات انتهت بتسليم المدينة في 2 ربيع الأول 897هـ/2 كانون الثاني 1492م.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

ابن الأحمر، أبو الوليد، إسماعيل (ت. 800هـ/1407م): تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تحقيق: هاني سلامة، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، 2001م.

الإدريسي، أبو عبدالله، محمد بن عبدالله بن إدريس (ت. 560هـ/1166م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، جزءان، (د. ط)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002م.

ابن إياس، محمد بن أحمد (ت. 929هـ/1523م): بدائع الزهور في وقائع الزهور، 5 مجلدات، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1984م.

البغدادي، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم (ت. 1339هـ/1921م): هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، 6 أجزاء، مكتبة المثنى، بغداد، 1941م.

الترجمان، أبو محمد، عبد الله بن عبد الله (ت. 832هـ/1420م): تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، تحقيق وترجمة: محمود علي حماية، ط3، دار المعارف، (ب ت).

ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بن عبد الله الظاهري (ت. 874هـ/1470م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 16 جزء، تحقيق: فهمي شلتوت، (ب ط)، وزارة الثقافة والارشاد القومي، مصر، 1963م.

التبكتي، أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه (ت. 1036هـ/1627م): نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم: عبد الحميد الهرامة، ط2، دار الكتاب، طرابلس، 2002م.

التنسي، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن عبد الجليل (ت. 899هـ/1494م): تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقطف من نظم الدر والعقبان في بيان شرف بني زيان، تحقيق: محمود آغا بو عيد، (ب ط)، صدر بدعم من تلمسان عاصمة الثقافة، الجزائر، 2011م.

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد(ت. 852هـ/1448م): الدرر الكامنة في أعيان
المائة الثامنة، 5 أجزاء، تحقيق: محمد جاد الحق، (ب ط)، دار الكتب، القاهرة، (ب ت).

أنباء الغمر بأبناء العمر، 4 أجزاء، تحقيق: حسن حبشي، ط16، الجمهورية العربية المتحدة،
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 1969م.

الحموي، شهاب الدين، أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله(ت. 622هـ/1225م): معجم البلدان،
5 أجزاء، دار صادر، بيروت، 1993م.

الحميري، أبو عبد الله، محمد عبد المنعم(ت900هـ/1495م): الروض المعطار في خبر
الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م.

صفة جزيرة الأندلس منتخبه من كتاب الروض المعطار في خير الأقطار، ط2، دار
الجبيل، بيروت، 1988م.

ابن الخطيب، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن سعيد(ت. 776هـ/1374م): الإحاطة في أخبار
غرناطة، 3 أجزاء، تحقيق: يوسف الطويل: ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.

اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق: محب الدين الخطيب، (ب ط)، المطبعة
السلفية، القاهرة، 1929م.

رقم الحلل في نظم الدول، (ب. ط)، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، (ب. ت).

نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، نشر وتعليق: أحمد مختار العبادي: (ب ط)، دار
النشر المغربية، الدار البيضاء، (ب ت).

أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من كلام،
جزءان، تحقيق: سيد كسروي حسن، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.

كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق: كمال شبانة، (ب ط)، دار الكتاب العربي
للنشر والتوزيع، (ب ط)، القاهرة، (ب ت).

ابن خلدون، أبو زيد، عبد الرحمن بن محمد(ت. 808هـ/1406م): **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر**، 7 أجزاء، تحقيق ومراجعة: سهيل زكار و خليل شحادة، (ب ط)، دار الفكر، بيروت، 2000م.

ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم القيرواني(ت. 1110هـ/1698م): **المؤنس في أخبار افريقية وتونس**، ط1، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1986م.

الزركشي، أبو عبد الله، محمد (كان حيا عام 894هـ/1488م): **تاريخ الدولتين الموحديّة والحفصية**، تحقيق: محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.

الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت. 549هـ/1154م)، كتاب الجغرافية ، تحقيق محمد حاج صادق، (ب ط)، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، (ب ت).

السبتي، محمد بن القاسم الأنصاري(ب.ت)، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبته من سني الآثار، تحقيق: عبد الوهاب منصور، ط2، (ب ن)، الرباط، 1983م.

السخاوي، شمس الدين، محمد بن عبد الرحمن(ت. 902هـ/1497م): **وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام**، 4 أجزاء، تحقيق: بشار عواد معروف، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1995م.

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، 10 أجزاء، (ب ط)، دار الجبل، بيروت، 1992م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن(ت. 911هـ/1505م): **بُغْيَةُ الوُعَاةِ فِي طَبَقَاتِ اللُّغَوِيِّينَ والنحاة**، جزءان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مطبعة عيسى الحلبي، (ب.م)، 1964م.

ابن شاهين الظاهري، عبد الباسط بن أبي الصفاء(ت. 920هـ/1514م): **نيل الأمل في نيل الدول**، تحقيق: عمر بن عبد السلام تدمري، ط1، المكتبة المصرية، بيروت، 2002م.

ابن الشماع، أبو عبد الله، محمد بن أحمد (ت. 861هـ/1457م): الأدلة البيئية النورانية في
مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق: الطاهر بن محمد المعموري، (ب ط)، الدار العربية
للكتاب، (ب م)، 1984م.

الشوكانى، محمد بن علي (ت. 648هـ/1250م): البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع،
جزءان، دار المعرفة، بيروت، (ب ت).

الصيرفي، علي بن داود بن ابراهيم الخطيب الجوهري (ت. 900هـ/1495م): نزهة النفوس
والأبدان في تواريخ الزمان، 9 أجزاء، تحقيق: حسن حبشي، (ب ط)، دار الكتاب،
مصر، 1962م.

ابن عاصم الغرناطي، محمد بن محمد (ت. 857هـ/1454م): جنة الرضا في التسليم لما قدر
الله وقضى، 3 أجزاء، تحقيق: صلاح جرار، (ب ط)، دار البشير، عمان، 1998م.

ابن عذاري، أبي العباس، أحمد بن محمد (ت. 712هـ/1312م): البيان المغرب في أخبار
ملوك الأندلس والمغرب، 3 مجلدات، تحقيق: بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد،
ط1، دار الغرب، تونس، 2013م.

ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح، عبد الحي بن أحمد (ت. 1089هـ/1678م): شذرات الذهب في
أخبار من ذهب، 8 أجزاء، ط2، الدار المسيرة، لبنان، 1979م.

ابن الغزي، أبو عبد الله، محمد شمس الدين أبي المعالي محمد بن عبد الرحمن (ت.
871هـ/1467م): ديوان الإسلام، 4 أجزاء، تحقيق: سيد كسروي حسن، ط1، دار
الكتب، بيروت، 1990م.

ابو الفداء، عماد الدين، اسماعيل بن محمد بن عمر (ت. 732هـ/1332م): تقويم البلدان، (د
ط)، دار صادر، بيروت، 1850م.

القلقشندي، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن علي بن أحمد (ت. 821هـ/1418م): **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، 14 جزء، (ب ط)، دار الكتب السلطانية، (ب م)، 1922م.

ابن القنفذ، أبو العباس، أحمد بن حسين (ت. 1407/810م): **الفرسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تحقيق: محمد الشاذلي التيفر وعبد الحميد التركي، (ب ط)، الدار التونسية، تونس، 1986م.

كربخال، مارمول (ت. 1009هـ/1600م): **إفريقيا**، 3 أجزاء، ترجمة: محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف، الرباط، 1984م.

مجهول: **نبذة العصر في أخبار ملوك بني النصر**، ضبط وتعليق: فريد البستاني، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، 2002م.

المحبي، محمد أمين بن فضل الله (ت. 1111هـ/1699م): **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، 4 مجلدات، تحقيق: آدم الرومي وآخرون، (ب ط)، المطبعة الوهيبية، (ب م)، 1867م.

المراكشي، محيي الدين، عبد الواحد بن علي التميمي (ت. 647هـ/1250م): **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**، ضبط وتصحيح: محمد سعيد العريان ومحمد العلمي، ط1، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1949م.

المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت. 390هـ/1000م): **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط3، مكتبة مدبولي، مصر، 1991م.

مقديش، محمود بن سعيد (ت. 1228هـ/1831م): **نزهة الانظار في عجائب التواريخ والأخبار**، جزءان، تحقيق: علي الرواري ومحمد محفوظ، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م.

المقرّي، أبو العباس، أحمد بن محمد التلمساني(ت. 1041هـ/1632م): **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، 8 أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م.

أزهار الرياض في أخبار عياض، 5 أجزاء، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري وآخرون، (ب ط)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1933م.

رحلة إلى المغرب والمشرق، تحقيق: محمد بن معمر، (ب ط)، منشورات مخبر لمخطوطات الحضارة الإسلامية، (ب م)، 2004م.

المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر(ت. 845هـ/1446م): **السلوك في معرفة دول الملوك**، 4 أجزاء، (ب ط)، وزارة الثقافة، القاهرة، 1972م.

الناصري، أبو العباس، أحمد بن خالد(ت. 1315هـ/1897م): **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، 9 أجزاء، تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، (ب ط)، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997م.

النعمي، عبد القادر الدمشقي(ت. 927هـ/1521م): **الدّارس في تاريخ المدارس**، إعداد وتقديم: عمّار محمد النهار، الهيئة العامة السورية، دمشق، 2014م.

النويري، شهاب الدين، أحمد بن عبد الوهاب(ت. 733هـ/1333م): **نهاية الإرب في فنون الأدب**، 33 جزء، تحقيق: عبد المجيد ترحيني، ومحمد علي بيضون وآخرون، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م.

الوزان، الحسن بن محمد المعروف بليون الافريقي(ت. 961هـ/1554م): **وصف افريقيا**، جزءان، ترجمة: محمد حجي، ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م.

ثانياً المراجع

ارسلان، شكيب: **الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية**، 3 أجزاء، (ب ط)، المكتبة التجارية، فاس، 1936م.

خلاصة تاريخ الأندلس، ط1، الدار التقدمية، بيروت، 2009م.

أرنست، باركر، **الحروب الصليبية**، (ب ط)، دار النهضة، بيروت، 1967م.

أشباح، يوسف، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، جزءان، ترجمة وتعليق: محمد عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1969م.

ابن أشنهو، عبد العزيز بن أبي زيان، **دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر**، (ب ط)، (ب د)، الجزائر، 1972م.

اليوسف، عبد القادر أحمد، **العصور الأوروبية**، (د ط)، المكتبة العصرية، صيدا، 1967م.

ايرفنغ، واشنطن، **أخبار سقوط غرناطة**، ترجمة: هلاي نصري، ط1، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2000م.

بالنثيا، آنخل، **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة: مؤنس حسين، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1955م.

بانيكار ك م، **آسيا والسيطرة الغربية**، ترجمة: عبد العزيز جاويد، (ب ط)، دار المعارف، القاهرة، (ب ت).

برنشفيك، روبر، **تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن الثالث عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر**، جزءان، ترجمة: حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1988م.

بَسَج، أحمد حسين، لسان الدين ابن الخطيب عصره، بيئته، حياته وآثاره، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994م.

بشتاوي، عادل سعيد: الأمة الأندلسية الشهيدة تاريخ مائة عام من المواجهة والاضطهاد وسقوط غرناطة، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (ب م)، 2000م.

الأندلسيون المواركة، (ب ط)، (ب ت)، القاهرة، 2001م.

بوشرب، أحمد، دكالة والاستعمار البرتغالي الى سنة اخلاء اسفى وازمور(غشت 1481-1581م)، ط2، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1984م.

بوفلاقة، محمد سيف الإسلام، جهود علماء الأندلس في خدمة التاريخ والتراجم ابن الخطيب وكتاب الإحاطة نموذجاً، (ب ط)، دار الجنان للنشر والتوزيع، الاردن، 2004م.

التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، 10 أجزاء، (ب ط)، (ب م)، (ب ت).

الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب، الطبعة الأولى، 3 أجزاء، دار نشر المعرفة، الرباط، 2001م.

بن تاويت، محمد التطواني، تاريخ سبته، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1982م

جمعة، محمد علي، المكابيل والأوزان الشرعية، ط2، القدس للاعلان والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001م

الجمال، شوقي عطاالله: تاريخ كشف افريقيا واستعمارها، (ب ط)، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1980م.

المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ليبيا، تونس، الجزائر، ط1، مكتبة الانجلو، القاهرة، 1977م.

جوليان، شارل أندري، تاريخ أفريقيا الشمالية، جزآن، ترجمة: محمد مزالي والبشير بن سلامة، (ب ط)، الدار التونسية، 1969م.

الجيلاني، عبد الرحمن بن محمد، تاريخ الجزائر العام، مجلدان، ط2، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، 1965م.

حاطوم، نور الدين، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، جزآن، (ب ط)، مكتبة دار الفكر، دمشق، 1982م.

الحايك، سيمون، ثريا الرومية أو استسلام غرناطة، (ب ط)، المطبعة البولسية، لبنان، 1988م.

حاتمة، محمد عبده: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة دراسة شاملة، (ب ط)، مطابع الدستور التجارية، عمان، 2000م.

التنصير القسري لمسلمي الاندلس في عهد الملكين الكاثوليكين (1474-1516م)، ط1، عمان، 1980م.

موسوعة الديار الأندلسية، جزآن، ط1، عمان، 1999م.

الحجوي، محمد المهدي، حياة الوزان الفاسي آثاره، (ب ط)، الرباط، المطبعة الاقتصادية، 1935م.

الحجي، عبد الرحمن، التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة (92-879هـ/711-1492م)، ط1، دار القلم، بيروت، 1981م.

حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، 3 أجزاء، (ب ط)، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000م.

حسن، محمد عبد الغني، المقري صاحب كتاب نفح الطيب، (ب ط)، الدار القومية للنشر، (ب م)، (ب ت).

- حسون، علي، العثمانيون والبلقان، ط2، المكتبة الاسلامية، بيروت، 1986م.
- حسين، ممدوح؛ مصطفى، شاكرا، الحروب الصليبية في شمال افريقيا وأثرها الحضاري (668-792هـ/1270-1390م)، ط1، دار عمار، عمان، 1998م.
- حومد، أسعد، محنة العرب في الأندلس، ط1، المؤسسة العربية للنشر، لبنان، 1988م.
- دراج، أحمد، المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، (ب ط)، دار الفكر الاسلامي، القاهرة، 1960م.
- أبو دية، أيوب، حروب الفرنج حروب لا صليبية، ط2، دار الفارابي، بيروت، 2008م.
- رياض، زاهر، استعمار افريقيا، (ب ط)، الدار القومية لطباعة والنشر، (ب ت).
- الزركلي، خير الدين، الإعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العبر والمستعمرين والمستشرقين، 8 أجزاء، (ب ط)، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م.
- الزبيدي، مفيد، تاريخ الحروب الصليبية، ط1، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2004.
- سالم، السيد عبد العزيز، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الاسكندرية، 1998م.
- سالم، سحر السيد: بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ والحضارة الإسلامية، (ب ط)، نشر شباب الجامعة، الاسكندرية، 1997م.
- سيد، أشرف صالح محمد، قراءه في تاريخ وحضارة أوروبا العصور الوسطى، ط1، لبنان، 2008م.
- الشريف، محمد شرف الدين، سقوط سبته من خلال ذكريات شاهد عيان، (ب ط)، منشورات الجمعية المغربية، الدار البيضاء، 2010م.

الشطاط، علي حسين، نهاية الوجود العربي في الأندلس، (ب ط)، دار أنباء للطباعة والنشر، القاهرة، 2001م.

الشناوي، عبد العزيز محمد: الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، (ب ط)، 4 أجزاء، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1980م.

أوروبا في مطلع العصور الحديثة، (ب ط)، دار المعارف، القاهرة، 1969م.

أبو ضيف، مصطفى، أثر العرب في تاريخ المغرب خلال عصري الموحدين وبنو مرين (524-876هـ/1130-1472م)، (ب ط)، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1982م.

طقوش، محمد سهيل، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ط3، دار النفائس، بيروت، 2013م.

عاشور، سعيد: أوروبا العصور الوسطى، جزءان، ط10، مكتبة الانجلو، القاهرة، 1986م

الحركة الصليبية صفحة مشرفة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، جزءان، ط2، مكتبة الانجلو، القاهرة، 2010م.

العامري، محمد الهادي، تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون من الازدهار و الذبول من القرن السابع الهجري الى ختام القرن الثالث، (ب ط)، الشؤون التونسية، تونس، 1979م.

العاني، رياض أحمد عبيد، التاريخ الأندلسي مواقف وعبر، (ب ط)، دار دجلة ناشرون وموزعين، عمان، 2015.

العبادي، أحمد، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، (ب ط)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2009م.

- العروبي، عبد الله، مجمل تاريخ المغرب، ط5، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1996م.
- العقاد، صلاح، المغرب العربي دراسات في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة الجزائر، تونس، المغرب الأقصى، ط5، مكتبة الانجلو المصرية، 1985م.
- علي، مرفت عثمان حسن ، صفحات من تاريخ الحروب الصليبية وأدوات القتال في العصر الأيوبي بمصر والشام زمن الحروب الصليبية، تقديم: عبد العزيز محمود عبد الدايم، ط1، دار العالم العربي، القاهرة، 2010م.
- عمران، محمود سعيد، تاريخ الحروب الصليبية(1095-1291م)، (ب ط)، دار المعرفة، الاسكندرية، 1998م.
- عنان، محمد عبد الله: تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1970م.
- دولة الإسلام في الأندلس، أربعة أجزاء في ستة عصور، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م.
- لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، (ب ط)، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1968م.
- وثيقة أندلسية قشتالية من القرن التاسع الهجري، تحقيق: محمد عبد الله عنان، صحيفة العهد المصري للدراسات الإسلامية، مجلدين، القاهرة، 1954م.
- عوض، محمد مؤنس، الإمبراطورية البيزنطية دراسة في تاريخ الأسرة الحاكمة، ط1، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، (ب م)، 2007م.
- غلاب، عبد الكريم، قصة المواجهة بين المغرب والغرب، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (ب ت).
- فرحات، يوسف شكري، غرناطة في ظل بني الأحمر(دراسة حضارية)، ط1، دار الجبل، 1993م.

الفكيكي، حسن، الوجود البرتغالي في المغرب وآثاره تأملات في ظروف ودواعي احتلال سبتة
وسلسلة ندوات، (ب ط)، مطبوعات الاكاديمية المغربية مطبعة المعارف الجديدة، الرباط،
2006م.

فهيم، نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور
الوسطى)، (ب ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (ب م)، 1973م.

فيشر، هربرت، أصول التاريخ الأوروبي الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية،
ترجمة: زينب راشد وأحمد عبد الرحيم، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1970م.

الفيلاي، عبد العزيز، تلسمان في العهد الزياني، (ب ط)، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،
الجزائر، 2002م.

قاسم، عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية الايديولوجية الدوافع النتائج، (ب ط)، عين
للدراسات والبحوث الانسانية، القاهرة، 2006م.

القبج، عامر أحمد، السياسة الصليبية الاسبانية تجاه بلاد المغرب الاسلامي (897-
982هـ/1492-1572م)، ط1، دار دجلة، عمان، 2018م.

قلعجي، قدرى، الخليج العربي بحر الأساطير، (ب ط)، شركة المطبوعات للتوزيع، بيروت،
1992م.

الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير (ت. 1382هـ/1962م): فهرس الفهارس والإثبات ومعجم
التراجم والمشیخات والمسلسلات، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1982م.

الكتاني، محمد بن جعفر بن إدريس (ت. 1345هـ/1926م): سلوة الأنفاس ومحادثاة الأكياس
بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، 3 أجزاء، تحقيق: عبد الله الكامل الكتاني
وآخرون، (ب ط)، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، (ب ت).

كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين تراجم مصنفى الكتب العربية، مكتبة المثنى، بيروت، (ب ت).

كريم، عبد الكريم، المغرب فى عهد الدولة السعدية دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف مظاهر الحضارة، ط3، جمعية المؤرخين، الرباط، 2006م.

مجموعة من الباحثين، الباباوات أسياى على السماء والأرض، ترجمة: شاكر مطلق، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، 2015م.

المحامى، محمد فريد بيك، الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقى، ط1، دار النفائس، بيروت، 1981م.

المدنى، أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (1972/1492م)، (ب ط)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (ب ت).

مصطفى، شاكر، الأندلس فى التاريخ، (ب ط)، منشورات دار الوزارة، دمشق، 1990م.

أبو مصطفى، كمال السيد، تاريخ الأندلس الاقصادى فى عصر دولتى المرابطين والموحدين، (ب ط)، مركز الاسكندرية للكتاب، الاسكندرية، (ب ت).

المطوى، محمد العروسى، السلطنة الحفصية وتاريخها السياسى ودورها فى المغرب الاسلامى(د ط)، دار الغرب الإسلامى، بيروت، 1986م.

مكى، الطاهر أحمد، دراسة فى مصادر الأدب، ط2، دار الفكر العربى، القاهرة، 1999م.

مؤنس، حسين: أطلس تاريخ الإسلام، ط1، الزهراء للإعلام العربى، القاهرة، 1987م.

تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح الإسلامى إلى الغزو الفرنسى، جزءان، ط1، منشورات العصر الحديث، بيروت، 1992م.

رحلة الأندلس حديث الفردوس المفقود، ط1، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة،
1963م.

معالم تاريخ المغرب والأندلس، ط5، دار الارشاد، مصر، 2005م.

الميلي، مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، 3 اجزاء، تقديم: محمد ميلي، (ب
ط)، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1986م.

النشار، محمد محمود: تاريخ اسبانيا والبرتغال في العصور الوسطى، ط1، عيد للدراسات
والبحوث الانسانية، القاهرة، 2007م.

دراسات في تاريخ الحروب الصليبية في الأندلس، (ب ط)، عين للدراسات الجامعية،
2003م.

نويهض، عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، مؤسسة
نويهض الثقافية، بيروت، 1980م.

هريدي، فرغلي، تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر، ط1، العلم والايمان للنشر والتوزيع،
الاسكندرية، 2008م.

هننتس، فالتر، المكاييل والاوزان الاسلامية، ترجمة كمال العسلي، (ب ط)، منشورات الجامعة
الاردنية، عمان، 1970م.

وناس، زمان عبيد، النشاط الاقتصادي في سلطنة غرناطة (635-897هـ/1238-1492م)،
دار الرضوان، عمان، 2012م.

يحيى، جلال، تاريخ المغرب الكبير العصور الحديثة وهجوم الاستعمار، 3 أجزاء، (ب ط)، دار
النهضة العربي، بيروت، 1981م.

يحياوي، جمال، سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين (1492-1610م)، دار هممه للطباعة
والنشر، الجزائر، 2004م.

ثالثاً: الرسائل الجامعية غير المنشورة

ابنيسام، حميدي، أبو العباس أحمد المقرئ (1041هـ/1632م)، مذكرة تخرج لنيل درجة الليسانس، جامعة مولاي الطاهر، الجزائر، 2017م.

بريرج، فتحي، العلاقات السياسية والاقتصادية لدول المغرب الإسلامي مع دول جنوب غرب أوروبا في الفترة (7-10هـ/13-16م) (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2014م.

بوحسون، عبد القادر، الأندلس في عهد بني الأحمر دراسة تاريخية وثقافية (635-897هـ/1238-1492م) (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2013م.

رضوان، نبيل عبد الحي، جهود العثمانيين لانقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1987م.

الرمال، غسان علي محمد، صراع المسلمين مع البرتغاليون في البحر الأحمر خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة، 1980م.

عبد القهار، عبده بن محمد عواجي، علاقات مملكة غرناطة مع الدول الإسلامية 635-897هـ/1238-1492م) (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، 1998م.

غنيمات، قاسم محمد، صدى استغاثة الاندلسيين بالعالم الإسلامي بعد سقوط طليطلة 478هـ/1085م (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الأردنية، 1997م.

رابعاً: الأبحاث المنشورة

البشري، سعد بن عبد الله، جماعات الفرسان الدينية الإسبانية وحروبها مع المسلمين في الأندلس ، مجلة جامعة أم القرى، مكة المكرمة، العدد الرابع، 1992م.

الجمال، شوقي، البرتغاليون في شرق أفريقيا وطردهم منها، مجلة جامعة البحرين، المجلد الثامن، العدد السادس عشر، 1990م.

خضيرى، أحمد حسن، العلاقات السياسية بين غرناطة وفاس في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر للميلاد، المجلة العلمية لكلية الآداب، جامعة أسيوط، العدد الأول، 1998م.

رضوان، نبيل عبد الحى، الغزوات الاستعمارية الإسبانية والبرتغالية (1415-1511م)، مجلة المؤرخ العربي الصادرة عن اتحاد المؤرخين، القاهرة، العدد السادس، 1998م.

سالم، سحر عبد العزيز، بنو السراج وزراء بني نصر بين الحقيقة التاريخية والقصة الشعبية، مجلة العهد المصرية للدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد الثامن وعشرون ، 1996م.

شرف الدين، محمود عبد الفتاح، دولة بني الأحمر في غرناطة (626-897هـ)، مجلة كلية الآداب جامعة الأزهر، أسيوط، العدد الثاني، 1992م.

الطبيبي، إبراهيم، احتلال البرتغاليين مدينة سبتة 818هـ/ 1415م، مجلة تطوان، جامعة عبد الملك السعدي، جامعة مجلة تطوان، العدد الثالث، 1989م.

نتيفه، رولا محمد منون وآخرون، التأثيرات المحلية في طابع أبنية مدارس العصور الإسلامية في سوريا، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات، العدد الرابع، 2014م.

خامساً: الموسوعات

البستاني، بطرس، دائرة المعارف ، 11 جزء، (ب ط)، دار المعرفة، بيروت، 1980م.

جان بيرنجيه، موسوعة تاريخ أوروبا العام، 3 أجزاء، ط1، منشورات بيروت، 1909م.

حاتمة، محمد عبده، موسوعة الديار الأندلسية، جزءان، ط1، عمان، 1999م.

الخوند، مسعود، الموسوعة التاريخية الجغرافية، 14 جزء، (ب ط)، دار رواد للنهضة، بيروت، 1992م.

غريمال، بيار وآخرون، موسوعة تاريخ أوروبا العام، 3 أجزاء، ط1، منشورات، بيروت، 1995م.

الغنيمي، عبد الفتاح مقلد، موسوعة تاريخ المغرب العربي، 6 أجزاء، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1994م.

مجموعة مؤلفين، الموسوعة العربية الميسرة والموسعة، 22 مجلد، ط1، نشر الجمهورية العربية السورية، دمشق، 2007م.

مجموعة مؤلفين ، الموسوعة العربية العالمية، 30 جزء، ط2، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر، الرياض، 1999م.

هوتسما، م.ت وآخرون، موجز دائرة المعارف الإسلامية، تحقيق: ابراهيم خورشيد وآخرون، دار المعرفة، بيروت، 1998م.

المراجع الأجنبية

Bishko, Charles Julian: **A History of the Crusades**, 3 vols., University of Wisconsin Press, 1975.

Chapman, Charles E.: **A History of Spain**, Collier Macmillan Canada, 1966.

Conde, Don Jose antonio, **Historia de La domincion de Los Arabes en Espana**, Baudry, Libreia Europea, 1840.

Elliott, J. : **Imperial Spain 1469- 1716**, 1st. ed. , Penguin Group, London, 1963.

Howitt, William, **Colonization and Christianity**, Longman, London,1838.

Prescott, William, **History of the reign of Ferdinand and Isabella**, A. L. Burt, New York.

الملاحق

جدول (1)

سلاطين بلاد المغرب والأندلس (792-897هـ/1390-1492م)

أ- سلاطين مملكة غرناطة في شبه الجزيرة الأيبيرية

الرقم	السلطان	تاريخ الحكم
1	أبو الحجاج يوسف (الأول) النيار بن إسماعيل	734-755هـ/1333-1354م
2	محمد (الخامس) الغني بالله ابن يوسف	755-760هـ/1354-1359م
3	أبو الوليد إسماعيل (الثاني) بن يوسف	760-760هـ/1359-1359م
4	أبو سعيد محمود السادس بن إسماعيل	761-763هـ/1359-1361م
5	محمد الخامس الغني بالله (للمرة الثانية)	763-793هـ/1361-1391م
6	أبو الحجاج يوسف الثاني بن محمد (الخامس)	793-794هـ/1391-1392م
7	محمد (السابع) المستعين بن يوسف (الثاني)	795-810هـ/1393-1408م
8	أبو الحجاج يوسف (الثالث) الناصر ابن يوسف (الثاني)	810-820هـ/1408-1417م
9	محمد (الثامن) المتمسك بن يوسف الثالث	820-831هـ/1417-1428م
10	محمد (التاسع) الصغير بن نصر	830-832هـ/1427-1429م
11	محمد الثامن (للمرة الثانية)	832-835هـ/1429-1431م
12	أبو الحجاج يوسف (الرابع) بن محمد (السادس)	835-835هـ/1431-1431م
13	محمد الثامن (للمرة الثالثة)	839-844هـ/1436-1441م
14	محمد العاشر (الأحنف بن عثمان)	848-848هـ/1445-1445م
15	سعد المستعين بن علي	849-851هـ/1445-1447م
16	محمد العاشر (للمرة الثانية)	854-858هـ/1449-1454م
17	سعد (للمرة الثانية)	858-868هـ/1454-1464م
18	أبو الحسن علي بن سعد	868-887هـ/1464-1482م
19	أبو عبد الله سعد الزغل	888-895هـ/1483-1489م
20	أبو عبد الله محمد الصغير	887-897هـ/1482-1492م

ب_ سلاطين الدولة المرينية في بلاد المغرب الأقصى

الرقم	السلطان	تاريخ الحكم
1	أبو العباس أحمد المريني	776-795هـ/1387-1393م
2	أبو فارس عبد العزيز بن أحمد بن أبي سالم (المستنصر بالله)	795-799هـ/1393-1396م
3	أبو عامر عبد الله بن أحمد بن أبي سالم المستنصر بالله	799-810هـ/1396-1398م
4	أبي سعيد عثمان بن أحمد بن أبي سالم	800-823هـ/1398-1420م
5	عبد الحق بن عثمان بن أبي سعيد	823-869هـ/1420-1465م

ت_ سلاطين الدولة الزيانية في بلاد المغرب الأوسط

الرقم	السلطان	تاريخ الحكم
1	أبو تاشفين عبد الرحمن (الثاني) بن موسى	795-796هـ/1393-1394م
3	أبو ثابت يوسف بن عبد الرحمن	795-796هـ/1394-1395م
4	أبو الحجاج يوسف بن موسى	796-799هـ/1395-1398م
5	أبو زيان محمد (الثالث) بن موسى	الولاية الأولى 799-804هـ/1398-1401م
6	أبو عبد الله (الأول) بن موسى	804-813هـ/1402-1411م
7	أبو عبد الله محمد (الثاني) الواثق بن موسى	814-814هـ/1411-1411م
8	عبد الرحمن (الثالث) بن محمد الثاني	814-814هـ/1411-1411م
9	سعيد بن موسى	814-814هـ/1411-1411م
10	أبو مالك عبد الواحد بن موسى (للمرة الأولى)	814-828هـ/1411-1425م
11	أبو عبد الله محمد (الثالث) بن عبد الرحمن	828-834هـ/1425-1428م
12	أبو مالك عبد الواحد بن موسى عبد الواحد (للمرة الثانية)	831-833هـ/1428-1430م

13	أبو العباس أحمد المعتصم بن موسى	834-866هـ/1431-1462م
14	أبو عبد الله محمد (الرابع) المتوكل	866-890هـ/1462-1485م
15	أبو ثابت محمد السادس	890-902هـ/1485-1496م

ث_أبرز سلاطين الدولة الحفصية في المغرب الأدنى

الرقم	السلطان	تاريخ الحكم
1	أبو العباس أحمد الثاني المستنصر	789-796هـ/1387-1394م
2	أبي فارس بن عبد العزيز المتوكل بن أحمد الثاني	796-837هـ/1394-1434م
3	أبو عبد الله محمد (الرابع) المستنصر بن محمد	838-839هـ/1434-1435م
4	أبي عمرو عثمان بن محمد (الرابع)	839-893هـ/1435-1488م
6	أبي زكريا يحيى بن مسعود	893-899هـ/1488-1491م

جدول (2)

ملوك ممالك قشتالة وأراغون والبرتغال (792-897هـ/1390-1492م)

أ_ مملكة قشتالة:

الرقم	الملك	تاريخ الحكم
1	خوان الأول Juan I	781-792هـ/1379-1390م
2	هنري الثالث Enrique III	792-808هـ/1390-1406م
3	خوان الثاني Juan II	808-858هـ/1406-1454م
4	هنري الرابع Enrique IV	858-879هـ/1454-1474م
5	إيزابيل الكاثوليكية Isabel La Catolica	879-910هـ/1474-1504م

ب_ مملكة أراغون

الرقم	الملك	تاريخ الحكم
1	خوان الأول Juan I	789-797هـ/1387-1395م
2	مارتن الأكبر Martin el grande	797-813هـ/1395-1410م
3	فرناندو دي أنتقيرة Fernando de Anteguera	815-819هـ/1412-1416م
4	الفونسو الخامس Alfonso V	819-862هـ/1416-1458م
5	خوان الثاني Juan II	862-884هـ/1458-1479م
6	فرناندو الثاني الكاثوليكي Fernando II El catolico	884-922هـ/1479-1516م

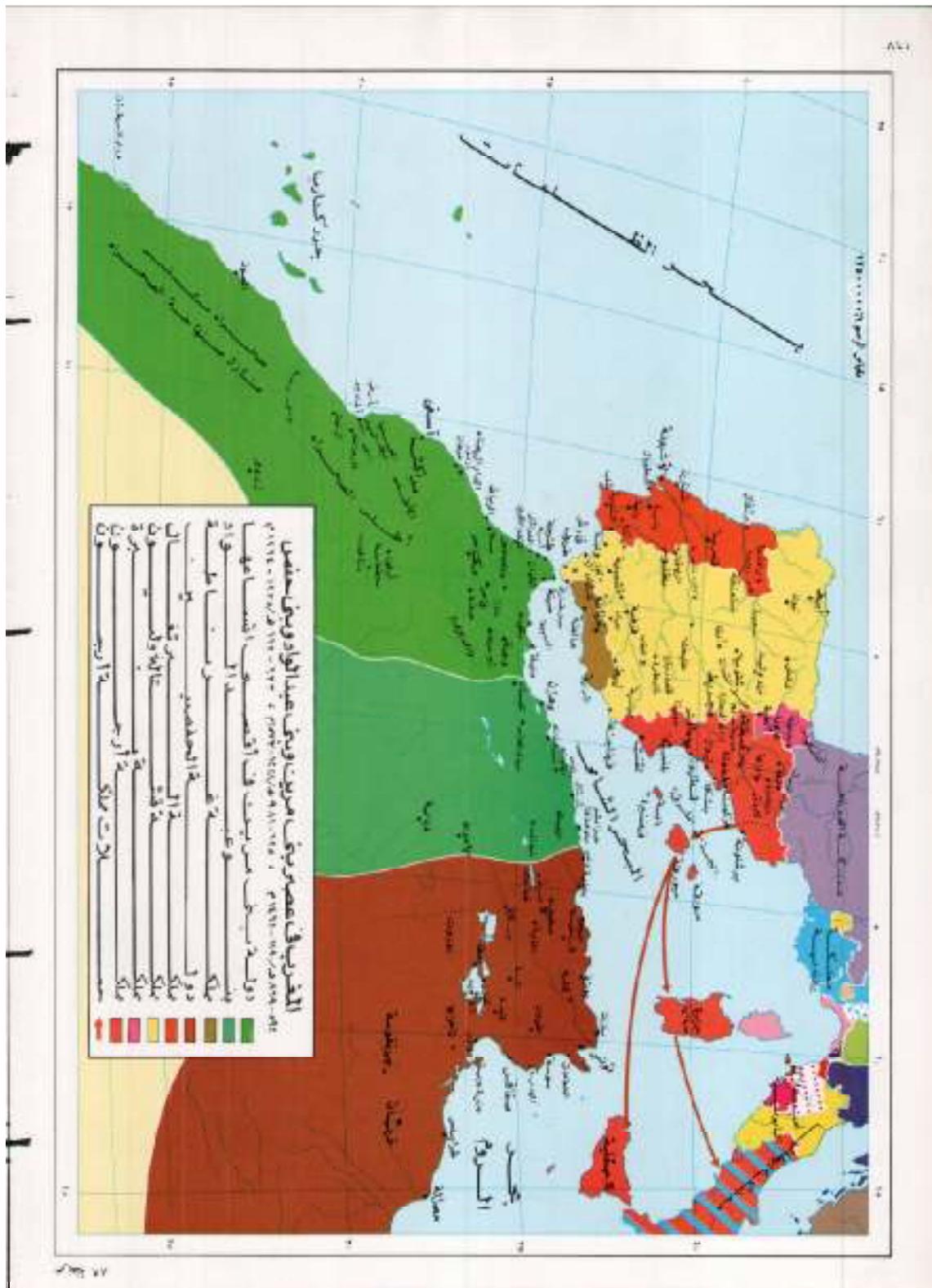
ت_ مملكة البرتغال

1433-1385م / 836-787هـ	Joao II جواو الأول	1
1438-1433م / 841-836هـ	Duarte I دوارتي الأول	2
1481-1438م / 886-882هـ	Alfonso V الفونسو الخامس	3
1495-1481م / 900-886هـ	Joao II جواو الثاني	4

جدول (3)

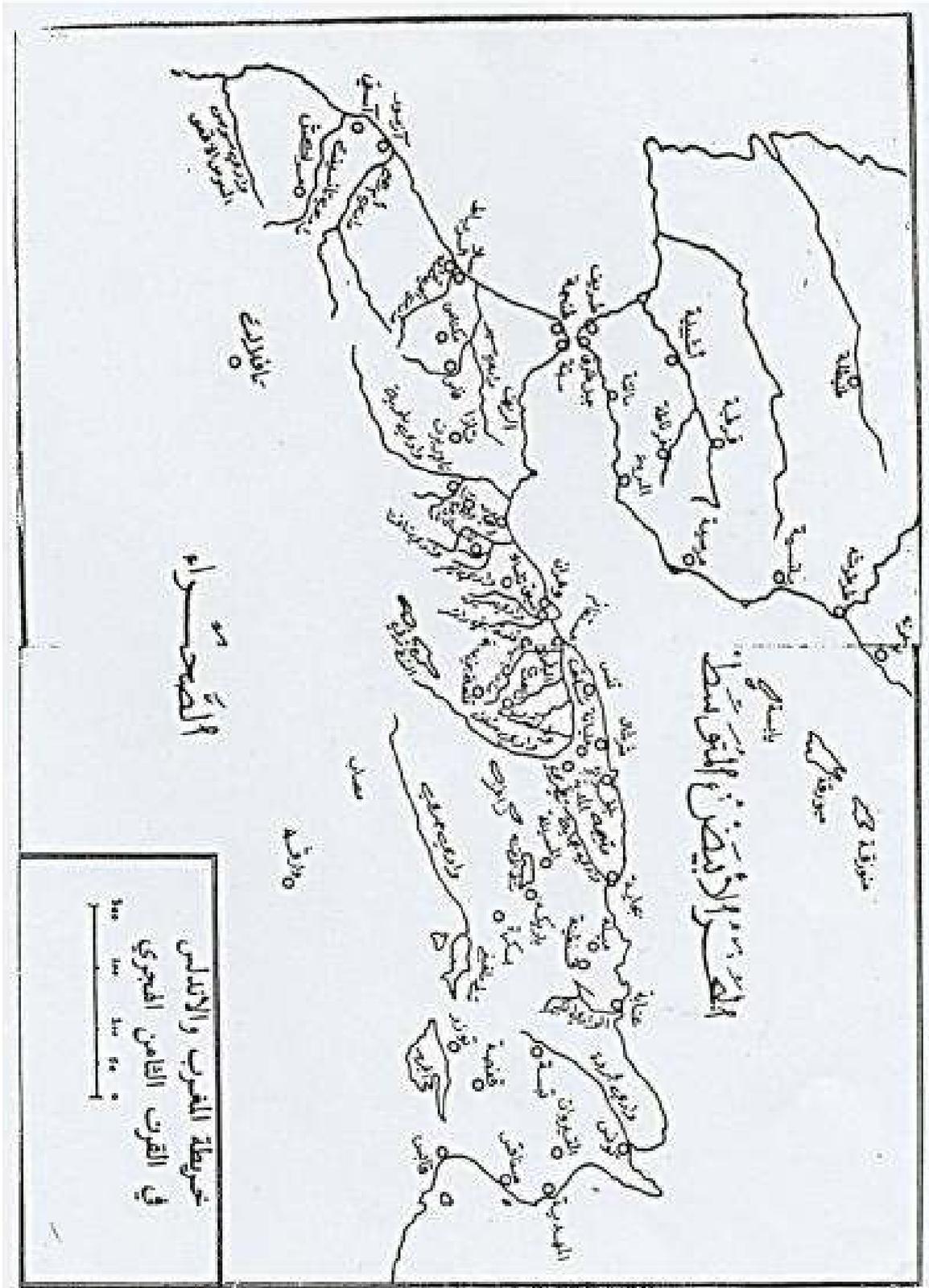
أبرز بابوات روما (792-897هـ/1390-1492م)

الرقم	البابا	فترة التولية
1	أوربان السادس Orban VI	780-790هـ/1378-1389م
2	بونيفاس التاسع Boniface IX	791-806هـ/1389-1404م
3	انوسنت السابع Innocent IV	806-808هـ/1404-1406م
4	غريغوري الحادي عشر Gregoria XI	817-820هـ/1414-1417م
5	مارتن الخامس Martin V	820-834هـ/1417-1431م
6	ايجين الرابع Egyne IV	834-857هـ/1431-1447م
7	نقولا الخامس Niccolo V	851-859هـ/1447-1455م
8	كاللستو الثالث III Calliso	859-862هـ/1455-1458م
9	بيو الثاني Pio II	862-868هـ/1458-1464م
10	باولو الثاني Paulo II	868-875هـ/1464-1471م
11	سيستو الرابع Sisto IV	875-889هـ/1484-1492م
12	انوسنت الثامن Innocent VIII	889-897هـ/1484-1492م



خارطة (1): المغرب في عصر بني مرون وبني عبد الواد وبني حفص.

انظر: مؤنس، ص 167.



خارطة (3): بلاد المغرب والأندلس في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي.

انظر: بوحسون، ص 287.

**An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies**

**Crusader Policy Towards Al-Andalus
and AL- Magherb Countries (792-
897A.H/ 1390-1492A.D)**

**By
Bisan Imad Yusef Qatouni**

**Supervised by
Dr. Amer AL- Qubbaj**

**This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the
Requirements for the Degree of Master of History, Faculty of
Graduate Studies, An-Najah National University, Nablus,
Palestine.**

2019

**Crusader Policy Towards Al-Andalus and AL-Magherb Countries
(792-897A.H/ 1390-1492A.D)**

**By
Bisan Imad Yusef Qatouni
Supervised by
Dr. Amer AL-Qubbaj**

Abstract

The wars waged by the European Crusader forces with the support of the Papacy against the Maghreb and Andalusia were considered as an extension of the Crusades in the countries of the East. The most important of these forces in the ninth century AH / fifteenth century AD, were France, Spain and Portugal, in addition to the municipalities of Italian cities, especially the city of Genoa, which has been active in the attacks against the city of Tripoli and the island of Djerba since the eighth century AH /fourteenth century AD, which were Hafsid State Property. The reasons that led these forces to exercise their aggressive policy varied between religious, political and economic reasons and motives, exploiting the poor internal conditions and their turmoil in the Maghreb countries, and the temptation to acquire their wealth and economic wealth. Its geographical location and its long coastline on the Mediterranean and the Atlantic Ocean played an important role in guiding the Crusader eyes to its territory. One of the most prominent Crusades that targeted the country of Morocco: Louis II campaign on Mahdia in 792 AH/1390 AD, and then the Portuguese control of the city of Ceuta in 818 AH / 1415 AD, which represented the occupation of the most important step on the road to colonial policy. Although they failed to control the city of Tangier in 840

AH / 1437 AD, they were able to do so in 867 AH / 1463 AD. The Portuguese until the year 891 AH / 1468 AD were able to take control of many other cities in the far Maghreb, such as the Al-qaser Al-sagheer , Asilah , Anfa , Asfi and Azmour, after the inability of the Marinid state and then stationery to defend their cities and property. The cities of Morocco in the Near and Middle were not isolated from the Spanish attacks. The Spaniards in this period relied on surprise attacks, vandalism, pillage and then leave. They were not able to stable in the cities they attacked since they were busy in fighting the Muslims of Andalusia. They apparently aimed to sever the links between Morocco and Andalusia ,and the attempt to eliminate the maritime jihad movement from the ports of the Maghreb. One of the most important features of the European crusade against Muslims in the Muslim West; Spanish wars against the Islamic presence in Andalusia, where the Kingdom of Granada, the last Islamic kingdoms there. The conquest of Constantinople by the Ottomans in 857 AH / 1453 AD contributed greatly to the attention of the European crusader forces towards the land of Andalusia, especially since the papacy had won victory over the Muslims in Andalusia as compensation for its loss in the East, and therefore put all its human and material resources at the disposal of Spanish Kings. The great Spanish victory came in the year 855 AH / 1462, with their control of Gibraltar, and their attacks against the Andalusians increased after the accession of King Fernando and Isabel to the unification of the Castilian and Aragonese crowns in 884 AH / 1479 AD, which enabled them to launch a series of military operations against the

Andalusian castles and cities, especially during the period known as the 10-year war, which began in 887 AH / 1482 AD, they controlled most of them, leaving only the capital of Granada, which they were able to enter in Rabi al-awwal 897 AH / January 1492.